
د. عبد العزيز فيلالي
بحوث في تاريخ
المغرب الأوسط
في العصر الوسيط
دار الهدى

د. عبد العزيز فيلالي

بحوث في تاريخ المغرب الأوسط

في العصر الوسيط





دار الهدى
للطباعة والنشر والتوزيع
المنطقة الصناعية ص ب 193 عين مليلة - الجزائر
الهاتف: 032.44.92.00 / 032.44.95.47 الفاكس: 032.44.94.18
web: www.darelhouda.com e-mail: darelhouda@yahoo.fr
facebook.com/darelhoudaed

عنوان الكتاب: **بحوث في تاريخ المغرب الأوسط في العصر الوسيط**
اسم المؤلف: **عبد العزيز فيلالي**
عدد الأجزاء: **1**
الحجم: **16.5 x 24**
عدد الصفحات: **176**
الرقم التسلسلي: **2014 - 16**
رقم الإيداع القانوني: **2014 - 1314**
ردمك: **978 - 9961 - 60 - 119 - 8**

الفروع
عين مليلة: - طريق باتنة، الهاتف: 030.34.46.85 الفاكس: 030.34.46.84 عين مليلة.
- الحي البلدي، الهاتف: 032.44.83.57 الفاكس: 032.44.92.67 عين مليلة.
قسنطينة: - حي كوحيل لخضر جنان الزيتون، الهاتف: 031.92.22.08 الفاكس: 031.92.27.08 قسنطينة.
الجزائر: - 01 شارع أوراس بشير باب الواد الهاتف: 021.96.62.20 الفاكس: 021.96.61.11 الجزائر.
- 02 شارع أحمد محند الحراش: تلفاكس: 021.83.13.07 الجزائر.
وهران: - 05 شارع زيفود يوسف عمارة الحرية، الهاتف: 041.30.29.99 / 041.30.30.04 الفاكس: 041.30.30.05 وهران.
تامنغست: - حي الحفرة بالقسم 219، الهاتف: 029.34.76.24 تامنغست.

Scanned by CamScanner

مُقَدِّمَة

يهدف هذا المصنف الذي يحمل عنوانا "**بحوث في تاريخ المغرب الأوسط في العصر الوسيط**"، إلى تمكين الطلبة والدارسين والباحثين، على مختلف درجاتهم ومواقعهم، في حقل العلوم الإنسانية والاجتماعية ولاسيما المؤرخون منهم، من الاستفادة من مضامينه التاريخية والمنهجية، لأن التاريخ علم يرتكز على مناهج عديدة وأدوات بحث متنوعة، وعلوم مساعدة، تمكن الباحث من الوصول إلى قلب الأحداث ومضمونها، وتحليلها وتركيبها، واستنباط مقاصدها للوقوف على الواقع والحقيقة، وتتجسد أهمية التاريخ وقوته في حفظ معالم الذات وأبعادها، وتعريف الواقع التي حدثت فيه في حيز جغرافي وفترة زمنية معينة.

إن البحث في مجال الدراسات الاجتماعية والعقلانية والذهنيات، والعلاقات السياسية والدبلوماسية والتجارية، ليس سهلا ميسورا، بل من الصعوبة بمكان لنقص المصادر المونوغرافية والاستغرافية في هذا المجال، بالرغم من صدور العديد من هذه الدراسات والأبحاث، ولاسيما في حقل الدراسات العليا في الجامعات الجزائرية من قبل الباحثين الشباب، إلا أنه لا يزال المجال واسعا في بعض الجوانب، يعتبر بكرا، يحتاج إلى البحث والدراسة، والحفر في مصادره والتنقيب عن مظانه الأساسية، التي لا تزال مغيبة لإماطة اللثام عن المغمور والمستور، وتسليط الضوء على جوانب عديدة لا تزال غامضة وخاصة في إقليم المغرب الأوسط.

وقد خصصت لهذا المصنف، مجموعة من المباحث، نشرتها عبر صفحات مجلات محكمة عديدة، داخل الوطن وخارجه، منذ سنوات خلت من القرن الماضي، وخلال هذا القرن، تتضمن عناوين لعلها تبدو بعيدة في مواضيعها،

لكنها تتقارب في المضامين التاريخية والجغرافية والحقب الزمنية، والمقاربة المنهجية المستعملة فيه.

ونهيب بالدراسات الجديدة العديدة التي ظهرت وواكبت تطور مناهج العلوم الإنسانية والاجتماعية، من جهة واكتشاف مصادر ووثائق جديدة، يمكن أن تضيف الجديد لمواضيع كتبناها تتراوح أعمارها من ثلاثين سنة إلى سنة وسنتين وتزيد في عمق مضامينها الاجتماعية والدبلوماسية والاقتصادية والثقافية في المغرب الأوسط في العصر الوسيط.

يتصدر الكتاب مبحثا بعنوان: "الدولة الجزائرية في ظل الخلافة الإسلامية" (الأشكال الجديدة للدولة) عرّفنا بأن الجزائر عبر عصرها الوسيط تعاقبت عليها دول تتوفر على أركان الدولة ومقوماتها، وأن الدولة الجزائرية تمتد جذورها من التاريخ القديم إلى العصر الحديث، ولم تكن ولادة التاريخ المعاصر كما ذهب إليه الاستعمار الفرنسي، الذي روّج لذلك أكثر من قرن وربع قرن.

فالدولة الجزائرية لها عمق تاريخي بعيد، على الرغم من فارق الزمن والتنظيم السياسي والإداري، ونمط أسلوب الحكم المعتمد، والخصائص الإقليمية والبشرية والطبيعية وقيمتها الحضارية، حتى نحصن المجتمع ونحمي أبناءه من الأقوال الغربية، التي تنكر على الجزائر دولها وشعبها ونبعد عنهم الأفكار الغريبة المدمرة، والثقافات الهجينة والانزلاقات الخطيرة والمعتقدات الهدّامة.

ويتضمن المبحثان الثاني والثالث، جوانب من العلاقة السياسية بين الدولة الرستمية في تيهرت والدولة الأموية في قرطبة، وكذا العلاقة التجارية بين تيهرت وقرطبة، وهي علاقة كانت جيدة، في المجال السياسي والدبلوماسي والاقتصادي بالرغم من اختلافهما في المذهب، فضمنت لهما هذه العلاقة

الطيبة، الاستقرار ودعم المصالح المشتركة ودفع المخاطر الخارجية والانقلابات الداخلية.

ويشتمل المبحث الرابع، على الصلات الثقافية والفكرية بين مدينتي قسنطينة وتلمسان، والتي تعدد مجالها منذ الفتح الإسلامي لبلاد المغرب الأوسط، وتجلى ذلك في انتقال العلماء والقضاة والمدرسين والطلبة والكتب بين المدينتين، والمساهمة الجماعية المشتركة في تحريك المثاقفة ونشر الحضارة الإسلامية في بلاد المغرب والمشرق والأندلس.

وتناول المبحث الخامس "التيارات الفكرية بتلمسان الزيانية المطعّمة برافدين قويين هامين هما: رافد المشرق، ورافد الأندلس، فضلا عن رافد الجهاز العلمي المحلي، الذي أنتج العديد من التيارات الفكرية والثقافية بالعاصمة الزيانية، ساعدت على ازدهار الحركة العلمية في المغرب الأوسط وانتشارها.

ويعالج المبحث السادس، الأحوال الصحية لسكان مدينة تلمسان في عهد بني زيان، وخاصة منها الأمراض المتوطنة والوبائية، وأشهر الأطباء والأمراض، والظواهر الطبيعية كالجفاف والجراد والمجاعات والسيول الجارفة والأزمات السياسية والحروب المخربة للعمران وتأثيرها على سكان المدينة.

ويحتوي المبحث السابع على موضوع لا يقل أهمية عن المواضيع الأخرى، يتطرق إلى الماء والمجتمع في المغرب الأوسط من خلال كتب النوازل الفقهية، ويعالج أنواع الماء ومصادره، وأهميته للإنسان والحيوان والنبات، لأن كتب الفقه والفلاحة، تركت لنا مادة غزيرة في هذا الجانب، حتى أصبحت تعد ملاذا للباحثين والدّارسين، لأنها تتوفر على المجال الاجتماعي والفلاحي والثقافي والعمراني، ولنقص المصادر التقليدية

التاريخية وقلتها وشحها في هذه المادة، ولاسيما إذا تعرضنا لتاريخ المغرب الأوسط وحضارته في العصر الوسيط.

وختمت الكتاب بمبحث طريف، لا يخرج عن المجال الاجتماعي، وهو البعد التاريخي والاجتماعي لعيد "يناير" في الجزائر، وجعلت من مدينة قسنطينة نموذجا لهذه الدراسة.

وقد حاولت قدر المستطاع، أن أستقرئ النصوص، متسلحا بآليات المنهج العلمي للبحث على قدر خبرتي، حتى أجعل من المعطيات التاريخية، تتضمن نتائج علمية هادفة، متخذا من المصادر الأساسية التاريخية والجغرافية والفقهية، والرحلات وكتب الطبقات والمجاميع، مرتكزا لهذه البحوث، عسى أن أكون قد وفقت في وضع مادة علمية أمام الباحثين والدارسين، تتمثل في مجموعة من المواضيع والمباحث في مجالات مختلفة يستفيدون من مادتها التاريخية والمنهجية والمباحث في حد ذاتها، تعد صورة لما يعرف بالاجتماع الإنساني، على مستوى العلاقات السياسية والذهنية والاجتماعية، تساعد القارئ على فهم التحولات التاريخية في المغرب الأوسط في العصر الوسيط.

ومن الله التوفيق والسداد

قسنطينة في 2014/02/28

د.عبد العزيز فيلالي

الدولة الجزائرية في ظل الخلافة الإسلامية (الأشكال الجديدة للدولة)

مقدمة:

قبل الحديث عن استمرار الدولة الجزائرية في العصر الإسلامي الوسيط في ظل الخلافة الإسلامية، الذي دام نحو تسعة قرون من الزمن، وتتبع الدول التي تعاقبت على المغرب الأوسط، كسلطة سياسية ونظام إداري وقوة عسكرية وبحرية، وهي الإشكالية التي شغلت الباحثين المختصين، في مجالات علم الاجتماع والتاريخ والسياسة.

فقد خاضوا جميعا في تعريف الدولة الحديثة ومؤسساتها، برؤى مختلفة لكنهم جميعا اتفقوا على أن الدولة تخضع إلى عدة أركان ومقومات ومن أهم أركانها عنصر السكان، لأن الدولة مجموعة من الناس أو الجماعات، تجمع بينهم مقومات اللغة والدين والعادات والتقاليد والأصل والآمال والطموحات.

أما الركن الثاني فهو الإقليم الجغرافي الذي يعيش فيه الشعب أو الأمة، ولا يمكن الاعتراف دوليا بالدولة التي تفتقر للرقعة الجغرافية.

ويتمثل الركن الثالث في الحكومة، أو التنظيم السياسي للدولة، ويمكن هنا أن نفرق بين الدولة والحكومة، فالمصطلح الأول أعم وأشمل من الثاني، لأن الحكومة تعد جزءا من مكونات الدولة.

ويقصد بالركن الرابع عنصر "السيادة"، لأن هذه الأخيرة تمنح الدولة السيادة على الرقعة الجغرافية وأهلها، وكذلك على المجال البحري والجوي.

وأما الركن الخامس، فهو الاعتراف بها من قبل الدول المعاصرة لها، والعلاقات التي تربطها بالمحيط الدولي.

وإذا قمنا بمقارنة بسيطة على ضوء النصوص والوثائق المتوفرة لدينا، التي تتحدث عن الدول المتعاقبة على المغرب الأوسط، بالتعريف الحديث للدولة نجد الجزائر قد تعاقبت عليها دول تتوفر على هذه الأركان والمقومات بالرغم من فارق الزمن والتنظيم السياسي والإداري والمعتقد، والخصائص الإقليمية والبشرية والطبيعية، ومحاولة مؤرخي الاستعمار الروماني والبيزنطي في القديم والفرنسي في الحديث تشويه الحقائق وتزييفها بعدم وجود دولة جزائرية لتكريس الهيمنة والاستعباد والاستغلال وإضعاف الشعور الوطني والقومي للجزائريين، وتجريدهم من الثقة بالنفس، وتشكيكهم في أصولهم وكيانهم السياسي والحضاري، عبر قرون عديدة خلت.

إن الشعوب المفتوحة، التي تستورد الأفكار والثقافات، والإيديولوجيات من الغرب والشرق، وتستهلكها كما تستهلك المواد الغذائية والمصنوعات، بدون تمعن وتدبّر.ولا تنتج أفكارها ومعارفها ونظامها، ولا تصنع ثقافتها الوطنية وقيمها الحضارية، وتُدوّن تاريخها الوطني، لتحصين نفسها وحماية أبنائها من الأفكار الغريبة والثقافات الهجينة، والمفاهيم الدينية والمذهبية المتطرفة والخاطئة، والمعطيات التاريخية وقضاياه المشوهة، تظل عرضة لكل الاتجاهات وبؤرة لكل التحولات.

والجزائر غير بعيدة عن حقل هذه الظواهر وأهدافها وليست بمنأى عن هذه المخابر والمختبرات، لأنها تتميز بموقع جيواستراتيجي هام وسوسيوثقافي متفتح، ووفرة الموارد الطبيعية ومقدراتها الاقتصادية الواسعة وأرضها الشاسعة، لأنها أصبحت في الوقت الحاضر أكبر دولة مساحة في إفريقيا، تجعلها هدفا للطامعين وعرضة للمغامرين، وقد قال أجدادنا قديما: **"قموحنا ومطاميرنا وزياتيننا سبب احتلالنا"**.

تعريف المغرب الأوسط وبعده الجغرافي:

عرَّف المؤرخون والجغرافيون المغرب الإسلامي عامة، بالإقليم الواقع غرب البلاد المصرية، وتشمل شمال إفريقيا، وتتضمن حاليا كل من ليبيا وتونس والجزائر والمغرب الأقصى. وقسمه الجغرافيون العرب إلى ثلاثة أقاليم هي: المغرب الأدنى أو إفريقية (تونس) وهو الإقليم الأقرب من مصر، والمغرب الأوسط (الجزائر) وهو الإقليم الذي يتوسط المغرب الأدنى والمغرب الأقصى، ثم المغرب الأقصى وهو الأبعد عن الديار المصرية.

وعموما فالتسمية يقصد بها الإقليم الواقع غرب الخلافة الإسلامية باتجاه غروب الشمس، عكس البلاد الواقعة في اتجاه شروق الشمس وهي بلاد المشرق[1].

ومهما يكن من أمر، فإن الجغرافيين والمؤرخين وبعض العلماء حددوا لنا الرقعة الجغرافية للمغرب الأوسط، وكادوا يجمعون على حدوده ويتفقون عليه، على الرغم من ديمومة حركة القبائل المستمرة، مما جعل الحدود بين هذه الدول، تخضع للتوسع والتقلص في بعض المراحل، بسبب حالة القوة والضعف للدول المتعاقبة على المغرب الأوسط، وتسخير استثمار خدمة القبائل، لأهدافها السياسية والعسكرية والاقتصادية والمذهبية[2].

ويشير ابن خلدون الخبير بأوضاع المغرب الأوسط، إلى أنه بلد زناتة التي تستقر في الإقليم الواقع ما بين الزاب شرقا ونهر ملوية غربا، وهو الوادي المعروف قديما بملوشة، وهي حدود ثابتة تقريبا من الغرب لم تتغير إلا في بعض الأوقات والحالات. واعتبر المنطقة الممتدة من الجزائر إلى بجاية ودواخلها بلاد صنهاجة الشمال، وعاصمتها مدينة "أشير" بولاية المدية حاليا، وكذلك

---

(1) سعد زغلول عبد الحميد: تاريخ المغرب العربي، ص 61. عبد العزيز سالم: المغرب الكبير، ج2، ص 127-128.

(2) الطاهر بونابي: التصوف في الجزائر خلال القرنين 6 و7هـ، دار الهدى 2004، ص 29.

حيث كانت تستقر قبيلة زواوة وجعل المنطقة الممتدة من بجاية إلى ما وراء قسنطينة، تقطنها قبائل كتامة، وعجيسة وجراوة.غير أن هذا التقسيم أستند إلى توزيع قبلي صرف لمرحلة ما قبل القرن 5هـ/ 11م[1].

وحدد الجغرافي الإدريسي إقليم المغرب الأوسط، في نهاية القرن 6هـ/ 12م بقوله: "**ومدينة بجاية في وقتنا، مدينة المغرب الأوسط، وعين بلاد بني حماد، ومدينة تلمسان قفل بلاد المغرب الأوسط**"[2].ولم يختلف معه الجغرافي ابن سعيد المغربي (685هـ-1287م) لاعتباره مدينة بجاية قاعدة المغرب الأوسط[3].

أما الحدود الشرقية، ففي أغلب الأحيان، امتدت إلى ما وراء بونة، كما أشار إلى ذلك المؤرخ عبد الواحد المراكشي (647هـ/ 1249م) بقوله: "**ومدينة بونة هي أول حد بلاد إفريقية**"[4].

واتفق معه ابن سعيد المغربي، حيث جعل:"أول سلطنة إفريقية على البحر مدينة بونة"[5]، وضبط عبد الرحمان بن خلدون، الحدود الجنوبية للمغرب الأوسط إلى ورجلان والصحراء في عهد بني حماد[6].

وكان يغمراسن قد أوصى ولي عهده، بالتوسع نحو الشرق لاسترداد الرقعة الجغرافية للدولة الزيانية في المغرب الأوسط، لأن حدودها من الغرب تقريبا ثابتة ومعروفة، ولهذا ركز خلفه من بعده كل من أبي سعيد عثمان (681-703هـ/ 1283-1303م)، وكذلك أبي حمو موسى الأول 703-718هـ/ 1307-1318م) وابنه أبو تاشفين الأول (718-737هـ/ 1318-1337م)، الذي بلغ مدى

---

(1) الطاهر بونابي، ص 29-30 – ابن خلدون: العبر، ج6، ص 43هـ.

(2) نزهة المشتاق، ص 102-116.

(3) كتاب الجغرافيا، ص 142.

(4) المعجب، ص 144.

(5) كتاب الجغرافيا، ص 142.

دولته شرقا إلى مدينة تونس[1] ثم تراجعت الحدود الشرقية إلى أن استقرت كما يصفها التنسي ويحددها بجبل الزان أكفادو[2]، بينما يذكر كل من ابن خلدون (808هـ/ 1405م) والحسن الوزان (947هـ/ 1550م) حدودها الشرقية تقف عند أطراف الوادي الكبير أو وادي الصومام[3].

لاشك أن الثورات والانتفاضات، التي ظهرت في بجاية وقسنطينة وجزائر بني مزغنة وبسكرة، ضد الحكم الحفصي في هذه المدن، تعبر عن واقع رفضهم للحفصيين، والرغبة في الانفصال عن إفريقية[4].

ولعل هذه الظاهرة توضح لنا، موقف رجال الدين والفقهاء والعلماء وعلية القوم، من خلال نصوص كتب التراجم والطبقات، الذين تمسكوا بانتمائهم الجغرافي، وعبروا عن موقفهم، والمحافظة على انتمائهم الجغرافي داخل حدود المغرب الأوسط، الذي يمتد من بلاد العناب شرقا، إلى ما وراء تلمسان غربا، ومن البحر الأبيض المتوسط شمالا إلى صحراء توات وورجلان جنوبا.

ومن بين هؤلاء العلماء الغبريني البجائي، الذي أخذ بشمولية الإمتداد الجغرافي للمغرب الأوسط، بحدود الدولة الحمادية، بحيث ترجم لعلماء ومتصوفة وفقهاء من عنابة وبجاية وبواديهما، من بني يتورغ وبنى غليس وبني منجلات، ومشدالة ومن قسنطينة وسطيف وأريس وبسكرة وقلعة بني حماد والمسيلة وجزائر بني مزغنة ودلس ومليانة ووهران وتلمسان، وجعل انتماء هذه القبائل والمدن جغرافيا إلى المغرب الأوسط، بينما جعل مواطن العلماء الذين ترجم لهم من مناطق افريقية والمغرب الأقصى فقد حدد انتماءهم الجغرافي، فعند ذكره مثلا لعلماء تونس، يستعمل لفظ من "أهل افريقية"، ولما

---

(1) يحيى بن خلدون: شعبة الرواد، ج1، ص 216.

(2) انظر الدرو العقيان، ص 184.

(3) وصف إفريقيا، ج7، ص 223.

يتحدث عن علماء أغمات ومراكش وفاس وهسكورة يستعمل مصطلح من المغرب، وعندما ترجم أبو العباس الغبريني (704هـ–1306م) للصوفي أبي محمد عبد الحق البجائي (675هـ/ 1277م) قال عنه: "لم يكن في وقته بمغربنا الأوسط بالرغم من أن حاضرة بجاية، كانت تتبع من الناحية السياسية لدولة بني حفص[1]، وفي نفس الاتجاه نجده عند المؤرخ يحي بن خلدون الذي أدرج في كتابه بغية الرواد إلى جانب علماء تلمسان وفقهائها وصوفيتها، علماء من القل وقلعة بني حماد ومقرة ومشدالة وزواوة وتنس ووهران[2].

المغرب الأوسط في عهد الفتوحات والولاة:

خضع المغرب الأوسط كغيره من بلدان المغارب، للاحتلال البيزنطي، ولاسيما الجهة الشمالية منه، بحيث زحزحته ثورات القبائل المحلية وضرباتها المستمرة والمتكررة، مما جعلت الإدارة البيزنطية وجيشها، تنسحب مضطرة نحو الشمال وإلى الشواطئ المغربية.بل ومنهم من غادر بلاد إفريقية إلى الجزر المقابلة في البحر الأبيض المتوسط وخاصة جزيرة صقيلة[3] قبيل الفتح الإسلامي.وكان من ثمار ذلك نشوء نواة للحكم المحلي على شكل إمارات مستقلة في المغرب الأوسط، على أساس من السكان المحليين، الذين نجح قادتهم في إنشاء مرتكزات للحكم قبيل الفتح الإسلامي[4] .فحلت محلهم بعض قبائل المغرب الأوسط، فكانت على درجة كبيرة من الأبهة والاستعداد والانتظام كقوة سياسية، ولاسيما قبيلة "أوربة" البرنسية، التي كانت أكثر عددا وأشد بأسا وقوة، وهي من ولد "أورب بن برنس"، تتشكل من بطون عديدة، وكان

(1) عنوان الدراية من ص 46-294 الطاهر بونابي، المرجع السابق، ج1، ص 107-111.
(2) بغية الرواد، ج1، ص ص 101-132.
(3) الاستبصار، ص 155.
(4) بشير بزيز: القبائل البدوية في المغرب الأوسط "أوربة نموذجا" مذكرة ماجيستير جامعة قسنطينة (2) 2013، ص 45 -.46.

أميرهم عند الفتح "كسيلة بن ملزم الأوربي"، في إقليم تلمسان[1]، مما جعل أهل المغرب الأوسط، يسترجعون كيانهم السياسي على شكل إمارات.

وكانت منطقة الأوراس، تخضع لقبيلة "جراوة البترية"، والقبائل المتحالفة معها بالمغرب الأوسط، تحت قيادة الزعيمة الأوراسية المعروفة باسم الكاهنة، ويقال لها "داهية بنت ماتية بن تيغان"، ملكة جبل الأوراس، فقد كان "جميع من بإفريقية منها خائفون، وجميع البربر لها مطيعون"، حسب تعبير المالكي[2].

وقد وجد الفاتحون المسلمون، جبهة المغرب الأوسط (الجزائر)، من أصعب جبهات القتال، لشدة مقاومة أهله ضد الاحتلالات العديدة من قبل عناصر غازية كالفينيقيين والرومان والوندال والبيزنطيين عانوا منهم الأمرين، وذاقوهم الظلم والهوان مدة تزيد عن (1500) سنة.فلم تستكن مقاومات هذه القبائل ولم تتوقف ثوراتهم خلال هذه الفترة الطويلة، حتى أصبح أهل المغرب الأوسط، أهل حرب ونجدة وقوة، لا يرضون بالحكم الأجنبي، ولا يرضخون للاستعمار، وهي طبيعة الرجل البدوي الأصيل، الذي يفضل تغيير موطنه ومسكنه، على الخضوع والخنوع والاستبداد، فكانت الرحلة والقتال والكفاح جزء من حياته، والهجرة ملجأ له من عوادي الزمن[3].

فوجد المسلمون الفاتحون مقاومة شديدة، من سكان المغرب الأوسط أقوى بكثير من مقاومة الجيش البيزنطي، فتسببت في تأخير إتمام الفتح، الذي دام أكثر من سبعين سنة منها خمسين سنة من المعارك والحروب الدموية المتواصلة، بينما نجده لم يتطلب الوقت في فتح كل من فارس والعراق والشام ومصر، أكثر من عشر سنوات فقط[4].

---

(1) ابن خلدون: العبر، ج6، ص 193 – ابن عبد الحكم: المرجع السابق، ص 267.

(2) المالكي: رياض النفوس، ص 32 – ابن عذارى: البيان، ج1، ص 35.

(3) عبد العزيز فيلالي: دراسات في تاريخ الجزائر والغرب الإسلامي، ص 37.

(4) الاستبصار، ص 156.

ومهما يكن من أمر، فإن ما تجدر الإشارة إليه، هو كيف اندمج أهل المغرب الأوسط (الجزائر) مع المسلمين، وكيف تقبلوا دينهم ولغتهم، في فترة زمنية قدرت بسبعين سنة، بينما رفضوا ديانة وحضارة ولغة الأقوام السابقة للفتح الإسلامي، التي أقامت في هذه الربوع أكثر من (1500) سنة، بحيث لم تستطع هذه الأقوام أن تجعلهم فينيقيين أو رومان أو وندال أو بيزنطيين، ولم يتحقق الانصهار والاندماج فيهم بل ظل أهل المغرب الأوسط يحافظون على هويتهم ولغتهم وثقافتهم.

وحتى المسلمين قاوموهم في بداية الأمر، وتصدوا لهم بكل قوة وعنف وتسببوا في هزيمتهم مرتين على أرض الجزائر (المغرب الأوسط) دون غيرها، فكانت الهزيمة الأولى على يد "كسيلة" في معركة تهودة بسيدي عقبة حاليا سنة 64هـ/683م[1].

وكانت الهزيمة الثانية للجيش الإسلامي في المغرب الأوسط أيضا (الجزائر)، على يد زعيمة الأوراس "الكاهنة" أميرة قبيلة جراوة، في وادي مسكيانة بالشرق الجزائري حاليا سنة 74هـ/ 693م لأنهم كانوا يظنون بأن المسلمين لا يختلفون عن الأجناس الأخرى السابقة لهم، جاءوا لاستغلالهم والاستيلاء على أراضيهم، وعلى خيرات بلادهم[2].

لكنهم حينما عرفوا الأهداف النبيلة للفتح والفاتحين، واطلعوا على تعاليم الإسلام ومبادئه السمحة، وما جاء به من إخاء وإنسانية ومساواة بين الناس، وتحسسوا بعدم رغبة المسلمين في الاستيلاء على أراضيهم وممتلكاتهم وطردهم من ديارهم، ولم يجلبوا معهم مستوطنين للإقامة على أراضيهم وفي ديارهم، ولم يكن معهم رجال دين مميزين عن الرعية مستغلين كرجال الكنيسة.ورأوا بأن

---

(1) ابن عبد الحكم: المصدر السابق، ص 199 - المالكي: رياض النفوس، ج1، ص 5.

(2) نفسه، ص 200 - الرفيق القيرواني: تاريخ إفريقية والمغرب، ص 18.

المسلمين لا يميزون بين كبيرهم وصغيرهم إلا بالتقوى والعمل الصالح، وأن الانتقال من طبقة اجتماعية إلى أخرى من السهولة بمكان عند المسلمين، وهي أمور لم يتعودوا عليها عند الرومان والوندال والبيزنطيين.

غير أن الملاحظ هنا، بأن المسلمين لم يتمكنوا من استمالة أهل المغرب الأوسط إلا بعد سياسة اتسمت باللين والمداراة والتقرب من الأهالي وزعماء القوم وكبارهم، وإشراكهم في ديوان الجند وفي الفتوحات وقيادة الجيوش، بعد إشهار إسلامهم، كجنود مجاهدين كاملي الحقوق والواجبات مع المسلمين القادمين، وليس كمرتزقة، كما كانوا في العهود السابقة وشاركوهم في تسيير الشأن العام في إطار الإدارة العربية الإسلامية[1].

وقد اتضحت هذه السياسة في عهد كل من أبي المهاجر دينار (55-62هـ/674-681م) الذي استطاع أن يكسب إسلام قبيلة كتامة البرنسية وكبار القوم فيها، عندما جعل من مدينة"ميلة" عاصمة له لمدة سنتين كاملتين، وتمكن بالكتاميين من مدّ الرقعة الإسلامية في المغرب الأوسط إلى حدوده الغربية في إقليم تلمسان[2].

وهو الذي استمال الزعيم الأوربي "كسيلة" وقبيله إلى الإسلام واكتساب صفه إلى المسلمين. وكذلك قلد حسان بن النعمان (74-86 هـ/693-705م) ابني الكاهنة "يفرن" و"بزديان" قيادة نحو إثني عشر ألف مقاتل من أبناء المنطقة، فكل منهما قاد ستة آلاف جنديا. كما أعطوا القيادة لهلال بن ثروان اللواتي وطريف بن مالك، وطارق بن زياد، الذي كان يفضل الإقامة بمدينة تلمسان[3].

---

(1) عبد العزيز فيلالي: المرجع السابق، ص 41.
(2) ابن عبد الحكم: المصدر السابق، ص 72.
(3) نفسه، ص 72.

فهذه العوامل جميعها ساعدت على نجاح المسلمين، في إدماج أهل المغرب الأوسط واستقطابهم للإسلام، واستيعاب طبائعهم ونفسياتهم، وهي الأسباب التي أخفقت فيها العناصر السابقة بتمييزها واستعلائها واستغلالها للأهالي[1].

فكانت هذه السلوكات مشجعة ودافعة للاختلاط والاندماج في الحضارة العربية الإسلامية، فضلا عن الإسلام دين فطرة، له من المقومات الذاتية ما يقنع الناس على الدخول في رحابه[2]. وهو الأمر الذي جعل بعض المؤرخين الفرنسيين يشتطون غيضا لذلك، ويتساءلون عن سبب استجابة المغاربة للإسلام واللغة العربية في فترة تعد قصيرة[3].

فقد نقل المسلمون راية الجهاد إلى أيدي أمينة من أهل المغرب الأوسط، في جو من الأخوة الصادقة والتعاون المثالي، فأوصلوه إلى أطراف المغرب الأقصى والأندلس وجزر البحر الأبيض المتوسط.

المغرب الأوسط في عهد الولاة:

يطلق مصطلح عصر الولاة في المغرب والأندلس، على الفترة الزمنية التي أعقبت استدعاء الخليفة الأموي الوليد بن عبد الملك موسى بن نصير سنة 96هـ/ 715م من المغرب الإسلامي والأندلس لأن المغرب الإسلامي في هذه الفترة، كان يتبع الخلافة الإسلامية في دمشق في عهد الدولة الأموية ثم بغداد في عهد الخلافة العباسية (132-656هـ/ 749-1258) ويتجلى مظهر هذه التبعية في الولاة الذين حكموا بلاد المغرب باسم الخلافة الإسلامية في المشرق، لأن الخلافة في نظر المسلمين السُّنة، لا تتجزأ ولا تتعدد، وأن الخروج عنها عصيان،

---

(1) عبد الله العروي: مجمل تاريخ المغرب، ص 118.

(2) صالح بن قربة: تاريخ الجزائر في العصر الوسيط، ص 29.

(3) أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج3، ص 282.

وأن الخليفة الشرعي هو حامي الحرمين الشريفين أي الذي يسيطر على منطقة الحجاز أصل العرب والملة المحمدية، ومركز العصبية العربية[1].

فقد كان هذا هو الأصل النظري للخلافة الإسلامية السنية، ولهذا فإن الكثير من الدول السنية سواء منها المعتنقة للمذهب الحنفي أو المالكي، التي نشأت في بلاد المغرب قبل القرن 4هـ/ 10م، لم تجرأ على الخروج عن هذه النظرية، ماعدا التي كانت تحمل الطابع الإباضي أو الصفري أو الشيعي.

أما بعد هذه الفترة الزمنية، فقد خرج البعض عنها بمقتضى السياسة وتغيرات الظروف، التي حتمت الخروج عن الأصل النظري، ووضعه موضع الاجتهاد فأجاز العلماء السنيون، وخاصة الأندلسيون منهم تعدد الخلفاء بعد قيام الدولة الفاطمية في المغرب، ما دامت هناك مصلحة تقتضي ذلك ولاسيما إذا كانت بينهما مسافة جغرافية كبيرة ومساحة شاسعة، لمنع الاصطدام بين المسلمين[2] .فصار في العالم الإسلامي ثلاث خلفاء في وقت واحد، في مناطق مجاورة، على أسس مذهبية مختلفة، فالخلافة العباسية تدين بالمذهب الحنفي والخلافة الأموية بالأندلس تعتنق المذهب المالكي، والخلافة الفاطمية في المغرب على المذهب الشيعي، وكان من شأنه أن يحدث تصادما بينهم، وقد يبدو هذا الصراع في ظاهره صراعا بين الأمويين والفاطميين وبين الفاطميين والعباسين، ولكنه في الحقيقة صراع بين السنة والشيعة وبين الفرق الأخرى كالإباضية والصفرية، لأن المذاهب الدينية آنذاك، كانت تقريبا كالأحزاب السياسية التي تقوم على أساسها الدول والحكومات في الوقت الحاضر، وهذا هو سبب الاهتمام بها والتعصب لها، بحيث كان في استطاعة كل حاكم باسم خلافته ومذهبه الروحي، أن يحقق المكاسب السياسية والمذهبية والاقتصادية

(1) أحمد مختار العيادي: دراسات في تاريخ المغرب والأندلس، ص 58. انظر مقدمة ابن خلدون، ص 288.

(2) رشيد رضا: الخلافة أو الإمامة العظمى، مطبعة المنار 1923، ص 195.

التي ينشدها[1]. وواضح مما تقدم، فإن نظرية الخلافة السنية، قد تكيفت تكيفا جديدا تبعا للواقع وللضرورة السياسية، والنظريات دائما تتبع الواقع وتتأثر به حسب أحمد العبادي[2].

الدولة الرستمية في المغرب الأوسط:

في السنوات الأخيرة من عهد الخليفة الراشدي الإمام علي بن أبي طالب (35-40هـ/ 556-660م) بدأت تظهر نواة لفرق إسلامية جديدة، بعد معركة صفين سنة (38هـ/ 658م) احتجاجا على مبدأ التحكيم بين علي بن أبي طالب ومعاوية بن أبي سفيان، ثم تطورت أفكار هذه الفرق، ونظرياتها وتحليلاتها للأمور الدينية والدنيوية إلى أن شملت الثورة والعقيدة والإمامة. وظهر الشيعة المؤيدون لعلي بن أبي طالب والخوارج الخارجين عليه، وتعمقوا في نظرية الحكم والإمامة، التي تنص على ضرورة اختيار الإمام عن طريق الشورى والجماعة، لأن نظام الخلافة السني أصبح نظاما وراثيا، بينما يحصر الشيعة الإمام في سلالة علي ابن أبي طالب.وكان سكان المغرب الأوسط الإسلامي في هذه المرحلة شديدي التأثر بما يحدث في بلاد المشرق من أفكار وأحزاب ومذاهب وفرق وجدت طريقا لها الى هذه الربوع، هروبا من بطش الخلفاء وجيوشهم.

وتمكن الإباضيون أن يجدوا لهم حضورا في بلاد المغرب الأوسط، لأنهم وجدوه أرضا خصبة لأفكارهم، بسبب تجاوزات سياسية لبعض الولاة وانحرافهم، فقاموا بالاحتجاج على هذه السياسة، بتأطير من الإباضيين حيث وجد المغاربة ضالتهم المنشودة، في الشعارات الجديدة للإباضية، التي شكلت أهم معارضة، سياسية ودينية واجهت الخلافة الأموية في المشرق والمغرب،

---

(1) أحمد مختار العبادي: المرجع السابق، ص 58-59.

(2) نفسه، ص 60.

فقد أساء الولاة إلى الخلافة الإسلامية، كأساس لنظام الحكم، والدور الذي تقوم به لتوحيد الأقطار والولايات الإسلامية الناشئة، مما عجل بانفصال المغرب الأوسط عن هيكل الخلافة ونظامها، وسهل تجزئة المغرب الإسلامي إلى إمارات ودول قامت على أساس مذهبي وسياسي جديد[1].

تمكن الإباضيون من إقامة دولة لهم في المغرب الأوسط، وجعلوا لها مقرا وعاصمة لحكمهم هي مدينة تيهرت سنة (160هـ/ 776م) ومنذ هذا التاريخ صار المغرب الأوسط (الجزائر) مستقلا عن الخلافة العباسية، في بغداد بزعامة عبد الرحمان بن رستم، وبمساعدة القبائل المنضوية تحت راية المذهب الإباضي.

وأصبحت مدينة تيهرت، بحكم موقعها الجغرافي الهام ومكانتها الإستراتيجية بين منطقتين متكاملتين اقتصاديا وهي السهوب والتل، وتشرف على الطرق التجارية المؤدية إلى ساحل البحر ومن الغرب إلى الشرق وصارت ملتقى للتيارات الفكرية، لأن مدينة تيهرت فتحت أبوابها أمام العلماء والطلاب والتجار المغاربة والمشارقة والأندلسيين واليهود والنصارى، ووفرت الدولة الرستمية سبل الراحة والأمن للقادمين إليها[2]، حتى أطلق عليها اسم "عراق المغرب" تشبيها لها بعراق المشرق، المزدحم بمختلف الأجناس والملل والنحل فوصفها المقدسي بقوله: **"فانتعش فيها الغريب واستطابها اللبيب"**[3].

امتد نفوذها مع مرور الأيام والسنوات، على حساب النفوذ العباسي في المغرب الأدنى (إفريقية)، وأسست لها عواصم إقليمية على طول مساحتها، تراقب من خلالها دولتها المترامية الأطراف وتحمي حدودها من تحرشات

---

(1) بشير بزير: المرجع السابق، ص 43.

(2) انظر: بحاز إبراهيم الدولة الرستمية، ص 84 وما بعدها، ابن الصغير: كتاب أخبار الأئمة، ص 15-26.

(3) احسن التقاسم، ص 288.

الدولة الأغلبية الممثلة للخلافة العباسية في المنطقة، من الجهة الشرقية والدولة الإدريسية العلوية من الجهة الغربية التي امتد حدودها إلى أطراف تلمسان غربا.

أما الحدود الشرقية، فقد وصلت إلى قبيلة مزاتة التي تقطن خليج سرت شرق مدينة طرابلس بليبيا، وصار أهل هذه القبيلة، لا يقبلون الأوامر إلا من إمام تيهرت[1] .وكذلك نجد قبيلة زويلة في صحراء فزان وأرض نفوسة بالتراب الليبي لا تؤدي الولاء إلا لإمام تيهرت[2]، وكذلك أهل قسطيلية وقفصة ونفطة والحامة وسماطة في جنوب المغرب الأدنى(افريقية) كلها كانت إباضية تخضع للإمام الرستمي بتيهرت[3]، ويؤكد المؤرخ ابن الصغير هذه الحدود بقوله: "فقد بلغت سمته (أي إمام تيهرت) إلى أن حاصر مدينة طرابلس شرقا، وملأ المغرب بأسره إلى مدينة يقال لها تلمسان، وبلغ نفوذها في الجنوب إلى صحراء فزان وورجلان، غير أن المذهب الروحي للدولة الرستمية تخطى هذه الحدود السياسية[4].

فقد كانت الدولة الرستمية تسيطر على دواخل المغرب الأوسط، وبعض سواحله وكذلك جنوب المغرب الأدنى وشرقه، تنعم بالسيادة والاحترام بفضل السياسة التي سلكتها مع جيرانها وهي سياسة حسن الجوار، وخاصة مع بني مدرار في سجلماسة والدولة الأموية في الأندلس[5].

وتشير بعض المصادر إلى وجود الأقلية المسيحية واليهودية، في مدينة تيهرت في عهد الدولة الرستمية الإباضية، التي تميز حكامها، بروح التسامح والتعايش مع الأقلية الدينية والمذهبية الأخرى.وكان وجهاء الأقلية المسيحية

---

(1) جودت عبد الكريم يوسف: العلاقات الخارجية للدولة الرستمية. ص 59.

(2) اليعقوبي: البلدان، ص 97-98.

(3) نفسه. ص 107-108.

(4) البكري: المغرب، ص 64.

(5) عبد العزيز فيلالي: العلاقات السياسية بين الدولة الأموية ودول المغرب. ص 114

يعدون من خواص الإمام الرستمي الإباضي، ولاسيما منهم أفلح بن عبد الوهاب (208-258هـ) وكانوا يشاركون الإمام أبي اليقظان (268-281هـ/ 881-894م) وأبي حاتم في حروبهما ضد المناوئين والخارجين عليه.وعندما سقطت تيهرت في يد أبي عبد الله الشيعي سنة (296هـ-908م) شد المسيحيون واليهود الرحال مع الإمام الإباضي المهزوم إلى واحة ورجلان مع مطلع القرن 4هـ/ 10م[1].

كما كانت للدولة الرستمية عملتها النقدية، ضربت بتيهرت منذ عهد مؤسسها الأول عبد الرحمان بن رستم، وهي رمز السيادة والاستقلال، وبذلك نجد أن الدولة الرستمية كانت تتميز بأركان الدولة ورموزها ومقوماتها لمدة زمنية زادت عن قرن ونصف قرن من الزمن، ولم تكن لها صلة بالخلافة العباسية.

أما عن راية الدولة الرستمية وعلمها في العصر الوسيط، وألوانها وأنواعها فأمر صعب، لأن المصادر التاريخية شحيحة في هذا الباب، مما يجعلنا نذهب إلى التخمين والاستنتاج في كثير من الأحيان.لإظهار رمزها وشعارها الذي تتميز به.

فقد ذكرت النصوص التاريخية، أن الرسول (ص) اتخذ أعلاما مختلفة الألوان، منها الأبيض ومنها الأسود ومنها الأخضر والأصفر، ومن هذا المنطلق نجد أن الدول الإسلامية المتعاقبة، استعملت هذه الألوان، مقتدية بالرسول (ص).

ويشير ابن خلدون، بأن "ملوك البربر بالمغرب من صنهاجة وغيرها اختصوا باللون الأبيض الموشح بالذهب، المتخذ من الحرير الخالص، وأذنوا

---

(1) ابن الصغير: المصدر السابق، ص 48.

- Virginie privoste: les dernières communautés autochtones d'afrique du nord R.H de religions T.244 octobre décembre 2007 E.P.467.

للعمال باتخاذ راية صغيرة من الكتان الأبيض[1].ويذكر المؤرخ الإباضي علي دبوز، بأنه شاهد راية بيضاء اللون في غرداية كتب عليها آيات قرآنية، لعلها من بقايا العلم الرستمي[2].

الدولة الحمادية في المغرب الأوسط:

إن الحوار الذي دار بين شيوخ كتامة وأبي عبد الله الشيعي سنة 288هـ/ 900 يدل على أن أهل كتامة، كانوا يتمتعون في تسيير شؤونهم بالاستقلالية، وأن صلتهم بالسلطة المركزية الأغلبية في القيروان، كانت ضعيفة في عمومها، وخاصة مع سكان الأرياف والبوادي والجبال، بحيث لا يربطهم بها إلا ذلك الخيط المتمثل في الدعاء للخليفة على المنابر، أو فيما يدفعه الميسورين من ضرائب وزكاة[3].

استطاع الداعي الشيعي أبو عبد الله، أن يقيم خلافة العبيديين أو الفاطميين في المغرب سنة 296هـ، بفضل شيوخ كتامة وأبنائها، وان يقضي على الأغالبة والرستميين والمدراريين والأدارسة.

والخلافة الفاطمية خلافة دينية ووراثية تقوم على أساس المذهب الشيعي الإسماعيلي، وتستند على مبدأين أساسيين هامين: الأساس الأول وهو العلم اللَّدُنيّ أو الإلهي المورث عن النبي (ص) وعن طريق علي بن أبي طالب ثم أولاده من بعده[4]، فالإمام عندهم ليس شخصا عاديا، فهو المشرع وهو المنفذ ولا يسأل عما يفعل لأنه معصوم من الخطأ[5].

(1) العبر، ص 1258.

(2) تاريخ المغرب الكبير، ج2، ص 512.

(3) القاضي النعمان: افتتاح الدعوة، ص 75 – عبد العزيز سالم: المرجع السابق، ج4، ص 596.

(4) أحمد مختار العبادي: المرجع السابق، ص 52-53.

(5) نفسه، ص 55.

أما الأساس الثاني في الخلافة الفاطمية هو مسألة الوصية أو النص على ولاية العهد، وهي ركن الدين والإسلام، وقد حاول الفاطميون فرض مذهبهم في بلاد المغرب، غير أن أهل المغرب الأوسط لم يقبلوا بهذه السيطرة المذهبية، التي لا تتلاءم مع مزاجهم ومذهبهم وطبيعتهم، فخرجوا عن طاعة الفواطم، وأخذوا يتطلعون إلى خلافة سنية جديدة، وهي خلافة الأمويين في الأندلس[1] بقيادة زناتة، وظلت كتامة وصنهاجة تدور في فلك العبيديين الفواطم السياسي، ولا نقول المذهبي العقائدي. أما زناتة فكانت تميل إلى الخلافة الأموية السنية في الأندلس وتخطب لخلافائها على المنابر.

ولما انتقلت الدولة الفاطمية إلى مصر، وأخذت معها جنود وكوادر كتامة لتهيئ الجو والأمن المناسب لخلفائها، وتركت محلها صنهاجة، بقيادة بلكين ابن زيري سنة 362هـ/ 972م بعاصمة الدولة وهي مدينة المهدية، وبعد مرور نحو أربعين سنة، نجد حماد بن بلكين استقل بالمغرب الأوسط سنة 405هـ، وأعلن عن خلعه للرباط السياسي والمذهبي مع الدولة الفاطمية في مصر، وقام بتوسيع رقعته الجغرافية حتى استولى على المغرب الأوسط كله، بل مدّ نفوذه إلى تونس بالمغرب الأدنى في بعض الأحيان، ووصلت حدوده الشرقية إلى الجريد جنوب تونس، ومن الناحية الغربية إلى أطراف تلمسان، ومن الناحية الجنوبية إلى ورجلان[2] ومن الشمال البحر الأبيض المتوسط.

اختار حماد بن بلكين، مكانا جديدا بالمعاضيد، واختط فيه مدينة القلعة بجبل كيانة سنة 398هـ/ 1007م المتميز بحصانته ومنعته وسهولة الدفاع عنه، فعظم عناء حماد بهذه المهمة، وكبر نفوذه بانتصاراته العسكرية غربا، فنقل إلى عاصمته الكثير من أهل المسيلة وسكان حمزة (البويرة) وجراوة، وظلت القلعة

---

(1) أحمد مختار العيادي: المرجع السابق.

(2) ابن خلدون: العبر، ج6، ص 43-206-349.

تستقبل الوافدين عليها من المغرب الأدنى والأقصى والأندلس وصقلية.ثم ازداد عدد الهجرات إليها من مدن زيرية ومن تلمسان أثناء الغزو الهلالي لمدينة القيروان، فأصبحت القلعة مكانا مفضلا للعلماء الذين رفضوا المذهب الشيعي فصارت ملجأ لهم وأصبحت سوقا كبيرا للقوافل التجارية ومركزا صناعيا شهيرا للأقمشة ومعامل الخزف والزجاج، وكانت مرتبطة تجاريا ببلاد السودان وتحولت القلعة إلى قطب اقتصادي هام وحاضرة تجارية حيوية عالمية، فعلاقتها التجارية والاقتصادية المتوسطية نافقه، مع الحواضر والأقطار العديدة، فقد وصفها البكري بأنها "مقصد التجار وبها تحل الرحال من العراق والحجاز ومصر والشام وسائر بلاد المغرب"[1] ومع مدن البحر الأبيض المتوسط الغربية، تنقل إليها الذهب والعبيد وبضائع سودانية أخرى[2] وبالتالي ازدهرت الحياة فيها اقتصاديا وانتعشت فكريا حتى صارت تضاهي عواصم المغرب الإسلامي، ثم نقل الحماديون عاصمتهم إلى الناصرية (بجاية) على البحر الأبيض المتوسط سنة (460هـ/ 1067م)، وأصبح لها أسطولا بحريا يحمي الشواطئ، وأسطولا تجاريا يعبر البحر إلى المدن الأوروبية الواقعة على البحر الأبيض المتوسط.

انتقلت جاليات مسيحية من أماكن مختلفة إلى القلعة، لما تتميز به الإمارة من تسامح وحرية المعتقد، جاءوا إليها من الأوراس ومن إفريقية ومن القبائل الكبرى ومن كتامة وزواوة ومن الحضنة والمسيلة. ويؤكد Poul diacre بأن مسيحي القلعة من المهاجرين، شيدت لهم كنيسة بالقرب من قصر الأمير الحمـادي[3].

---

(1) المغرب، ص 49.

(2) صالح تعيزيق: المرجع السابق، ص 198-189.

(3) Allaoua amara: pouvoir économique et société dans le Maghreb hammadite 395-547

أما الجالية المسيحية التي سكنت مدينة بجاية، فلعلها كانت من الأسرى والتجار ورجال الدين والعبيد[1] .استوطنت بجاية للرعاية الخاصة التي كان يخصها الأمير ناصر بن علناس الحمادي (456-1062/481-1088) للجالية المسيحية، وقد تجلّى ذلك من خلال المراسلة التي كانت بين العاهل الحمادي وبابا روما قريقوار السابع Grégoire VII[2].

وكانت للدولة الحمادية عملتها في عهد المنصور بن علناس 481-498هـ/ 1088-1105م) وفي عهد آخر ملوكها المدعى يحيى بن العزيز (518-547/1124-1152) سنة 1198/543 بالناصرية[3].

أما رايتها فقد كان لونها أبيض موشح بالذهب من الحرير الخالص وعمالها كانوا يتميزون براية بيضاء صغيرة الحجم من الكتان كما ذكر ابن خلدون[4]. بل حتى الخلافة الفاطمية، كانت رايتها تتميز هي الأخرى باللون الأبيض في بلاد المغرب، وعند انتقالها إلى بلاد المشرق، استبدلتها باللون الأسود.

وبالرغم من استقلال الحماديين عن الخلافة الفاطمية والخلافة العباسية إلا أنهم لم يجرؤ أحد منهم على تلقيب نفسه خليفة، وظلوا يدعون للخليفة الفاطمي ثم العباسي على المنابر في أغلب الأحيان.

العهد الزياني في المغرب الأوسط:

لما وصل الحكم للموحدين(524-668هـ/ 1266-1330م) الذين نجحوا في إدماج المغارب الثلاثة، من طبرقة إلى طنجة غربا والسوس الأقصى جنوبا، بقيادة عبد المومن بن علي الندرومي من المغرب الأوسط (524-1129) ينحدر

---

(1)- ابن الصغير: أخبار الأئمة الرستميين، ص 63 – كتاب الاستبصار، ص 156-157، رحلة التجاني، ص 162.

(2) Allaoua amara: opcit.t2.p 635.

(3) انظر: ابن خلدون: المقدمة، ص 262 وكتاب العبر، ج4، ص 363.

(4) العبر، ج6، ص 258 صالح بعزيق: بجاية في العهد الحفصي، ص 257-258.

من قبيلة "كوميّة" إحدى بطون بني فاتن يجتمعون مع قبيلة زناتة في سلسلة البربر البتر. وولد عبد المومن في قرية تاجرا بندرومة في المنطقة التي كانت تعيش فيها قبيلة كومية ما بين المتوسط وتلمسان أي غرب المغرب الأوسط[1]، وقد شاع الأمن وحرية الثقافة في عهد عبد المومن بن علي (524-558/1130-1163) وابنه يعقوب (580-595/1184-1199) فأسسوا المدارس وعمروها بالطلبة والأساتذة، وشجعوا تدوين الكتب والترجمة، وعقدوا المناظرات، وجمعوا المجامع العلمية المتنوعة وأسسوا خزائن الكتب، وسبقوا للتعليم الإجباري المجاني، ووضعوا مناهج للتعليم ونشروه حتى باللسان[2] البربري وكرسوا جهودهم للم شمل المغاربة في أول تجربة لتوحيد بلاد المغرب الإسلامي جغرافيا وسياسيا ومذهبيا، ولاسيما عندما دخلت القبائل الهلالية رياح وزغبة وأثبج إلى المغرب الأوسط، في القرن 5هـ/ 11م، وانتشرت من بونة إلى ما وراء تلمسان غربا والهضاب العليا والصحراء جنوبا، تلاحمت هذه العناصر مع القبائل المغربية المحلية الكبرى، فشكلوا بذلك مجموعة بشرية مترابطة، دعمت مشروع عبد المومن بن علي في المغرب الأوسط[3].

غير أن هذه التجربة، لم تعمر طويلا، وزالت بزوال الدولة الموحدية، فقامت على أنقاضها ثلاث دول هي الدولة الحفصية في المغرب الأدنى (625-982/1227-1574) وهم أحفاد الموحدين والدولة الزيانية في المغرب الأوسط (633-962/1335-1552) وهم زناتيون من بني عبد الواد والدولة المرينية بالمغرب الأقصى (668-869/1295-1465) وهم زناتيون أيضا من المغرب الأوسط وأبناء عمومة بني زيان اكتسحوا سهول نهر ملوية من الجنوب الشرقي وبعض المناطق الشمالية ودخلوا المغرب الأقصى وأسسوا فيها دولتهم

---

(1) عبد الله علية علام: الدولة الموحدية بالمغرب، ص 82.

(2) محمد المنوني: حضارة الموحدين، ص 14-15.

(3) ابن عذارى: البيان (قسم الموحدين)، ص 68 – ابن خلدون: العبر، ج6، ص 364.

فكانت حدودهم جميعا غير مستقرة بسبب طموح التوسع والرغبة في وراثة الموحدين من قبل بني حفص، تحقيقا للرغبة السياسية والاقتصادية[1] وبني مرين في المغرب الأقصى الذين يرغبون في العودة للمغرب الأوسط وضمه إليهم.

وركزت الدولة الزيانية بقيادة يغمراسن (633-681/1236-1283) على التوسع من الجهة الشرقية، وجعلها وصية لأبنائه من بعده، حتى يعيد حدود المغرب الأوسط الشرقية إلى سابق عهدها، وصارت هذه الإستراتيجية تقليدا سار على منواله كل من أبي حمو موسى الأول (707-718/1307-1355) وابنه أبي تاشفين الأول (718/737-1318-1337)[2]، بحيث وصل مدى حدود الدولة الزيانية من هذه الجهة في عهده إلى أطراف تونس، ثم تقلصت في عهد خلفه إلى جبل الزان وأكفادو أو وادي الصومام من الشرق[3] ويعني هذا أن الحواضر الهامة في شرق المغرب الأوسط وهي بجاية وقسنطينة وبونة، سيطر عليها بنو حفص وهي الحالة التي استعصت على بني زيان لإخضاعها بالحرب والحصار بسبب التحالف العسكري الحفصي المريني ضدها، فلم تتمكن من السيطرة على جزئها الشرقي[4].

بينما ظلت حدودها الغربية، كما رسمها يغمراسن وابنه عثمان حتى وادي ملوية (ملوشة) وهي الحدود الغربية للمغرب الأوسط الطبيعية والثابتة، ومن ملوية جنوبا إلى وادي "صا" وبلدة فيجيج المقابلة لبني ونيف ببشار وبلاد تاوريرت غرب مدينة وجدة بنحو 130 كلم[5].

أما عن حدودها الجنوبية، فقد حددها العالم أبو العباس الونشريسي بصحراء توات[6]. لاشك أن بعض الثورات التي قادتها بعض القبائل في كل

---

(1) الطاهر بونابي: المرجع السابق، ج1، ص 102.

(2) الطاهر بونابي: المرجع السابق، ج1، ص 102 – التنسي: نظم الدر والعقيان، ص 143.

(3) يحيى بن خلدون: بغية الرواد، ج1، ص 208.

(4) عبد العزيز فيلالي: تلمسان، ج1، ص 35-36 – يحيى بن خلدون: بغية الرواد، ج1، ص 217.

(5) نفسه، ص 35-36

من بجاية وقسنطينة وعنابة وبسكرة، بشرق المغرب الأوسط على الحفصيين[1]، تعد من أوجه التعبير عن رفض السلطة الحفصية والرغبة في الانفصال عنها وهي ظاهرة تعطينا فكرة عن موقف العلماء والفقهاء والقضاة آنذاك، وغيرهم من نخبة المجتمع[2].

فقد خلف لنا هؤلاء العلماء نصوصا هامة في كتب التراجم والطبقات، تعبر بوضوح عن إقليمهم الجغرافي ورفضهم التبعية لسلطة المغرب الأدنى، بأسلوب يحافظ على البنية السياسية والثقافية والفكرية في حدود المغرب الأوسط، وجعلوه يمتد من بلاد العناب (بونة) شرقا إلى ما وراء تلمسان غربا أي إلى نهر ملوية، وصحراء توات ووجلان جنوبا[3] والبحر الأبيض المتوسط شمالا.

ومن بين هؤلاء العلماء القاضي البجائي أبو العباس أحمد الغبريني (704-1306)، الذي جعل امتداد المجال الجغرافي للمغرب الأوسط بأبعاد حدود الدولة الحمادية، في ترجمته للمتصوف الجزائري البجائي أبو محمد عبد الحق ابن الربيع (ت 1227/675) حيث يقول: "لم يكن في وقته بمغربنا الأوسط مثله"[4] لتمييزه عن المغربين الأدنى والأقصى.وهذا يؤكد على أن مصطلح المغرب الأوسط خلال القرنين 6 و12/7-13 كان يعني به العمق الممتد بين بونة شرقا ووادي ملوية غربا والبحر شمالا والصحراء جنوبا.

كما ترجم لعلماء وفقهاء ومتصوفة من عنابة وبجاية وبواديهما من بني يتورع وبني وغليس، وبني منجلات ومشدالة وقسنطينة وسطيف وأريس وبسكرة وقلعة بني حماد والمسيلة وجزائر بني مزغنة ودلس ومليانة ووهران

---

(1) برونشفيك: تاريخ إفريقية في العهد الحفصي، ج1، ص 287-286.

(2) الطاهر بونابي: المرجع السابق، ج1، ص 110.

وتلمسان[1] .فجعل علماء هذه المدن والمناطق جميعا، ينتمون جغرافيا إلى المغرب الأوسط وحرص على ربط هؤلاء العلماء والمتصوفة ببيئاتهم القبلية سواء منها البربرية أو العربية، للتأكد جغرافيا من البيئة التي نشؤوا ومارسوا عملهم ونشاطهم فيها، وحملوا اسمه الذي صار ملحقا بمسلسل نسبهم وإثبات هويتهم الجغرافية بالمغرب الأوسط (الجزائر).

وعندما يترجم الغبريني لعلماء وفقهاء، ينتمون جغرافيا إلى تونس يستعمل كلمة من "افريقية" (المغرب الأدنى)، وكذلك لدى ترجمته لعلماء من المغرب الأقصى من مراكش وفاس واغمات هسكورة يتبعها بلفظه من "المغرب الأقصى"[2].

وقد اتبع يحيى بن خلدون (780هـ/ 1378) في كتابه بغية الرواد في ذكر ملوك بن عبد الواد، أسلوب العبريني ومنهجه، فأدرج إلى جانب علماء مدينة تلمسان وفقهائها وصوفيتها من المغرب الأوسط، وذكر نظرائهم من القل وقلعة بني حماد ومقرة ومشدالة وزواوة وتنس ووهران[3].

إن هذه القرائن تدل على أن التقسيمات السياسية والحدود الجغرافية لدول المغرب في هذه الفترة، تعد حدودا غير حقيقية خاصة في المغرب الأوسط، وضحه التاريخ البشري والثقافي والفكري والديني في هذه الربوع، فالمجال الجغرافي الحقيقي للمغرب الأوسط يمتد من وراء بونة شرقا إلى ما وراء تلمسان غربا ومن البحر شمالا إلى الصحراء جنوبا، فلا شك أنه مجال مميز عن جارتيه الشرقية والغربية المغرب الأدنى والمغرب الأقصى، من حيث الطبيعة والتيارات الفكرية المختلفة، ترتبت عنها نتائج وهياكل أثرت على الحياة الفكرية والعلمية والدينية والمذهبية والاقتصادية والاجتماعية[4].

---

(1) عنوان الدراية، ص 46-119-280.

(2) الطاهر بونابي: المرجع السابق، ج1، ص 110.

(3) بغية الرواد: ج1، ص 101-105-108.

أما عن علاقتها بالمحيط الخارجي، فقد كانت مثمرة دبلوماسيا وتجاريا وعسكريا فقد كانت لها علاقة طيبة مع بني الأحمر في غرناطة استفادت هذه الأخيرة من تلمسان بإعانات عسكرية وغذائية، كما ارتبطت مع الدولة القطالونية والأراغونية بعلاقات عسكرية وتجارية لوجود فرق عسكرية مسيحية تعمل في الجيش الزياني، يزيد عددها على 2000 جندي ونحو 500 فارسا من الروم، فضلا عن الجاليات الأخرى من الأسرى والتجار ورجال الدين القساوسة. كانت تحكم إقامتهم في المغرب الأوسط اتفاقية مبرمة بين العاهل التلمساني والدول المسيحية وخاصة فرنسا وإيطاليا وقطالونيا وأراغون[1].

وكان هؤلاء النصارى يتمتعون بحرية أداء شعائرهم الدينية في كنائسهم يخضعون لسلطة ضباطهم وقساوستهم وقناصلهم وقضاتهم[2].

وكانت علاقاتها بجارتيها الشرقية والغربية، يكسوها العداء والاضطراب في كثير من الأحيان فالحروب قائمة بينهم وبالرغم من ذلك فقد ظلت الدولة الزيانية قائمة أكثر من ثلاثة قرون من الزمن، لم يجرأ أمراء بني زيان خلال هذه الفترة الطويلة على تلقيب أنفسهم بالخلفاء، لأن الخلافة عندهم لا تتجزأ غير أن بعضهم تلقبوا بأمير المؤمنين وناصر الدين وغيرها من الألقاب الخلافية، وكانت لها سكة وعملة زيانية خاصة بها بالدينار الذهبي والدرهم الفضي، المضروب في مدينة تلمسان[3]، وبالتالي فإنها كانت تشتمل على أركان الدولة ومقوماتها في إطار المغرب الأوسط الموروث منذ العهد النوميدي وليس كما

---

(1) برنسفيك: المرجع السابق، ج1، ص 475.

(2) عبد العزيز فيلالي: دراسات في تاريخ الجزائر والغرب الإسلامي، ص 65.

(3) لطيفة بشاري: العلاقات التجارية للمغرب الأوسط، ص 187.

يدعي البعض بأن الدولة الجزائرية تشكلت بحدودها الحالية مع الأتراك والاحتلال الفرنسي.

وأما عن الراية الزيانية وعلمها فقد كان الأمراء يحملون الراية البيضاء، فكانوا في سفرهم تتقدم بين أيدي الأمير "راية عظيمة بيضاء" طويلة ويتلوها مصحف عثمان مجعولا في قبة حرير مربعة على رأس ركن من أركان القبة راية عظيمة تخفق بأقل ريح"[1] ويتضح مما سبق أن راية بني زيان وأعلامها كانت هي الأخرى بيضاء.

---

(1) التنسي: نظم الدر والعقيان، ص 134-135.

وصفوة القول

فقد كان لسكان المغرب الأوسط وقبائله حضور كبير وواسع ومكثف وفعّال ليس في المغرب الأوسط فقط بل حتى على ساحة المغرب الإسلامي الكبير في المجالات السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية، وكان لهم دور فعّال في إنشاء بعض الدول خارج الإطار الجغرافي للمغرب الأوسط، مثل قبيلة أوربة البرنسية التي فرت من إقليم تلمسان إلى نواحي وليلي بالمغرب الأقصى القريبة من حدود المغرب الأوسط، واستقرت هناك خوفا من انتقام أبناء عقبة بن نافع الفهري الذي قتل من قبل زعيم هذه القبيلة وهو كسيلة، فقد استقبل زعيمها عبد الحميد الأوربي المعتزلي إدريس بن عبد الله العلوي الزيدي، الفار من بطش العباسيين واحتضنه، وعمل على إنشاء إمارة علوية زيدية في وليلي ثم فاس مع مجموعة من القبائل الأخرى المتضامنة وهي الدولة الإدريسية العلوية سنة 172هـ/ 788م.

وكذلك نجد أن الكتاميين في شرق المغرب الأوسط، هم الذين استقبلوا الداعي أبو عبد الله الشيعي، واحتضنوه ودعموه بأموالهم وأولادهم في تأسيس الدولة الفاطمية على أرض المغرب الإسلامي، سنة 296هـ/ 908م وأن الزيريين الذين خلفوا الفواطم في المغرب الأدنى سنة 362هـ/ 972م، هم أيضا من صنهاجة المغرب الأوسط.

أما المؤسس الحقيقي للدولة الموحدية الذي مد رقعتها على المغارب الثلاث فهو ابن قبيلة "كومية" الندرومية الجزائرية، وأن أبناءه وأحفاده الذين خلفوه في الحكم أطلقوا على أنفسهم لقب أمير المؤمنين والخلافة فأصلهم من المغرب الأوسط (الجزائر).

جوانب من العلاقة التجارية بين الرستميين والأمويين في الأندلس[1]

لم يحظ التاريخ الاقتصادي للغرب الإسلامي خلال العصور الوسطى بالاهتمام البالغ من قبل الدارسين والباحثين المعاصرين، بالرغم من الصلة الوثيقة بين الحياة السياسية والاجتماعية والحربية وبين الحياة الاقتصادية والتجارية، بل يعتبر الاقتصاد الركيزة الرئيسية لمختلف أوجه نشاط الحياة، ولعل سبب إحجام المؤرخين والباحثين، عن الدراسات الاقتصادية يرجع في المقام الأول إلى صعوبة هذا النوع من الكتابة، والى قصور المصادر الأصلية عن هذا الموضوع وندرتها وصمتها في كثير من الأحيان، عن الكتابة صراحة، في الموضوعات الاقتصادية بصفة عامة والتجارية على وجه الخصوص.

وسأحاول بقدر الإمكان في هذا المقال أن أعرف بالعلاقة التجارية والاقتصادية التي سادت بين المغرب الأوسط (الجزائر)، والعدوة الأندلسية، خلال القرن الثالث الهجري التاسع الميلادي فالغرب الإسلامي أو المغرب الإسلامي، كما اتفق الباحثون على تسميته كان ممزقا ومقسما بين دويلات عديدة، كل دويلة أو إمارة لها حدودها السياسية والجغرافية، إلا أن هذه الحدود غير مستقرة قد تتسع وتزيد وتتقلص حسب الظروف السياسية السائدة في المنطقة، تعتنق هذه الدويلات مذاهب مختلفة ومتباينة مثل المذهب الخارجي (الإباضي والصفري) والمذهب السني والمذهب العلوي الشيعي، فالأمويون في الأندلس سنيون متعصبون لأهل السنة، والأدارسة في فاس علويون زيديون. والرستميون في تاهرت إباضيون متعصبون لمذهبهم، وكذلك المدراريون في سجلماسة صفريون وبنو صالح في نكور سنيون، احتفظوا بهذا المذهب رغم الحصار الطويل الذي ضربه حولهم الخوارج،

---

(1) نشر هذا المقال في مجلة سيرتا السنة الثانية العدد 3 رجب 1400هـ / ماي 1980.

والبرغواطيون في تامستا مارقون، انتحلوا ديانة جديدة أما الأغالبة فسنيون يتبعون سياسيا الدولة العباسية في المشرق ويكنون لها الولاء السياسي والمذهبي (أحناف).

وبما أن هذا المقال لا يتسع لذكر مجمل علاقات هذه الدويلات المغربية بالأندلس، فإننا سنخصصه للعلاقات التجارية التي سادت الموانئ الجزائرية (المغرب الأوسط) والموانئ الأندلسية فحسب، أو بصورة أدق العلاقة الرستمية الأموية، ملقيا الضوء على أهم السلع والمواد التجارية السودانية والمغربية والأندلسية المتبادلة بين البلدين، ومن أهم الموانئ والمحطات التجارية التي انتشرت في الحوض الغربي للبحر الأبيض المتوسط.

وعلى الرغم مما كانت تتمتع به العلاقة الرستمية والأموية من جوسياسي هادئ، وطابع ودي، وصداقة متينة، فإن الاختلاف المذهبي ظل سائدا، غير أن هذا الاختلاف المذهبي لم يؤثر على طبيعة العلاقة السياسية الطيبة، لكنها على أية حال ليست علاقة مذهبية بل انفتاح سياسي اقتصادي بعيد كل البعد عن التيارات المذهبية الدينية.

إن هذه العلاقة السياسية التي لم تلبث أن تطورت، وتدعمت وأخذت طابعا قويا بين البلدين، وأحيانا مظهرا رسميا في كثير من المناسبات، إذ لم تقتصر سياسة التقارب هذه بين تاهرت وقرطبة على النواحي السياسية فقط، بل اشتملت أيضا على النواحي العسكرية والاقتصادية، فقد استفادت حكومة قرطبة في الميدان العسكري من الخبرات العسكرية الرستمية ومن المقاتلين الجزائريين والمغاربة على وجه العموم، ولاسيما منهم فرسان زناتة، الذين كانوا مادة الجهاد في المغرب والأندلس والدعامة القوية في تأسيس الدولة الأموية، فبسواعدهم توطدت أركانها، وبهم علا شأنها ومجدها في كل مراحل نموها، لذا لم تبخل حكومة "تاهرت" على قرطبة، بأبنائها وفلذات أكبادها من المقاتلين الأشداء في كل حين ودونما انقطاع، لتدعيم جيوشها وترسيخ نفوذها في بلاد الأندلس.

أما الناحية الاقتصادية والتجارية بصفة خاصة، فقد كانت هي الأخرى وطيدة، بحيث تشير النصوص التاريخية إلى أن المحاصيل الزراعية لمنطقة تاهرت، كانت تأخذ طريقها إلى مخازن قرطبة وأهرائها، في كثير من المناسبات ولاسيما في سنوات المحل والمجاعة، التي عنت منعا بلاد الأندلس في تلك الفترة[1]. فقد كانت السفن التجارية سواء منها المغربية أو الأندلسية تتردد بين موانئ المغرب الأوسط مثل ميناء فروخ[2] وتنس ووهران، وموانئ الأندلس كالجزيرة الخضراء وبجانة وشاطبة وغيرها من الموانئ الجنوبية الشرقية الأندلسية، محملة بالمتاجر والبضائع وبالعلماء والمسافرين[3].

ولا يبالغ الأستاذ علي دبوز حينما يعتقد بأن قيام دولة بني رستم في المغرب الأوسط مكنت إمارة عبد الرحمان الداخل من الرسوخ في الأندلس، وأتاحت لها السبل إلى الازدهار، كما كانت الدولة الرستمية بمثابة الجسر الذي يصل بين الأمويين من جهة والمغرب الأوسط، ومنه إلى المشرق من جهة أخرى[4]، ولاسيما بعد أن أغلقت أمامهم الطرق إلى كل من إفريقية شرقا والمغرب الأقصى غربا، بقيام دولة الأغالبة، الموالية لبني العباس ودولة الأدارسة العلويين المعادية للأمويين، ولذلك توثقت الصلة والروابط السياسية والتجارية المتينة بين قرطبة وتاهرت حتى يتمكنا من دفع العدو المشترك ومحاربته.

ولهذا الغرض وجدنا البحرية الأندلسية، قد قامت بإنشاء مدن وثغور على طول ساحل المغرب الأوسط، وقد استقرت في هذه المدن والثغور البحرية، جاليات تجارية أندلسية كبيرة بعد موافقة القبائل المغربية لها، ومن بين هذه

---

(1) L. provençal: histoire de l'Espagne musulmane , T1, P 245.

(2) مرسى فروخ هو الميناء الوحيد والرئيسي الذي ينفذ منه بنو رستم للبحر ويقع في منطقة وهران عاصمة الغرب الجزائري ما بين مدينتي مستغانم وأرزيو وتسمى حاليا مرسى الدجاج انظر:
L. provençal: Op.cit, T1, P 282, note n°2.

(3) عبد العزيز سالم: المغرب الكبير ج2، ص 569.

(4) علي دبوز: تاريخ المغرب الكبير، ج3، ص 350.

المدن مدينة تنس الجزائرية، التي أنشئت سنة 262هـ-902م وأصبحت محطة تجارية هامة تختلف إليها السفن باستمرار في فصل الشتاء ثم تعود في فصل الصيف، وكان يسكنها فريقان من أهل كورتي البيرة وتدمير الأندلسيتين[1]. ويذكر صاحب الاستبصار أن هذه المنطقة كانت كثيرة الزرع رخيصة الأسعار، ومنها كانت تحمل مختلف الأطعمة إلى الأندلس والى بلاد إفريقية والمغرب[2].

أما مدينة وهران فقد أسسها رجلان من رجال الدولة الأموية هما: محمد ابن أبي عون، ومحمد بن عبدون وجماعتهما سنة 290هـ، وقد استوطنوها بموافقة القبائل المغربية أيضا، لمدة سبع سنوات[3] أقاموا خلالها حسب ما يشير ابن خلدون، الدعوة لبني أمية في الأندلس[4]، حتى ظهرت الفواطم في إفريقية واستولت على تاهرت، وسائر بلاد المغرب، فضمت بعد ذلك مدينة وهران إلى أعمال الفواطم، وكذلك سيطرت هذه الجاليات الأندلسية على كثير من المدن الجزائرية الساحلية مثل بونة (عنابة) وبجاية ومرسى فروخ، وبالتالي استحوذت على التجارة بها وكان التجار يختارون "عريفا" من بينهم يمثلهم لدى القبائل المغربية ويسهرون على تنظيم أمور التجارة معهم[5].

وكان المغرب الأوسط في أواخر القرن الثالث الهجري - التاسع الميلادي- قد دخل مرحلة الاستقرار والهدوء النسبي، الذي كفل له الازدهار الزراعي والتطور الصناعي، حيث كست معظم أقاليمه أشجار الزيتون والكروم، وامتلأت سهوله الوسطى بالحبوب الوفيرة، ولم يكن الازدهار الصناعي في

---

(1) البكري: المغرب، ص 61، ابن حوقل: صورة الأرض، ص 78، الاستبصار، ص 133.

(2) نفس المصدر.

(3) نفس المصدر، ص 61.

(4) ابن خلدون: كتاب العبر، ص 294.

بلاد المغرب الأوسط، بأقل من الانتعاش الزراعي[1]، فضلا عن نشاط الحركة التجارية مع البلدان الجنوبية المجاورة كالسنغال والنيجر وغانا (بلاد السودان)، التي كانت يتوفر فيها الذهب الخام، والعاج وريش النعام والجلود والرقيق الأسود[2]. وقد ضرب الرستميون في التجارة بسهم وافر وأصابوا منها أرباحا طائلة، ولقد أهل الموقع الجغرافي لمدينة سلجماسة أن تكون همزة وصل بين المغرب في الشمال، وبلاد السودان في الجنوب، حتى أصبح يطلق عليها اسم "باب الذهب" وكان للمدراريين روابط التحالف والمصاهرة مع أصحاب "تاهرت"[3]، وقد أدى هذا الترابط إلى تعميق أواصر الأخوة والمحبة وحسن الجوار، والاتصال السياسي والتجاري بين البلدين، وكان الرستميون يهيمنون على الطرق التجارية البرية الثلاثة، التي كانت تربط بلاد المغرب الأوسط ببلاد السودان[4]، لقد فتح الرستميون أبواب مدنهم أمام التجار المغاربة والأندلسيين والمشارقة على حد سواء ووفروا لهم سبل الراحة والطمأنينة والأمن فكثر التجار بها، مما زاد في رخاء الدولة الرستمية وازدهارها، حتى بلغ نفوذها حينذاك من تلمسان غربا إلى طرابلس شرقا[5]. وقد أطلق عليها بحق "عراق المغرب"، تشبها لها بعراق المشرق، المزدحم بالأجناس، والملل والنحل. وقد وصفها الرحالة المقدسي بقوله: فانتعش فيها الغريب واستطابها اللبيب"[6]، وبفضل موقعها الجغرافي والإستراتيجي الهام، الذي يتوسط الجبال والسهول الزراعية الخصبة، توفرت لديها كثير من

---

(1) ارشبا لدلويس: القوى البحرية والتجارية في حوض البحر الأبيض المتوسط، ص 200.

(2) الاستبصار، ص 217، إبراهيم العدوى: بلاد الجزائر، ص 200، الحبيب الجنحاني: المغرب الإسلامي، ص 32.

(3) المصدر نفسه، ص 202.

(4) ارشبا لدلويس: المرجع السابق، ص 255.

(5) ابن الصغير: أخبار الأئمة الرستمية، ص 17.

(6) [illegible]

المواشي، ولم يفت ذلك الرحالة ابن حوقل، الذي قال في هذا الصدد: "بأنها (أي تاهرت) إحدى معادن الدواب والماشية والغنم والبغال والبرازين والفراهنة، ويكثر عندهم العسل والسمن وضروب الغلات"[1].

وبطبيعة الحال فإن الازدهار سوف ينعكس لا محالة على بلاد الأندلس، ما دامت هناك علاقة طيبة تجمع بينهما، ولاسيما وأن السفن الأندلسية لا تخلو منها الموانئ الجزائرية التي كان الذهب الخام يعبر عن طريقها إلى الأندلس، وكذلك مختلف البضائع والغلات المغربية والسودانية بالإضافة إلى الرقيق الأسود[2].

ويشير صاحب كتاب الاستبصار إلى أهمية هذه المدن الجزائرية الساحلية (المغرب الأوسط) وإلى ما تتوفر عليه من مزارع ومواشي كثيرة حيث يقول: "ومنها تجلب الأغنام إلى بلاد المغرب وبلاد الأندلس لرخصها وطيب لحمها"[3] كما كانت تشحن منها الميرة والأبقار والإبل إلى الموانئ الأندلسية[4].

وكذلك في الجهة المقابلة، كان التجار الأندلسيون يصدرون للمغرب الأوسط وبلاد السودان[5]، ما تنتجه بلاد الأندلس، من مواد زراعية وصناعية منها: القمح، والأرز وقصب السكر، الذي كان يزرع بكميات كبيرة في القسم الأدنى من حوض الوادي الكبير على مقربة من مدينة إشبيلية ومالقة.Malaga[6].

---

(1) ابن حوقل: صورة الأرض، ص 86، راجع أيضا:

Despois: géographie de l'afrique du nord-ouest, p 118.

(2) كتاب الاستبصار، ص 153، 213، 217.

(3) المصدر، ص 179.

(4) الحميرى: روض المعطار 38.

(5) العذرى: المصدر السابق، ص19 وما يليها، راجع أيضا:

- Lewicki T: traits d'histoire du commerce transaharien.marchands et missionnaires ibadites au soudan occidental et central au cours des VII et XII siecles p 291-599.

- Cardonne: histoire de l'afrique et de l'Espagne sous la domination des arabs, t 1, p 340.

(6) ارشبا لدلويس: المرجع السابق، ص 259 راجع أيضا:

- Cardonne: histoire de l'afrique et de l'Espagne sous la domination des arabes, t 1, p 340.

كما كانت تصدر أيضا إلى بلاد المغرب الكتان والقطن حيث يباع بأثمان مرتفعة لجودتها وشهرتها[1].

أما عن المجال الصناعي، فقد بلغ هو الآخر شأوا كبيرا، وخاصة في عهد عبد الرحمان الأوسط (206-238هـ/782-852م) الذي عم الهدوء والاستقرار في عهده ببلاد الأندلس، وهذا شرط أساسي لازدهار البلاد وتقدمها ورخائها ورفاهية شعبها، ومن بين هذه الصناعات التي اشتهر بها أهل الأندلس، صناعة الأقمشة الكتانية والقطنية، لكثرة زراعة القطن والصوف، لكثرة الأغنام، وتصنع فيها الدروع والخوذ وأنواع أخرى من الأسلحة المختلفة والأدوات الفضية والمصنوعات الجلدية[2].

وكانت أكثر الجهات تقدما في الصناعة والزراعة هي الركن الجنوبي الشرقي من العدوة الأندلسية، أي الجزء المواجه للبحر والمقابل لبلاد المغرب الأوسط وإفريقية، وأهمها مدينة المرية التي تعتبر من أنشط الموانئ الأندلسية في الحركة التجارية مع العالم الإسلامي بجناحيه الشرقي والغربي[3].

أما الرقيق الأبيض أو الخصيان المهيؤون لحراسة الحريم، فقد كان التجار اليهود هم الذين يقدمونهم، وكان هؤلاء التجار عملاء متخصصون في صيد الرقيق من جنوب فرنسا وغيرها من البلاد الأوروبية[4].

ويشير الرحالة المقدسي، بأن الصقالبة كانوا يحملون إلى مدينة تقع خلف مدينة بشانة (جنوب الأندلس) حيث تسكنها جالية كبيرة من اليهود متخصصين في عملية خصي الرقيق وبيعهم[5].

---

(1) ياقوت الحموى: معجم البلدان، ج1، ص 275 ، العذرى، المصدر السابق، ص 96.

(2) نفسه انظر أيضا: موريس لومبارد: الإسلام في مجده الأول، ص 211.

(3) ليفي بروفنسال "أدب الأندلس وتاريخها، ص 104. Cardonne: Op.cit, p 340.

(4) ليفي بروفنسال: حضارة العرب في إسبانيا، ص 77.

(5) المقدسي: المصدر السابق، ص 242.

ويشير أيضا المؤرخ الأمريكي ارشبا لدلويس، إلى أن تجار الأندلس لم يتعاملوا كثيرا مع الغرب اللاتيني، وأن التبادل التجاري بينهم كان محدودا وعلى نطاق ضيق، إذ تركوا هذه المهمة للتجار اليهود الذين يترددون على الأسواق الأندلسية حاملين معهم الرقيق الأبيض[1]، ولكن يبدو أن المؤرخ ارشبا لدلويس مبالغ في رأيه، إذ أن هذه العمليات التجارية مع الغرب، لم تقتصر على التجار اليهود وحدهم بل شارك فيها التجار المسلمون أيضا، ولاسيما في مناطق الثغور الشمالية المتصلة بفرنسا، حيث يرابط المسلمون بها، ويؤكد ذلك قول المقري "وقد تعلم الخصاء قوم من المسلمين هناك، فصاروا يخصون ويستحلون المثلة"[2].

وكيفما كان الحال فإن معظم الرحالة يشيرون إلى أن سكان المغرب الأوسط والأندلس، كانوا يتعاملون تجاريا وبحريا وعلى نطاق واسع جدا وبدون قيود، والظاهر أن التوترات السياسية والاختلافات المذهبية التي كانت سائدة آنذاك في الغرب الإسلامي وشرقه، لم تكن لها تأثيرات على حركة التجارة وانتقال السكان، بل من الثابت أن التجار المسلمين، كانوا يجوبون بقوافلهم، وبحرية تامة من المغرب إلى المشرق ومن المشرق إلى المغرب وبلاد الأندلس وأن السفن الأندلسية كثيرا ما كانت ترسوا ببضائعها في موانئ المغرب الأوسط، ولم تقف عند هذا الحد بل وصلت إلى ميناء الإسكندرية تفرغ بضائعها الأندلسية، وتشحن التوابل والمنتجات الشرقية النادرة مثل التحف والكتب الأدبية والعلمية إلى بلاد الأندلس[3].

---

(1) ارشبا لدلويس: المرجع السابق، ص 274، راجع أيضا كارل بروكلمان: تاريخ الشعوب الإسلامية، ص 153-154.

Dozy: histoire musulmane d'Espagne T2 p 154.

(2) المقري: نفح الطيب، ج1، ص 140، راجع أيضا: أحمد مختار العبادي: دولة المماليك في مصر والشام ص 36.

(3) الإدريسي: نزهة المشتاق، ص 197-198 ابن عذارى، البيان، ج2، ص 92 ليفي بروفنسال: حضارة

المصادر والمراجع

* ابن حوقل: صورة الأرض، بيروت 1962.

* ابن خلدون: كتاب العبر، ج2، بيروت 1968.

* ابن عذارى: البيان المغرب في أخبار المغرب، بيروت 1967.

* الإدريسي: نزهة المشتاق في اختراق الأفاق، لندن 1866.

* البكرى: المغرب في ذكر بلاد افريقية والمغرب، الجزائر 1911.

* الحميرى: الروض المعطار في خبر القطار، القاهرة.

* العذرى: ترصيع الأخبار وتنويع الأثار، البستان في غرائب البلدان والمسالك إلى المهالك، مدريد 1965.

* المقري: نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب وذكر وزيرها لسان الدين ابن الخطيب، ج1، القاهرة 1949.

* المقدسي: أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، لندن 1906.

* مؤلف مجهول: كتاب الاستبصار في عجائب الأمصار، الإسكندرية 1958.

* ياقوت الحموي: معجم البلدان، القاهرة 1233هـ.

* إبراهيم أحمد العدوي: بلاد الجزائر تكوينها الإسلامي والعربي، القاهرة 1970.

* ارشبا لدلويس: القوى البحرية والتجارية في حوض البحر الأبيض المتوسط، القاهرة بدون تاريخ.

* حسين مؤنس: أثر ظهور الإسلام في الأوضاع السياسية والاقتصادية والاجتماعية في البحر الأبيض المتوسط، المجلة التاريخية المصرية م4 عدد 1 القاهرة 1951.

* العبادى (أحمد مختار): دولة المهالك الأولى في مصر والشام، بيروت 1969.

* عبد العزيز سالم: المغرب الكبير، ج2 دار القومية للطباعة والنشر 1966.

* كارل بروكلمان: تاريخ الشعوب الإسلامية، بيروت 1954.

* ليفي بروفنسال: أدب الأندلس وتاريخها، القاهرة 1951.

* ليفي بروفنسال: حضارة العرب في إسبانيا، بيروت بدون تاريخ.

* ابن الصغير: أخبار الأئمة الرستميين، نشر Motylinski الجزائر 1905.

* د.حبيب الجنحاني: المغرب الإسلامي الحياة الاقتصادية والاجتماعية، تونس 1978.

* مورس لومبارد: الإسلام في مجده الأول، ترجمة إسماعيل العربي الجزائر 1979.

* Dozy (R): histoire des musulmans d'Espagne, leyden T2, 1932.
* Despoi (JR) s: géographie de l'afrique du nord-ouest, paris 1967.
* L. provençal: histoire de l'Espagne musulmane, T1, P 245.
* Cardonne: histoire de l'afrique et de l'Espagne sous la domination des arabes, t 1,paris
* Lewicki (T): traits d'histoire du commerce transaharien.marchands et missionnaires ibadites au soudan occidental et central au cours des VII et XII siecles.VIII, 1970.

جوانب من العلاقة السياسية
بين الدولة الرستمية في تيهرت والدولة الأموية في قرطبة[1]

إن الموقع الجغرافي الذي تتمتع به بلاد المغرب في الشمال الغربي للقارة الإفريقية، والمواجه للقارة الأوروبية، وإشرافه على الممرات المائية الدافئة الهامة، أكسبه إستراتيجية حربية خاصة، وأعطاه مكانة اقتصادية مرموقة بين العالم منذ أقدم العصور، لما يتمتع به هذا الإقليم من أراضي شاسعة خصبة، ومواد أولية صناعية، ومن شواطئ طويلة وموانئ بحرية وفيرة، ودور صناعة منتشرة على طول الساحل المقابل للساحل الأوروبي، ولاسيما بعد أن سيطر المسلمون على الأندلس وأغلب جزر الحوض الغربي للبحر الأبيض المتوسط.

وقد ساعد على سهولة الاتصال بين بلاد المغرب والبلاد الأوروبية وخاصة إسبانيا، لضيق المسافة البحرية بينهما. فالساحل المغربي يكاد يتصل اتصالا مباشرا بالساحل الإسباني (الأندلسي) ولاسيما عند مضيق جبل طارق، الذي يقل اتساعه كلما اتجهنا نحو الغرب، حتى يصل عرضه إلى 14 كلم، وهي مسافة بسيطة إذا ما قورنت ببعض المضائق الأخرى. وقد عبر عن هذه الظاهرة الجغرافي الأندلسي العذاري بقوله: "والمسافة بين جبل طارق ومدينة سبتة (شمال المغرب الأقصى) قريبة جدا يرى الناس سورها ودورها... وتتحرك السفينة من مرسى الجزيرة الخضراء (جنوب الأندلس) عند بزوغ الشمس فلا ترتفع قدر رمحين إلا وقد رست بمدينة سبتة"[2].

وقد ثبت بمرور الزمن أن هذا المضيق لا يشكل عقبة أمام الانتشار العسكري والحضاري والبشري منذ أقدم العصور، وهو الأمر الذي دفع بحكومة العدوتين المغربية والأندلسية إلى التنافس والتسابق من أجل السيطرة

---

(1) نشر هذا المقال في مجلة الكراسات التونسية العدد 155-156 سنة 1991.

(2) العذري، ترصيع الأخبار، ص 118-119.

والتحكم في هذا المجاز المائي، الذي يعتبر مجازا حيويا واستراتيجيا هاما، ومن يمكنه التحكم فيه يستطيع أن يهيمن على الحوض الغربي للبحر المتوسط.

سادت بلاد المغرب ظاهرة الاستقرار السياسي النسبي خلال العقدين الأخيرين من القرن الثاني، وطوال القرن الثالث الهجريين، الموافق للثامن والتاسع الميلاديين، رغم انقسامه إلى دول عديدة، كل دولة لها حدودها السياسية وإقليمها الجغرافي المعروف، ونظامها الإداري ومذهبها الديني المميز، إلا أن هذه الحدود غير مستقرة، وقد تتسع وقد تتقلص حسب الظروف السياسية والمذهبية التي تسود المنطقة.

كانت هذه الدول تعتنق مذاهب مختلفة، فالدول الأموية في الأندلس مثلا: كانت سنية على مذهب مالك، وكانت الدولة الإدريسية في المغرب الأقصى علوية شيعية زيدية، بينما كانت الدولة الرستمية في المغرب الأوسط إباضية، وكذلك الدولة المدرارية في سجلماسة صفرية، وإمارة بني صالح نكور بالريف المغربي كانت هي الأخرى سنية. أما الدولة البرغواطية في "تامسنا" على الشريط الساحلي للمحيط الأطلسي فقد اتخذت لنفسها ديانة لا تمت للإسلام بصلة، أما الدولة الأغلبية في إفريقية، فقد كانت سنية تتبع الدولة العباسية سياسيا ومذهبيا. ومهما يكن من أمر فالجدير بالملاحظة أنه، على الرغم من تمزق بلاد المغرب، وانقسامها الى كيانات سياسية ومذهبية متباينة، خلال القرنين الثاني والثالث الهجريين، الثامن والتاسع الميلاديين، ومن استمرار الجو المشحون بالعداء المذهبي والسياسي، والتحرش العسكري، لفترة طويلة من الزمن، بين عواصم الغرب الإسلامي السبعة وهي "القيروان" و"تيهرت" و"فاس" و"سجلماسة" و"نكور" و"شالة" و"قرطبة" فإنه من حسن الطالع لم تتعد هذه الخصومة السياسية والمذهبية أكثر من المناورات السياسية والاستفزازات الدبلوماسية والحرب الباردة بين الأغالبة والأدارسة وبين

الأغالبة والأمويين أصحاب قرطبة، ولكن على أية حال لم تقدم هذه الدول على إرهاق نفسها وإنهاك قواها، في صراع عقيم فيما بينها، وخاصة عندما سلك أصحاب تيهرت سياسة الإخاء وحسن الجوار وعدم التدخل في شؤون الجيران، إذ لم تسجل النصوص التاريخية، وقوع مجابهات عسكرية مباشرة أو حرب فعلية بينهم، إذا ما استثنينا تلك الاشتباكات المتقطعة المحدودة بالزمان والمكان، التي وقعت في فترات متباعدة بين بني رستم والأغالبة، بسبب المنافسة على مناطق النفوذ في الجريد وطرابلس أو تلك المحاولات التوسعية التي قامت بها الدولة الإدريسية، في بداية عهدها على الحدود الغربية للدولة التيهرتية، أو المعارك التي خاضها الأدارسة ضد برغواطة، التي كان المسلمون يعتبرون أرضها أرض حرب وجهاد.

ويهمنا من هذه الدول في بحثنا دولتا قرطبة وتيهرت، وطابع العلاقة التي كانت بينهما. فقد ذكرت أغلب المصادر الأندلسية أن الأمير الأموي عبد الرحمان الداخل الطريد الشريد من بلاد المشرق، ومؤسس الدولة سنة (138هـ/ 756م)، قضى معظم وقته في مطاردة المناوئين والمعارضين والمتآمرين على دولته، واستطاع أن يصل بها إلى شاطئ الأمان، بفضل حنكته ونشاطه المتواصل وجيشه المنظم، وقادته الأكفاء المخلصين، وتمكن من أن يجمع حوله مختلف الطوائف الأندلسية، من بلديين وشاميين وقيسيين ويمنيين وبربر ومسالمة ومولدين، ويجبرهم جميعا على طاعته.

أما بنو رستم بزعامة الإمام عبد الرحمان بن رستم، مؤسس الدولة الإباضية بتيهرت سنة (160هـ/ 777م) فبحكم موقع هذه الدولة الجغرافي، الذي يقع بين فكي كماشة - إن صح التعبير - العدو الشرقي المتمثل في الأغالبة والعدو الغربي المتمثل في الأدارسة، فقد كان من الطبيعي في هذه الحالة أن يحدث تقارب ودي بين بني رستم في تيهرت وبين بني أمية في قرطبة، تدفعهم في ذلك

مصالحهم السياسية المشتركة[1]. فقد كانت الخصومة قائمة بين العباسيين والأغالبة من جهة وبين بني أمية من جهة أخرى. وبين الأغالبة وبين الرستميين، من جانب آخر[2]. وكذلك كانت تجمع بين الرستميين والأمويين عداوة الأدارسة العلويين من جانب ثالث.

وعند الحديث عن العلاقة بين عبد الرحمان الداخل وعبد الرحمان بن رستم، يمكن أن نقول بأن معالمها غير واضحة لأن النصوص التاريخية شحيحة، في هذا الباب، بل تكاد تكون منعدمة ولعلها كانت محدودة وعلى نطاق ضيق، حيث كانت اتصالات العاهل الأندلسي بأصحاب تيهرت وبعض القبائل المنضوية، تحت نفوذ الدولة الرستمية، خاصة منها زناتة، لأن حاجة الأمويين كانت ماسة إلى التعاون السياسي والعسكري والاقتصادي مع الرستميين، لتزويد جيش قرطبة بأبناء هذه القبائل أو لتحريضها على مقاتلة ولاة العباسيين في إفريقية، والذين كانوا من غير شك يتطلعون إلى بلاد المغرب والأندلس[3]، وربما تكون طبيعة هذه العلاقة الحسنة، قد استمرت في عهد خالفه هشام بن عبد الرحمان (72-178هـ/ 691-796م) وابنه الحكم بن هشام (180-206هـ/ 796-821م).

كانت بلاد المغرب مقرا رئيسا وآمنا للاجئين السياسيين الأندلسيين أو المنفيين إليها، وكان الثائرون على الدولة الأندلسية يفضلون اللجوء إليها لقربها من الأندلس، ولعدم وجود عائق طبيعي يفصلها عن بلاد المغرب، ولسهولة تلقي الأخبار وتتبعها من جهة أخرى، والاستعانة بأبناء القبائل المغربية من المقاتلين، إذا ما عزموا على العودة إلى الديار، وهذا ما حدث، عندما تولى هشام بن عبد الرحمان العرش في قرطبة سنة (172هـ/ 691م)، ثار

---

(1) L. provençal: histoire de l'Espagne musulmane, T1, P 245.

(2) إبراهيم العدوي، بلاد الجزائر، ص 220.

عليه أخواه سليمان وعبد الله[1]، وطالباه بالعرش لكنه تمكن من إخضاعهما، ثم اتفق معهما على مغادرة الأندلس، فاختارا بلاد المغرب، بعد أن اشترى رضاءهما بالمال، فاستقر سليمان بطنجة[2]، بينما انتقل عبد الله إلى تيهرت، ومكث في كنف إمامها فترة من الزمن في منفاه الذهبي[3].ولكنهما عادا بعد وفاة هشام إلى الأندلس ومعهما قوات مغربية للاستيلاء على العرش.

فلهذه الاعتبارات كلها وجد الأمويون في التعاون مع بني رستم، فرصة سانحة لتحقيق أهدافهم، وهو كسر الحصار السياسي والعسكري والاقتصادي والدبلوماسي - إن صح التعبير - الذي قد يتعرض له من الدولة العباسية والأغالبة والدارسة، فلم يترددوا في مد أيديهم للتعاون مع بني رستم والاستجابة من جهة أخرى إلى رغبة عبد الوهاب بن عبد الرحمان الرستمي (172-190هـ/ 788-805م)[4]، الذي تطلع هو الآخر إلى مثل هذه الصلات تدفعه المصلحة السياسية المشتركة، لأنه مهدد من قبل الجارتين الشرقية والغربية، وصارت بذلك الدولة الرستمية، الجسر الذي يعبر منه الأمويون إلى بلاد المغرب ومنها إلى بلاد المشرق[5].

اتسمت العلاقة الأموية الرستمية بالطابع الودي، بغض النظر عن الاختلاف بينهما، فبنو أمية سنيون متعصبون لمذهب مالك، أما بنو رستم فهم خوارج إباضية، غير أن المذهب الإباضي يعتبر أكثر مذاهب الخوارج اعتدالا وأقربها إلى أهل السنة[6].

---

(1) ابن عذارى المراكشي، البيان، ج 8، ص 42.

(2) ابن سعيد المغربي، المغرب، ج1، ص 48 ابن الأثير الكامل 5، ص 102.

(3) L. provençal: histoire de l'Espagne musulmane, T1, P 245.

(4) محمد بن تاويت، دولة الرستمين، ص 21.

(5) سلفادور غوميث، الرستميون كحلقة الوصل بين الجزائر والأندلس، ص 1.

(6) Lwiki, «Al.ibadiyya», in E.I.III, p 660.

ولكنها على أية حال علاقة سياسية وليست علاقة مذهبية، إذ لم يؤثر هذا الاختلاف المذهبي على طبيعة العلاقة الودية وجو التفاهم. والظاهر أنه كان انفتاحا سياسيا واقتصاديا بين البلدين بعيدا كل البعد عن التيارات المذهبية الدينية. وقد ترجع هذه الصلات، سواء على المستوى الفردي أو المستوى الرسمي، إلى عهد عبد الرحمان الداخل، أول أمراء بني أمية في الأندلس، لأن المصادر تفيد رغم قلتها بأنه قد اتصل فعلا بالدولة الرستمية، كما تفيد أيضا بأن أجداد عبد الرحمان الرستمي كانوا موالي لبني أمية، وبعض القبائل المغربية البربرية[1].

ولم يلبث هذا التقارب السياسي أن أخذ طابعا قويا بين البلدين وأحيانا، مظهرا رسميا في كثير من المناسبات. فقد أشارت النصوص التاريخية، إلى أن عبد الرحمان الأوسط (206-238هـ/ 821-852م) أمير قرطبة، استقبل في بلاطه وفدا رسميا كبيرا يتألف من بعض أبناء الإمام عبد الوهاب الرستمي سنة (207هـ/ 822م) وهؤلاء الأمراء هم: "عبد الغني" و"دحيون" و"بهرام".وكان وصولهم إلى قرطبة يوما مشهودا[2]. بحيث بالغ عبد الرحمان الأوسط في حفاوة الاستقبال وكرم الضيافة ن بالوفد الرستمي، إذ أنفق عليهم، حسب ما ذكره ابن سعيد "ألف ألف دينار" (مليون دينار)[3]، وأغدق عليهم الهدايا الثمينة، ثم أعادهم إلى بلدهم، وتضيف الرواية أن السفينة التي كانت تقل "دحيون" و"بهرام" قدر لها أن تبتلعها الأمواج، فغرقت بمن عليها، أما السفينة التي كان فيها "عبد الغني" فقد نجت إلى الشاطئ المغربي، بعد محنة كبيرة في البحر، وعند وصول عبد الغني إلى تيهرت وجد أباه قد توفي وتولى أخوه أفلح بن عبد الوهاب الإمامة[4].

---

(1) ابن حزم، جمهرة أنساب العرب، ص 474-475.

(2) ابن سعيد المغربي، المصدر السابق، ص 48.

(3) L. provencal: histoire de l'Espagne musulmane, T1, P 245.

لم تقتصر سياسة التقارب هذه بين تيهرت وقرطبة على السياسية والدبلوماسية فحسب، بل اشتملت أيضا على النواحي الاقتصادية والعسكرية، ولعل محاصيل تيهرت الزراعية وما تنتجه من صناعة، وما توفره من ثروة حيوانية وما تجلبه من ذهب وعاج ورقيق أسود سوداني، كانت تأخذ طريقها إلى مخازن قرطبة وأهرائها وخاصة في سنوات الأزمات الاقتصادية أو الجفاف. وفي كثير من المناسبات ولاسيما بعد أن سمحت الدولة الرستمية وبعض القبائل المغربية لبعض الجاليات الأندلسية، بالاستقرار على طول ساحل المغرب الأوسط، وإنشاء مدن عليه، مثل مدينة "تنس" سنة (262هـ/ 875م) ومدينة وهران سنة (290هـ/ 902م) وغيرها من الموانئ والمحطات التجارية، التي كان لها خط تجاري مباشر مع المدن الساحلية الأندلسية الجنوبية والجنوبية الشرقية مثل: شاطبة وتدمير وبجاية والجزيرة الخضراء. وقد كانت هذه الجاليات الأندلسية تهيمن على التجارة في الحوض الغربي للبحر الأبيض المتوسط[1].

ويشير الجغرافي الأندلسي الحميري، إلى أن الأساطيل التجارية القادمة من المشرق ومن تونس بإفريقية، كانت تحط رحالها في مدينة "تنس" ومنها تنطلق مرة ثانية نحو مدينة تدمر الأندلسية في يوم وليلة فقط، وهي أقرب المدن الأندلسية إلى مدينة تنس، وهذا يدل على أن موانئ المغرب الأوسط، كانت محطات عبور هامة بالإضافة إلى كونها المنافذ البحرية للمغرب الأوسط نحو أوروبا[2].

إن بناء مدينتي تنس ووهران البحريتين، فضلا عن مرسى فروخ (مرسى الدجاج)، تقيم الدليل على النشاط التجاري الدؤوب بين شاطئي البحر الأبيض المتوسط، وعلى حركة تنقل الأشخاص القوية بين العدوتين المغربية والأندلسية[3].

---

(1) المقري، نفح الطيب، ج1، ص 325.

(2) البكري، المغرب، ص 61، ابن خلدون، العبر، ج6، ص 294.

(3) Vauker Claudette, '' géographie et économie d'algerie'' (A.E.S.C) 28e anneé p 669.

وكذلك استفادت حكومة قرطبة بما تحتاجه، من المقاتلين الزناتيين، والرستميين لتدعيم جيشها وترسيخ نفوذها في بلاد الأندلس وخارجه، لأن إمامه تيهرت لم تتردد في إمدادها بما تملكه من احتياطي عسكري كبير، إلى جانب القبائل المغربية التي كانت تربطها أحلاف مع الأمويين في الأندلس، فالنصوص التاريخية، تشير الى تواجد بعض رجال الأسرة الرستمية الحاكمة في تيهرت يتقلدون وظائف سامية في البلاط الأموي[1].

والظاهر أن هؤلاء الرستميين الخبراء بالشؤون العسكرية والإدارية والسياسية، قد استقروا في الأندلس أثناء السفارة التي وجهها عبد الوهاب بن رستم إلى قرطبة أو قبلها[2]، ويذكر ابن الأبار[3]، أن أول من دخل الأندلس منهم هو "سعيد بن محمد بن عبد الرحمان بن رستم"، عندما كان عبد الرحمان الأوسط، وليا للعهد ونائبا لأبيه على إقليم شذونة بجنوب الأندلس، فاستقر محمد هذا في ناحية من نواحي الجزيرة الخضراء القريبة من الساحل المغربي، وليكون أيضا قريبا من ولي العهد الأموي.

فلما تولى عبد الرحمان الأوسط، شؤون الدولة سنة 206هـ/ 821م، اصطحبه معه إلى مدينة قرطبة قاعدة الحكم، وعهد إليه بخطة الوزراء، وقيادة الجيش الأموي الأندلسي[4]، ثم أضاف له سنة 214هـ/ 829م ولاية الثغر الأدنى (إقليم طليطلة)، حينما نشبت ثورة مناوئة للحكم الأموي بقيادة "هشام الضراب"، في هذا الإقليم، وأسندت إلى محمد الرستمي مهمة القضاء عليها، وإعادة الأمن للولاية، وكان لهذا القائد، دور كبير في إخمادها وإلقاء القبض على مدبريها[5]، وكذلك تشير المصادر التاريخية إلى بلاء هذا القائد البلاء الحسن في

---

(1) إبراهيم بحاز، الدولة الرستمية، ص 202.

(2) البكري، المغرب ص 61، ابن خلدون العبر، ج6، ص 294.

(3) L. provençal, op.cit T.I, p 245.

(4) الحلة السيراء، نج1، ص 372-373.

(5) [illegible]

المعارك الطاحنة، التي وقعت بينه وبين الجيش النورماندي الذي هاجم الشواطئ الغربية والجنوبية لبلاد الأندلس سنة 230هـ/ 844م.

فبالإضافة إلى خبرة " محمد بن سعيد " القيادية والحنكة السياسية، كان أديبا بارعا وحكيما عاقلا وشاعرا مفهوما، ولاعبا ممتازا للشطرنج، مما يدل على أنه يتمتع بمكانة فكرية طيبة قلما تجدها عند الساسة والضباط[1] ومن الطريف فإن هذا الأمير الإباضي، كان متزوجا بإحدى بنات الموسيقى الكبير، وأستاذ الأناقة في عصره المغني "علي بن نافع" المعروف بزرياب لأن زرياب كانت له بنتان تساعدانه في الغناء والعزف على الآلات الموسيقية، والظاهر أنه تزوج البنت الصغيرة التي كانت تسمى "علية" مما يدل أيضا على هوايته وشغفه بالموسيقى[2]، كان لهذا القائد الوزير الرستمي أخا يدعى "القاسم" يقيم معه في الوسط الأندلسي، ولكنه توفي قبل محمد[3].

وهناك شخصية رستمية نبيلة أخرى، لعبت دورا هاما في تطوير العلاقة الطيبة، والتقارب الجاد بين قرطبة وتيهرت، بحكم منصبه السامي في الحكومة الأندلسية، وهي شخصية الأمير عبد الرحمان بن رستم، الذي تولى الوزارة والحجابة في عهد عبد الرحمان الأوسط أيضا، ويرجح أن يكون هذا الأمير ابنا أو أخا لمحمد بن سعيد السالف الذكر[4]، وكان عبد الرحمان بن رستم، يتداول منصب الحجابة مع الحاجب الأندلسي المشهور "عيسى بن شهيد" إلى أن توفي[5]، ويقول ابن حيان في هذا الصدد: "لقد اجتمعت لهذا الخليفة (عبد الرحمان الأوسط) من سراة الوزراء أولي الحلوم والنهي والمعرفة والذكاء من

---

(1) ابن حيان، المقتبس، ص 267.

(2) العذري، ترصيع الأخبار، ص 99-100. ابن العذري، البيان، ج2، ص 82-83.

(3) المقري، نفح الطيب، ج4، ص 125.

(4) ابن حيان، المقتبس، ص 85 توفي محمد بن سعيد الرستمي عام 235 هـ.

(5) ابن الأبار، الحلة السيراء، نج2، ص 148,372 A.Bel: la religion musulmane en bérbérie.T.Ip

أمثال "ابن شهيد" و"ابن رستم" عصابة لم يجتمع مثلها عند أحد من الخلفاء قبلهم ولا بعدهم"[1].

وعندما نجحت البحرية الأغلبية في فتح بعض أجزاء جزيرة صقلية سنة 212هـ/ 827م، نجد أن عبد الرحمان الأوسط أصدر أمرا للأسطول الأندلسي، بأن يشارك مع إخوانه المسلمين في هذه المهمة الجهادية النبيلة سنة 214هـ/ 829م، وقد تمكن الأندلسيون من فتح مدينة "بلرم" ودخولها دخول المنتصر سنة 215هـ/ 830م، ومن ثم استطاع الجيش الأغلبي أن يفتح عدة مدن أخرى، بفضل هذه المساعدات الأندلسية، ولكن الشيء الجدير بالملاحظة هنا هو: هل كان العاهل الأندلسي يهدف من وراء هذه المساعدات الجهاد في سبيل الله؟ أم أنه يريد لفت أنظار خصومه الأغالبة إلى أنه يملك هو الآخر أسطولا بحريا متطورا لا يقل قوة وعددا وعدة عن أسطولهم، إذا ما حاولوا الاقتراب إلى الجزر القريبة من شواطئهم، أم يريدهما معا؟ وحرص في الوقت ذاته أن يتحالف مع الرستميين ليكونوا معه يدرأون أي خطر يلوح من جانب الأغالبة، الذين كانوا مما لاشك فيه يتطلعون إلى الحوض الغربي للبحر الأبيض المتوسط، وهي السياسة التي تنتهجها الدولة العباسية منذ استقلال الأندلس عنها[2].

ولا يبالغ الأستاذ علي دبوز، حينما يذهب إلى أن قيام الدولة الرستمية في المغرب الأوسط، مكنت بني أمية من ترسيخ دولتهم في الأندلس، وأتاحت لهم السبل إلى الازدهار والرقي، بحيث كانت تيهرت بمثابة الجسر المفتوح الذي يصل بين الأمويين في الأندلس، وأتاحت لهم السبل إلى الازدهار والرقي، بحيث كانت تيهرت بمثابة الجسر المفتوح، الذي يصل بين الأمويين في الأندلس وبين المغرب الأوسط من جهة، ومنه إلى بلاد المشرق وبلاد

---

(1) ابن حيان، المقتبس، ص 167.

(2) [illegible] 27 - 28

السودان من جهة ثانية، وخاصة بعد أن أغلقت أمامهم الطرق إلى كل من إفريقية والمغرب الأقصى[1].

فتح الرستميون أبواب مدينتهم "تيهرت" أمام التجار المغاربة والأندلسيين والمشارقة والنصارى واليهود، ووفروا لهم سبل الراحة والطمأنينة، مما زاد في ثراء هذه المدينة وازدهارها، ورخاء سكانها حتى بلغ نفوذها من أطراف تلمسان غربا إلى خليج سرت شرقا، وقد أطلق عليها بحق "عراق المغرب" لأنها تشتمل على أخلاط من الناس على حد تعبير اليعقوبي[2]، تشبيها لها بعراق المشرق، المزدحم بالملل والنحل والأجناس، وقد وصفها الرحالة المقدسي بقوله: فانتعش فيها الغريب واستطابها اللبيب"[3].

ويذكرها البكري بقوله: "فيها (أي تيهرت) خلق عظيم، فلا يكاد يسمع فيها المرء صاحبه، لكثرة اللغط والغوغاء"[4]، ويشير ابن الصغير في هذا الموضوع أيضا بقوله: فقد جاءتها "الوفود، والرفاق من كل الأمصار وأقصى الأقطار ليس أحد ينزل بهم من الغرباء، إلا استوطن معهم وابتنى بين أظهرهم لما يرى من رخاء البلد وحسن سيرة أمامه وأمانه على نفسه وماله...[5] فمما سبق يتضح بأن هناك رؤوس أموال كثيرة، انتقلت إلى تيهرت لاستثمارها في الميدان الصناعي والزراعي والتجاري، كان أصحابها من المشرق والمغرب والأندلس ومن الغرب اللاتيني، يؤكد ذلك المؤرخ ابن الصغير بقوله: "لقد سكن بتيهرت الأندلسيون والعجم"[6].

---

(1) ابن عذارى، البيان، ج1، ص 104.

(2) تاريخ المغرب، ج3، ص 350.

(3) البلدان، ص 353.

(4) أحسن التقاسيم، ص 288.

(5) المغرب، ص 55.

(6) نفس المصدر، ص 12، 13.

استمر التمثيل الدبلوماسي والتشاور السياسي بين قرطبة وتيهرت، وغدت هذه المراسلات بينهما، تفيض بأسمى وشائح المودة والتضامن، ففي عهد الإمام أفلح بن عبد الوهاب (207-258هـ/ 822-871م)، قام أبو العباس محمد بن الأغلب (226-242هـ/ 840-852م) ببناء مدينة أطلق عليها اسم "العباسية" بالقرب من الحدود التيهرتية، وكان الغرض من بنائها وشكها بالرجال والعتاد، هو تضييق الخناق على مدينة تيهرت قاعدة بني رستم، وقد نقض أبو العباس بذلك العهد، والهدنة التي أبرمت بين البلدين المجاورين[1]، ولهذا لم يتردد الإمام أفلح من ثلم أسوارها وتخريبها وحرقها سنة (227هـ/ 841م)، وأرسل بخبر النصر إلى العاهل الأندلسي، فرد عليه هذا الأخير، بمكافأة مالية، قدرها مائة ألف درهم تقديرا لهذا الانتصار، ومشاركة منه في المجهود الحربي ضد بني الأغلب[2].

ولما نجح جيش عبد الرحمان الأوسط، بقيادة محمد بن رستم في انزال الهزيمة بالنورمان سنة (230هـ/ 824م)، وأعاد الهدوء إلى جنوب الأندلس، أرسل وفدا إلى تيهرت لإخبار الإمام أفلح بما تم من انتصارات على النورمان "المجوس" كما تسميهم النصوص العربية[3].

وعندما تولى محمد عبد الرحمان الأوسط عرش الأندلس سنة (238هـ/ 852م)، أصر أن يسير في نفس الخط السياسي الذي سار عليه والده من قبل، وهو الاستمرار في توحيد العلاقة الطيبة مع بني رستم، وتطوير التشاور السياسي والتعاون الاقتصادي بين البلدين، فأوفد سفارة إلى مدينة تيهرت تعبر للإمام أفلح عن احترامه وتقديره لشخصه، كما بين له رغبته في استمرار هذه الصلات الودية وتطويرها، والتعاون المثالي الصادر بينهما، كما

---

(1) نفس المصدر السابق، ن ص 38، ننجار إبراهيم، الدولة الرستمية، ص 165.

(2) ... المرجع السابق، ص 14.

كان في عهد أبيه وبعث له بهدية ثمينة رمزا للصداقة وعربونا للأخوة والتعاون وكان ذلك سنة 238هـ/ 853م[1].

ويصف المؤرخ ابن حيان القرطبي، الاهتمام المتزايد والنفوذ المتغلل لمحمد بن عبد الرحمان الأوسط في الديار المغربية والإفريقية، وتتبعه لأخبار بني العباس وبني الأغلب، في كل من القيروان ومصر وبلاد الشام بقوله: "كان الأمير محمد بن عبد الرحمان شديد التهمم بخبر الساحل والعدوة، مراعيا هناك أخبار أعدائهم بني العباس (متجسسا على عمالهم)...لكثير ممن يتعرف عليهم من ملوك البرابر العلقين إليه بالولاية، لبني مدرار ملوك سجلماسة ومحمد بن أفلح بن رستم أمير تيهرت وغيرهم. فلا تزال رسله وكتبه تتردد إلى هذه الطوائف في البحث عن أخبار بني العباس بدار مملكتهم وأخبار ولاتهم وعمالهم بالشام ومصر وإفريقية[2].

كما يشير ابن عذاري المراكشي، في هذا السياق إلى أنه، أي محمد بن عبد الرحمان الأوسط: "كان مأمولا ومحبوبا في جميع البلدان وكان محمد بن أفلح صاحب تيهرت لا يقدم ولا يؤخر في أموره ومعضلاته إلا عن رأيه وأمره وكذلك بنو مدرار في سجلماسة"[3].

ظل بنو رستم على وفاهم لعهدهم في التعاون الصادق مع بني أمية في الأندلس، إذ لم يسمحوا للفارين السياسيين والمناوئين للبيت الأموي استعمال أراضيهم أو استغلالها، لأي نشاط سياسي أو عسكري معاد لحلفائهم. وقد روى المؤرخ ابن القوطية الأندلسي قصة طريفة في هذا الصدد، تدل على مدى إخلاص الرستميين ووفائهم لتعهداتهم، وذلك عندما تحدث عن حركة الثائر

(1) L.Provençal: histoire de l'Espagne musulmane, T1, P 245.
(2) Ibid .T.I.p 211.

(3) ابن حيان، المقتبس ... 266.

"عمر بن حفصون"، وتمرده الخطير في جنوب الأندلس، ثم تشير الرواية إلى قدوم هذا الثائر الأندلسي، إلى مدينة تيهرت منتحلا شخصية خياط (ترزي) حتى لا تتفطن له السلطات الرستمية، فاشتغل مساعدا لأحد الخياطين الأندلسيين المقيمين في هذه المدينة، فترة زمنية يبدو أنها قصيرة، لكنه سرعان ما تسلل ليلا إلى الشاطئ هاربا إلى بلده، لأنه علم بأن السلطات الرستمية، تفطنت إلى وجوده بمدينتهم، ففر لتوه خوفا من أن تقبض عليه وتسلمه لحلفائها الأمويين في قرطبة، وهذا يدل أيضا على التعاون الإيجابي بين الدولتين، ضد أي حركة عصيان تظهر في البلدين[1].

وهكذا استمرت هذه العلاقة الطيبة والتعاون النموذجي بين تيهرت وقرطبة، طوال العهد الرستمي إلى أن زالت هذه العلاقة بزوال، وسقوط تيهرت في يد الداعي أبو عبد الله الشيعي، مؤسس الدولة الفاطمية في بلاد المغرب سنة (296هـ/ 908م)، ولكن التواجد الإباضي في الأندلس ظل حاضرا، بحيث انتقلت بعض القبائل الإباضية إلى العدوة الأندلسية، واستقرت بها مثل قبيلة بني برزل هروبا من اضطهاد الفواطم، كما استمر بنو أمية يمدون يد المساعدة للقبائل الإباضية، التي كانت تناوئ الشيعة في إفريقية، وعلى رأسهم أبو يزيد صاحب الحمار.

---

(1) ابن عذارى، ن البيان، ج2، ص 108، ابن الخطيب، أعمال الأعلام [illegible]

المصادر والمراجع

* ابن حيان: **المقتبس في رجال الأندلس**، تحقيق محمود علي مكي، القاهرة 1971هـ.

* ابن الأثير: **الكامل في التاريخ (5)**، نشره عبد الوهاب النجار، القاهرة 1302م.

* ابن الأبار: **الحلة السيراء**، تحقيق مؤنس، ج (1)، القاهرة 1963.

* ابن الخطيب: **أعمال الأعلام القسم (2)**، نشره ليفي بروفنسال، الرباط 1934.

* ابن خلدون: **كتاب العبر 4، 6، 7**، طبعة بيروت 1986، وطبعة بولاق.

* ابن سعيد: **المغرب في حلى المغرب**، تحقيق شوقي ضيف، القاهرة 1964.

* ابن عذارى: **البيان المغرب في أخبار المغرب 1 و2**، بيروت 1967.

* ابن القوطية: **تاريخ افتتاح الأندلس**، مطبعة منصور المعتال الكتبي، بيروت بدون تاريخ.

* البكري: **المغرب في ذكر إفريقية والمغرب**، نشره دي سلان، الجزائر 1911.

* ابن حزم: **جمهرة أنساب العرب**، نشره ليفي بروفنسال، القاهرة 1948.

البيعقوبي: **كتاب البلدان**، ط3، النجف 1957.

* العذري: **ترصيع الأخبار وتنويع الأثار والبستان في غرائب البلدان والمسالك إلى الممالك**، نشره عبد العزيز الأهواني، مدريد 1925.

* المقري: **نفح الطيب 1**، تحقيق محي الدين عبد الحميد، القاهرة 1949.

* المقدسي: **أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم**، طبعة دي غوية، لندن 1906.

* إبراهيم العدوي: **بلاد الجزائر تكوينها الإسلامي والعربي**، مكتبة الأنجلو مصرية، القاهرة 1970.

* سلفادور غوميث: **الرستميون كحلقة الوصل بين الجزائر والأندلس**، الملتقى الحادي عشر للفكر الإسلامي، ورجلان يناير 1977.

* محمد بن تاويت: الدولة الرستمية، أصحاب تاهرت، صحيفة معهد الدراسات الإسلامية في مدريد 1957.

* ماريا خيسوس محمد وعبد الرحمان بن رستم في قرطبة، الملتقى الحادي عشر للفكر الإسلامي، ورجلان 1977.

* عبد العزيز فيلالي: العلاقات السياسية بين الدول الأموية في الأندلس ودول المغرب، الجزائر 1982.

* علي دبوز: تاريخ المغرب الكبير، ج3، القاهرة 1963.

* A.Bel: la religion musulmane en bérbérie, esquisse d'histoire et de sociologie religieuse.
* Lwicki AL-IBADIYA e 12. T III.
* Levi provençal: histoire de l'Espagne musulmane, vol 3, Paris 1950.
* Vanecker Claudette, "géographie économique de l'afrique du nord selon les manuscrits arabes du IXe s au milieu XIIe s.in A.E.S.C" 28e année Paris, mai-juin 1973.

الصلات الثقافية والفكرية بين قسنطينة وتلمسان[1]

إن دراسة المدن، تتطلب التركيز على موقعها وبعدها الزماني والجغرافي وما تتضمنه من تنمية بشرية واقتصادية وحضارية في الماضي البعيد والقريب، لان التاريخ هو أساس فهم الحاضر، ولأن المدن لا تنمو من فراغ، وإنما تنمو وتترعرع متأثرة بعوامل بشرية وطبيعية واقتصادية وثقافية، ومتغيرات تؤثر في خصائصها ووظائفها، وأن دراسة المدن، تعد من الدراسات، التي تبيّن الاستقرار البشري وتحدد نوع نشاطاته المختلفة، وقد عرفت الجزائر تأسيس المدن وإنشائها في الألفية الأخيرة قبل الميلاد.

وتعد كل من مدينتي قسنطينة وتلمسان، من المدن العريقة في الجزائر، عرفتا الاستقرار البشري منذ ثلاثة آلاف سنة قبل الميلاد، وصارت الأولى (قسنطينة) عاصمة للدولة النوميدية الشرقية ابتداء من القرن الرابع قبل الميلاد، وأصبحت الثانية (تلمسان) عاصمة إقليمية لغرب الجزائر في عهد الممالك المحلية، وخضعت كل منهما للاحتلال الروماني والوندالي والبيزنطي ما بين القرنين الثاني والسابع الميلاديين.

عرفت مدينة قسنطينة بثلاثة أسماء هي: كرثن، سرتا، قسطنطينة، وعرفت تلمسان أيضا بثلاثة أسماء هي: بوماريا، أقادير وتلمسان.

دخلت قسنطينة إلى دائرة الإسلام، في منتصف القرن الأول الهجري واحتضن أهلها الإسلام واللغة العربية مبكرا، في عهد أبي المهاجر دينار ما بين سنتي 55هـ/ 62هـ-674-681م، الذي قام بنقل عاصمة ولايته من القيروان إلى مدينة "ميلة" في الجزائر سنة 59هـ/ 677م ومكث بها نحو سنتين كاملتين فتح خلالها مدينتي "تيديس" وقسنطينة ومنهم جميعا وجه البعثات والسرايا والحملات نحو المغرب الأوسط (الجزائر)، وصار يدير من ميلة شؤون

الولاية، فتمكن من فتح بلاد الجزائر، بفضل جهود ومساهمة رجال كتامة ماليا واقتصاديا وعسكريا، بنصيب كبير في إتمام فتح المغرب الأوسط (الجزائر) وكان لهم شرف الدفاع عنه ونشره إلى أن أوصلوه إلى تلمسان[1].

أما مدينة تلمسان فقد دخلتها طلائع أبي المهاجر دينار، ثم عقبة بن نافع في حملته الثانية (62-64 هـ/681-683م) في العقد الأول من النصف الثاني من القرن الأول الهجري، وهي الفترة الزمنية تقريبا التي دخلت فيها قسنطينة إلى حاضرة الإسلام.وأصبحت تلمسان في عهد موسى بن نصير، في نهاية القرن الأول الهجري تقريبا، مقرا مفضلا لطارق بن زياد، يقيم فيها مع زوجته "أم حكيم" وحاشيته وجنده وهيئة أركانه[2].

وكان طارق بن زياد يحكم المنطقة الواقعة ما بين تلمسان وطنجة ويفضل الإقامة بالأولى (تلمسان)، ويدير منها شؤون عمالته، وقد استقبل طارق ابن زياد في تلمسان مقر حكمه "الكونت يوليان" حاكم مدينة "سبتة" مع ابنتيه، واتفق معه على مشروع فتح الأندلس، وبهذا يكون أهل تلمسان بقيادة العالم الزناتي "إلياس المغيلي" التلمساني الذي اعتنق الإسلام مبكرا، قد حملوا لواء الجهاد، إلى جانب جيش طارق بن زياد وتحت لوائه، في إتمام فتح الربوع المغربية وبلاد الأندلس[3]، بأموالهم ورجالهم وفلذات أكبادهم.

خضعت مدينة قسنطينة في العهد الإسلامي للدولة الأغلبية والفاطمية والزيرية والحمادية والموحدية ثم الدولة الحفصية.

وكذلك خضعت تلمسان في الوقت ذاته، إلى إمارة محلية مغراوية ثم إلى الدولة الإدريسية وأحيانا للفواطم ومغراوة تحت نفوذ عبد الرحمان الناصر

---

(1) عبد العزيز فيلالي: مدينة قسنطينة، ص 33-35.
(2) ابن عبد الحكم: فتوح إفريقية والأندلس، ص 72.
(3) [illegible] وتراث العلامة عبد الكريم المغيلي، وزارة الشؤون الدينية والأوقاف، ص 1.

الأموي الأندلسي في القرن 4هـ/10م، ثم المرابطين والموحدين، وصارت عاصمة للدولة الزيانية سنة 633هـ.

الصلات الثقافية والفكرية:

إن الحديث عن الصلات الثقافية والفكرية والمثاقفة الصوفية بين تلمسان وقسنطينة والأخذ والعطاء الحضاري، وتحديد درجة استفادة أهل الحاضرتين من بعضهما، تعوزه النصوص المنوغرافية والمصادر الأساسية، بحيث مرت على هذا الجانب مرور الكرام، وما ذكرته من نتف وشذرات جاء محتشما لا يشفي غليل الباحث، وخاصة في العصور الوسطى.

ولكن ظاهرة الصلات الثقافية والفكرية بين قسنطينة وتلمسان، برزت منذ أن احتضن بلاد المغرب الدين الإسلامي واللغة العربية، وأصبح يتفاعل مع منظومة العلوم الإسلامية، ولاسيما بعد أن تصدرت هذه العلوم الحواضر الكبيرة، ساهم علماء قسنطينة وتلمسان في نشرها وازدهارها، وتكوين نخبتها عبر الحواضر المغربية والمشرقية والأندلسية.

فكانت مدينة قسنطينة معبرا للطلاب والعلماء والحجاج نحو بلاد المشرق، وصارت تلمسان محطة للعلماء والطلاب والمتصوفة القادمين من الأندلس والمغرب الأقصى يؤمون مساجدها ومدارسها وزواياها، فكانت محجا للصوفية والمريدين، للوقوف على ضريح أبي مدين شعيب بالعباد والتبرك به والدعاء عنده، والالتقاء بالأولياء الصالحين التي تزخر بهم مدينة تلمسان ولبس الخرقة منهم.

فكانت أخبار وكرامات المتصوف "أبي يعزي يلنور" (ت 572هـ/ 1178) تصل إلى مدينة تلمسان ومدينة قسنطينة ومنها خبر شجرة التين الموجودة ببيته، والتي لا ينقطع منها التين طوال السنة وقد سافر أحد وجهاء قسنطينة من بني علناس رفقة أخيه الحاج ميمون إلى جنوب مكناس حيث يوجد بيت أبي يعزي

للتأكد من شجرة التين وكرامة الشيخ فأكلا من تينها[1] وقد تأثر الخطيب ابن قنفذ بخوارق أبي يعزي وزار قبره سنة 761هـ/ 1359م[2]، ويعني هذا أن أهل المدينتين كانوا يأخذون التصوف من مشرب واحد ومن منبع مشترك.

كما انتشرت في المدينتين الطريقة المدينية، وهي مدرسة أبي مدين شعيب الغوث (ت 594هـ/1198م) التي ضمنها صاحبها الجانب العملي المأخوذ من مدرسة المجاهدات العملية المغربية، وطعّمها بالأفكار الصوفية الأندلسية التجريدية، في اتجاهها الباطني ووحدة الوجود، واستمد فكرة تنظيم الطريقة وطقوسها من المتصوف عبد القادر الجيلاني أو الكيلاني (ت 560/1165)[3].

وقد رفض أبو مدين شعيب أسلوب التقشف والزهد السطحي الظاهر، القائم على ترك الملذات في المأكل والملبس والتطيب والعطر، لأن الزهد في نظره فضيلة وفريضة وقربى[4].وكان يلتزم بالتصوف السني، ولذلك كانت طريقته واسطة بين طريقة الجيلاني القادرية وعدد آخر من الطرق أهمها الطريقة الشاذلية في المغرب الإسلامي[5].

وقد صارت مدينة تلمسان ما بين القرنين 7 و9هـ/ 13-15م عاصمة للزهد والتصوف والفقه المالكي، ومنبرا للحضارة الإسلامية، ووسطا للحركة الباطنية وللغليان الروحي، ومشتلة للعلم والمعارف، وخزانا للعلماء والفقهاء والمتصوفة بفضل التواصل الثقافي والفكري والعلمي مع حواضر الغرب الإسلامي.

---

(1) العزفي: دعامة اليقين في زعامة المتقين تح أحمد التوفيق، الرباط 1980م، ص 53.

(2) أبو يعزى يلنور: صوفي زاهد من شيوخ أبي مدين الغوث قال عنه ابن قنفذ: "حدّث عن البحر ولا حرج": أنس الفقير، ص 21.

(3) الطاهر بونابي: الحركة الصوفية في المغرب الأوسط خلال القرنين 8-9هـ، ثورة الجزائر ق 1، ص 82.

(4) نفسه.

(5) نفسه.

لعبت البيوتات العريقة في المدينتين (قسنطينة وتلمسان) دورا بالغ الأهمية في النهضة الفكرية والعلمية، وكانت العامل الأساسي في التواصل الفكري والثقافي بين أهل قسنطينة وأهل تلمسان، ولاسيما منها: أسرة لفكون، وأسرة ابن قنفد، وأسرة ابن باديس وأسرة ابن عبدون من قسنطينة وأسرة المرازقة، والمقري والشريف العلوني وابنا الإمام وأسرة ابن النجار والعقباني وغيرها من تلمسان، بحيث كانت تتبادل الزيارات السياحية الروحية والعلمية بين المدينتين والتدريس بهما، وحضور الطقوس الصوفية والمجالس العلمية.

والظاهر أن رموز الفعاليات الدينية والفكرية والعلمية والأدبية والتصوف في المجتمع القسنطيني والتلمساني، كانوا محل تقدير وعناية واحترام من قبل السلطة الحفصية والزيانية، وهذا الأسلوب يعد دلالة واضحة للتوازنات التي تريدها السلطة بين أهل المعقول والمنقول والتصوف، وقد استفاد أصحاب علم الباطن من هذا السلوك، فكان لهم الازدهار والانتشار في الحواضر الكبرى للمغرب الأوسط وأريافه[1].

فقد قام أبوعلي حسن علي بن لفكون القسنطيني (بعد 602هـ/ 1205م) وهو الكاتب الكبير، وشاعر وقته، يعد من العلماء البارعين الغزيري الإنتاج في المنظوم والمنثور، خلف ديوانا شعريا مدح فيه ابن عبد المومن، في رحلة سياحية علمية من مسقط رأسه حاضرة قسنطينة، زار خلالها أغلب مدن المغرب الأوسط والأقصى، إلى أن حط رحاله في مراكش عاصمة الموحدين.

لأن الرحلة في طلب العلم، هي ميزة تلك العصور، يقول عنها ابن خلدون: **"فالرحلة لا بد منها في طلب العلم، لاكتساب الفوائد والكمال، بلقاء المشايخ ومباشرة الرجال"**[2].

---

(1) ابن قنفذ: أنس الفقير، ص 94 الطاهر بونابي: المرجع السابق، ص 84.

(2) المقدمة، ص 618.

فبقدر ما كانت الرحلة فحصا للأغوار، ووصفا للأمصار وتقصيا للحقائق وللأحوال والأوضاع الجغرافية والاقتصادية والبشرية والثقافية، فإنها أيضا عاملا من عوامل التزود بالعلوم والمعارف، والأخذ من الشيوخ والتتلمذ عليهم.

دوّن الشاعر ابن لفكون، جولته هذه في قصيدة شعرية طويلة ضمنها أحاسيسه تجاه المدن التي زارها، تعد من درر المنظوم ونفائسه.

فمكث في تلمسان التي أعجب بها مدة اتصل بعلمائها وأدبائها. فكانت له مناظرات أدبية، وفكرية مع بعضهم، وقد خص حاضرة تلمسان بقوله:

وفي وهران قد أمسيت رهنا ... لظامي الخصر ذي ردف روي
وأبدت لي تلمسان قدودا ... جلبن الشوق للقلب الخلي[1]
ولما جئت وجدة همت وجدا ... بمنخنث المعاطف معنوي

وكان الفقيه المتحدث أبو محمد عبد العزيز بن عمر بن مخلوف المكني بأبي فارس (ت 681/ 1287) من مواليد تلمسان، تعلم بها، ثم انتقل إلى مدينة بجاية في رحلة لطلب العلم، فأخذ عن شيوخها من علم المنقول والمعقول، مثل أبي الحسن الحرّاني وأبي العباس الملياني، وتقلد بها قضاء الأنكحة، ثم غادر بجاية ليستقر في مدينة قسنطينة، فدرس بها، والتقى بعلمائها وصفه الغبريني بأنه خزانة مالك بن أنس، احتك بالفقهاء وكان مشاورا لهم، وكانت فتواه هي التي يجري بها العمل، تقلد وظيفة القضاء، ومارسها بمدينة قسنطينة، توفي بمدينة الجزائر (ت 681/ 1287)[2].

وهذا دليل على أن علماء المغرب الأوسط، كانوا يتبادلون الزيارات والأفكار ويتناظرون في أمهات الكتب ويقومون بالتدريس ويتقلدون الوظائف،

(1) الغبريني: عنوان الدراية، ص 284.
(2) نفسه، ص 91.

فالمثاقفة بينهم متواصلة بالرغم من أن قسنطينة تقع تحت نفوذ الحفصيين وتلمسان عاصمة بني زيان.

وقد زار محمد بن أحمد بن مرزوق (781/ 1380) مدينة قسنطينة عدة مرات، الأولى وهو لا يزال شابا لم يتجاوز 19 من عمره، في طريقه إلى البقاع المقدسة رفقة والده أبو العباس أحمد بن مرزوق (741هـ/ 1341) فتتلمذ على بعض الفقهاء والصلحاء بالمدينة ولاسيما منهم قاضيها كما أشار هو إلى ذلك في مجموعه.

ورجع إليها أستاذا زائرا درّس بها مجموعة من العلوم منها كتاب البخاري في الحديث، قال عنه ابن قنفذ الخطيب الذي تعلم على يده بعض العلوم: **"شيخنا الفقيه توفي بالقاهرة، ودفن بين أبي القاسم وأشهب، له طريق واضح في الحديث، ولقي أعلاما، وأسمعنا حديث البخاري وغيره في مجالس مختلفة، ولمجلسه لياقة وجمال، ولين معاملة، وله شرح جليل على 'العمدة' في الحديث والبردة"**[1].

وزارها مرة ثالثة مع السلطان أبي الحسن المريني (731-749هـ/ 1331-1349م)، الذي توقف في مدينة قسنطينة بعد الاستيلاء عليها فأقام ابن مرزوق مع أسرة السلطان المريني بها، ولما كانت وقعة القيروان على أبي الحسن، وثار سكان مدينة قسنطينة على بني مرين سنة 1349/749 وعلى وجودهم في المدينة خرج منها ابن مرزوق رفقة أسرة السلطان وتوجهوا إلى مدينة بسكرة[2].

وكان الفقيه المتصوف أبي هادي (747هـ/ 1347م) قد تجرأ على أبي الحسن، وطلب منه العودة من حيث أتى وترك افريقية وقسنطينة وشأنهما، إلاّ أن أبا الحسن رفض طلبه ونصيحته، فكانت الكارثة عليه، بالرغم من أن، السلطان المريني، كان شديد الحرص على التقرب من المتصوفة، وزيارتهم والتبرك بهم ومعانقتهم، كما كان يفعل مع أبي هادي مصباح الصنهاجي، صاحب زاوية

(1) التنبكتي: نيل الابتهاج، ص 269 ، ابن قنفذ : كتاب الوفيات، ص 373.

(2) ابن مرزوق: المجموع ورقة 38-47.

بقسنطينة، ويمنح لهم الهدايا ويكتب لهم ظهائر التشريف والتكريم، مثل ما فعل مع الخطيب حسن بن خلف بن باديس (1372/784) وأخيه أبي القاسم شيخ الحرابة[1].

وكان الخطيب محمد بن مرزوق يجلس مع المتصوف أبي هادي في مدينة قسنطينة، ويبجله ويعتقد فيه يقول عنه: "من كبار أصحابه (السلطان أبو الحسن) الذي كان يعظمهم **الشيخ الصالح العارف العابد القانت الفاضل أبو محمد عبد الهادي (أبو هادي) أحد أولياء الله البدلاء، الخاشعين الأتقياء أصحاب كرامات وأحوال ومقامات. أحد المتصوفين الطاهرين، وخاتمة الأولياء المتقين، لم ير مثله أبدا في المغرب، وكان والدي أبو العباس (ت 1340/741) شديد الاعتقاد فيه"**[2].وكان المتصوف أبو هادي يزور زاوية العباد وينزل بها مع أتباعه ويقيمون بها جميعا مدة من الزمن عاكفين.

وقد شاهد ابن قنفذ في زياراته العديدة إلى العباد تواصل عملية الانقطاع والاعتكاف بهذه الزاوية (زاوية العباد) واستمرار نشاطها الاجتماعي في الإنفاق على المنقطعين والعاكفين[3].

وكان يرافق أبو الحسن مجلسا من العلماء والفقهاء استقروا بمدينة قسنطينة، وكان من بينهم الخطيب ابن مرزوق، وأبو عبد الله محمد المقري (1356/757) والشريف العلوني التلمساني (771هـ/ 1369) الذي عين قاضيا على حاضرة قسنطينة، فتواصلوا جميعا مع علماء هذه المدينة بالأخذ والعطاء الفكري ولاسيما منهم القاضي المحدث حسن بن أبي القاسم بن باديس القسنطيني (778هـ/ 1376م)[4].

---

(1) ابن مرزوق، ص 37-83 - التنبكتي: نيل الابتهاج، ج2، ص 296.

(2) المسند، ص 156 - أنس الفقير، ص 46 وأبو هادي شيخ وولي صالح، استقر في مدينة قسنطينة وأصله من المغرب الأقصى، كانت له منزلة معتبرة، عند سلاطين بن حفص وكذلك السلطان أبو الحسن المريني وبالرغم من مقاومة غزوه لإفريقية ونصيحته بالعودة إلى المغرب الأقصى فقد ظل أبو هادي يقول عنه أنه أفضل الملوك وأقربهم إلى الله، المسند، ص 408.

(3) بوناني، المرجع السابق، ق1، ص 328.

(4) ... 106-107

وعاد إليها ابن مرزوق الخطيب مرة أخرى مع السلطان أبي عنان في حملته الشهيرة على افريقية سنة (758هـ/ 1356م) ضمن المجلس العلمي للسلطان، فدخل المدينة بعد حصار طويل، ومكث العلماء التلمسانيون الثلاثة في مدينة قسنطينة، يدرسون المنقول والمعقول ويجلسون مع علمائها ونخبتها.

وكان أبو عنان، قد اختار المقري للكتابة وقاضي العسكر، أثناء حملته على مدينة قسنطينة، التي اتخذ فيها موقفا مشددا، ضد الولي الخطيب حسن ابن خلف الله بن باديس السالف الذكر، لأنه رفض الغزو المريني، وكان يحمس المقاتلين ضدهم بخطبه المؤثرة على أهل قسنطينة، فنزع منه ظهير التشريف والتكريم الذي منحه إياه أبو الحسن ونفاه وسجن أخاه شيخ الحرابة[1].

وقد أشار ابن قنفذ إلى المحاورة والمناظرة الفقهية التي دارت بين أبي هادي مصباح سعيد الصنهاجي (1347/748) صاحب زاوية بقسنطينة مع فقهاء تلمسان، ولاسيما وأن أبا هادي ينتمي إلى الطائفة المجارية والتي أخذها عن أبي لقمان المراكشي، قبل أن يتحول إلى الطريقة المدينية عن طريق شيخ زاوية ملارة[2] يعقوب الملاري (717هـ/ 1317م) بملارة (فرجيوة) وقسنطينة.

أما الفقيه أبو عبد الله محمد بن محمد بن مرزوق الحفيد (ت 1438/842) الذي شرّق وغرّب، فكان له فضل الأقراء من المغرب إلى الحجاز، اشتهر بعلمه وفضله في الأمصار التي زارها، فقد مكث في مدينة قسنطينة نحو ثمانية أشهر مدرسا ومفتيا ومجتهدا خلال سنة 1433/837 أثناء رحلته إلى البقاع المقدسة، تتلمذ عليه طلاب كثيرون وكانوا يتزاحمون على مجلسه، ولاسيما منهم إبراهيم بن فايد بن موسى بن هلال (ت 1455/857) الذي أخذ عليه الأصليين

---

(1) أبو القاسم الحفناوي: تعريف الخلف، ج1، ص 382 ، أبو سالم العياشي: الرحلة، ج2، ص 205 خرج مع الأمير أبي الناصر بن الحسن وبعض أولاد السلطان من قسنطينة واتجه إلى بسكرة.المجموع ورقة 48.

(2) أنس الفقير: صص 49-51.

والمنطق والمعاني والبيان فضلا عن علم الفقه، والظاهر أن ابن هلال استغل وجود ابن مرزوق في قسنطينة، فلازمه وتقرب منه حتى أخذ عنه غالب العلوم المتداولة عنده كما أشار التنبكتي[1].

وأما الفقيه أحمد بن يونس بن سعيد القسنطيني، فقد تزود بمؤلفاته منها شرحه على البردة[2].

وفي مجال التصوف فقد انفتحت قسنطينة على زاوية العباد بتلمسان واعتنقت طريقتها عن طريق يعقوب بن عمران البويوسفي (ت 1317/717) الذي تتلمذ على الشيخ مسعود بن عريف، أحد أصحاب القطب أبي مدين (594هـ) الذي ينحدر من جبال الشلف، فتأثر به يعقوب الملاري تأثرا كبيرا لدرجة أن الشيخ مسعود ورث له الطريقة المدينية، ونصحه بالعودة إلى بلده وبناء زاوية بها تكون منارة للإشعاع الصوفي السني. وكان ذلك في النصف الثاني من القرن 7هـ/ 13م، وهذا دليل أيضا على التواصل الفكري ما بين متصوفي علماء تلمسان مع علماء وصوفية قسنطينة.

والظاهر أن طريقة أبي مدين شعيب الغوث وطقوسه في مجال التصوف السني، قد عرفها شيوخ مدينة قسنطينة وطلابها وصلحائها، ويكون هؤلاء الشيوخ تتلمذوا عليه مباشرة أو عن طريق تلاميذه، في مدينة بجاية، التي أقام فيها أبو مدين فترة طويلة، وأن بجاية لا تبعد كثيرا عن قسنطينة، وتخضع كلتاهما للنفوذ الحفصي.

وأن كتابي "عنوان الدراية" و"أنس الفقير" رصدا لنا العديد من المراسلات والاتصالات بين شيوخ قسنطينة وصلحائها وبين شيوخ بجاية ومتصوفيها[3] وزياراتهم الكثيرة للمدينتين.

---

(1) نيل الابتهاج، ص 45.

(2) نفسه، ج1، ص 45 – السخاوي: التحفة اللطيفة، ج2، ص 160.

(3) انظر الغبريني: ص 91-250-251 وابن قنفذ: ص 49-51.

حرص يعقوب الملاري على العمل بالكتاب والسنة والاعتناء بالجانب التربوي العملي من التصوف في زاويته، وهي الطريقة التي سلكها أبو مدين الغوث، التي يرى فيها بأن التصوف ليس بالرهبانية ولا بأكل الشعير والنخالة ولا بلبس الصوف الخشن والخرقة، وإنما يكون بالصبر على الأوامر واليقين والهداية، وهو السلوك الذي التزم به أبو مدين وأسرة ابن مرزوق في تلمسان[1].

وقد التزم شيخ الزاوية الملارية، بهذه المبادئ والأفكار، وبما تحلى به نظام أبي مدين الغوث، حتى أصبح لزاوية ملارة وشيخها تأثير روحي كبير في قسنطينة والمغرب الأدنى، فصارت قبلة للمريدين وملاذا يلجؤون إليها وقت الشدائد يحتمون بشيخها وببركاته ودعواته[2].

وكذلك وضح لنا ابن قنفذ الخطيب المكانة التي كان يتمتع بها والد جده يعقوب وجده يوسف بن يعقوب (764/1360) بسبب الاعتقاد فيهما لأنهما ينتميان إلى طريقة أبي مدين الغوث، وارتباط أغلب صوفية قسنطينة وبجاية بها عن طريق التلمذ أو الأخوة في الطريقة، لأن أبا مدين الغوت مكث نحو 15 سنة ببجاية وهو الأمر الذي جعل العلاقة متينة بين زاوية ملارة بفرجيوة التي تبعد عن قسنطينة بمرحلتين ولكن صاحبها كان يتنقل ما بين ملارة وقسنطينة دائما، لأن ابنته تزوجت من حسن بن قنفذ (ت 750هـ/ 1350م) والد ابن قنفذ الخطيب (810هـ/ 1347م) وزاوية العباد بتلمسان حيث كان الشيخ يوسف يعقوب الملاري (ت 764/ 1360) كثير التردد على ضريح أبي مدين، وهو ما جعل الشيخ أبو العباس بن مرزوق (741/1341) القائم على ضريح العباد، يهدي للزاوية الملارية جزءا من عكاز أبي مدين كعربون لهذا الانتماء وللصلة الوثيقة بينهما[3].

---

(1) نللي سلامة العامري: الولاية والمجتمع، ص 147، عبد العزيز فيلالي: دراسات في تاريخ الجزائر، ص 126.

(2) ابن قنفذ: الفارسية، صص 139-194-198.

(3) ابن قنفذ: أنس الفقير، ص 53.

إن مكانة الولي يوسف بن يعقوب الملاري عند سلاطين بني حفص وسلاطين بني زيان جعلت السلطان الحفصي أبو يحيى أبو بكر (718-747/1318-1343) يكلفه بمهمة دبلوماسية إلى البلاط التلمساني لملاقاة السلطان الزياني أبي حمو موسى الأول (707-718/1307-1318) وقد قام بهذه المهمة على أحسن ما يرام، إذ تمكن الشيخ الملاري، من إبرام معاهدة هدنة وسلم وحسن الجوار، بين الدويلتين الجارتين مدتها عشر سنوات[1]، وهذا دليل واضح على العلاقة المتينة بين رجال التصوف ورجال الحكم والسلطة، فتعدى بذلك من التعاون الثقافي والفكري إلى التعاون السياسي والدبلوماسي.

فقد كانت لشيخ زاوية ملارة، علاقات عديدة ومتنوعة مع العلماء والصلحاء والأمراء والسلاطين في قسنطينة وتونس وبجاية وتلمسان، تدل على اتساع دائرة شهرته العلمية والروحية والصوفية وكثرة الاعتقاد فيه.

وكان الخطيب ابن قنفذ القسنطيني(810هـ/ 1407م)حفيد الملاري يوسف بن يعقوب (ت 764هـ/ 1363م) قد تأثر بثقافة جده الصوفية وتتلمذ عليه لأنه كفله بعد وفاة والده، وعلمه منذ نعومة أظفاره علوما شتى، فتعلق الصبي بجده تعلقا شديدا، فأظهر ابن قنفذ نجابة كبيرة في هذا الميدان.

أهلته إلى الرحلة نحو المغرب الأوسط والأقصى، عكس أقرانه الذين كانوا يتوجهون إلى بجاية وتونس والمشرق الإسلامي للاستزادة من العلوم والمعارف، والالتقاء بالأولياء الصالحين، والوقوف عند أضرحة المتوفين منهم، فقصد مدينة تلمسان عاصمة بني زيان والتقى بعلمائها، ووقف عند ضريح وزاوية شيخها أبي مدين بالعباد، وتبرك به، ولاسيما وأن علاقة طيبة وروحية تربط بين جده الملاري وأسرة ابن مرزوق بتلمسان القائمين على ضريح أبي مدين الغوث وخطباء مسجد العباد، وقد استغرقت جولته السياحية والعلمية ما يزيد عن ثمانية عشر سنة، التقى خلالها بأقطاب التصوف ولبس الخرقة بيدهم.

فكان كثير التردد على مدينة تلمسان في غذوه ورواحه ورحلاته المتعددة نحو فاس وسلا وأغمات ودكالة، استقر بمدينة تلمسان مدة من الزمن سنة 1373/776م، بسبب المجاعة التي اجتاحت المغرب الإسلامي، اتصل خلالها بالمجالس العلمية والصوفية التي تقام بتلمسان وشارك فيها[1].

فقد وقف كثيرا أمام ضريح أبي مدين الغوث بعباد تلمسان، يتبرك به، ويتضرع أمام مقامه وفي ذلك يقول: **"فلجأت إلى قبر أبي مدين وركعت هناك ما قدر لي ثم قرأت جملة من القرآن، ثم أخذت في التسبيح والتهليل في نفسي، حتى رق قلبي واجتمع خاطري، فاستغفرت إليه وصليت على النبي صلى الله عليه وسلم ثم قلت: يا سيدي أبا مدين نحن أضيافك، وقد نزلنا بجوارك ولنا معك وسيلة عهد وسند متصل قريب غير منفصل، والغرض تسيير الانتقال والحفظ في كل الأحوال"**[2].

كما التقى بالمتصوفة التلمسانية الشهيرة بالصالحة بفاس وبتلمسان، فكانت هذه الأخيرة تجالس كبار الفقهاء وتجادلهم في مسائل فقهية عديدة وكانت تعكف لقراءة القرآن الكريم على زهد وتقشف وعبادة وورع، وكان مجلسها يضم الفقيه العالم محمد المقري والشريف التلمساني، وابن قنفذ الخطيب القسنطيني ويقول عنها هذا الأخير: **"أنها كانت تطلعني على آداب دقيقة وتنبهني ما انتفع به"**[3].

وكان ابن قنفذ قد رصد في كتابه الموسوم **"أنس الفقير وأعز الحقير في رحالات التصوف كأبي مدين وأصحابه"**، معتبرا شخصية أبي مدين الدافع الأساسي لوضع هذا الكتاب[4].

---

(1) أنس الفقير، ص 81، ابن مرزوق: المجموع، ورقة 14-17.

(2) أنس الفقير وأعز الحقير، ص 105.

(3) ابن قنفذ، أنس الفقير، ص 80-81-82.

(4) ابن قنفذ: المصدر نفسه، ص 105.

وقد دخلت حلقات الدرس بمدينة قسنطينة، مؤلفات مشرقية وأندلسية وتلمسانية كثيرة، اعتمدها الطلاب في دراستهم وأبحاثهم منها كتب ابن مرزوق الخطيب وحفيده محمد، وكتب ابن أبي حجلة التلمساني وقصائده في الشعر الصوفي، وهو الأمر الذي جعل الثقافة في قسنطينة وتلمسان تعتمد على رافدين هامين، رافد المشرق ورافد الأندلس، فضلا عن الجهاز العلمي والثقافي المحلي في المدينتين، فنتج عن ذلك تكوين كوكبة من الأساتذة والعلماء تميزوا بغزارة التحصيل وعمق التفكير، حتى أصبحوا حجة في الفقه والتفسير وعلى رأسهم أبو إسحاق التنسي، وفي علم أصول الدين والنحو والأدب والتاريخ ومنهم ابن هدية وابن خميس والمقري وابنا الإمام والشريف الحسني من تلمسان، وأبو على بن لفكون وعبد الكريم بن لفكون أيضا والخطيب ابن قنفذ القسنطيني، وأبو على حسن بن باديس 1385/787م وغيرهم كثيرون أصبحوا حجة في الفقه والتفسير والأصول والنحو والأدب والتاريخ وعلوم عقلية أخرى[1].

غير أن الجدير بالذكر ومن خلال المعطيات السابقة نجد ان علماء تلمسان قد زاروا قسنطينة ودرّسوا بها وتولّوا بعض المناصب فيها مثل الإفتاء والقضاء، بينما علماء قسنطينة أغلب وجهتهم كانت نحو بجاية وتونس والشرق أكثر من وجهتهم نحو الغرب بحكم موقعها بين القطبين الثقافيين تونس وبجاية فقد رصدت لنا المصادر عينات كثيرة لقسنطينيين استقروا في مدينة بجاية وتونس عاصمة بني حفص تولوا مناصب عديدة في هذه الحاضرة من قضاء وإفتاء وكتابة وتصدروا التدريس والخطابة في مساجدها ومدارسها وكذلك منهم من طاب لهم العيش في الديار المصرية والحجازية فاستقروا بهذه الربوع خلال العصور الوسطى.

لم تتوقف المراسلات بين علماء قسنطينة وعلماء تلمسان، تتضمن المسائل الفقهية والأدبية واللغوية وهي رسائل توجهت لكبار علماء تلمسان مثل أبنا الإمام ومحمد بن مرزوق الحفيد والشريف الحسني وأبو العباس أحمد المقري التلمساني (1041هـ) في العهد الزياني وغيرهم.

فقد راسل أبو عبد الله محمد بن باديس في القرن 11هـ/17م أبا العباس أحمد المقري التلمساني، صاحب كتاب "نفح الطيب"، يستفسره في قضايا لغوية وعند لقائه بالديار المصرية توسع معه في المسائل الفكرية واللغوية، وأخذ عنه الكثير حسب منشور الهداية[1].

وظل الاتصال الديني والثقافي والروحي بين تلمسان وقسنطينة متواصلا وقائما عبر العصور المختلفة. ففي العهد العثماني كانت زاوية تقوم بوظائفها الدينية والتعليمية والثقافية بمدينة قسنطينة، تحمل اسم أحد الشيوخ التلمسانيين الذين استقروا بهذه المدينة وهي زاوية الشيخ سيدي علي التلمساني[2].

أما الصلات الثقافية والعلمية بين تلمسان وقسنطينة خلال القرنين 19 و20، فقد وضحتها بعض الوثائق يمكن أن نستخلص منها بعض الفعاليات الثقافية آنذاك.

عبد القادر المجاوي:

فقد ظهرت في مدينة قسنطينة شخصية فذة نادت بالإصلاح وكرست حياتها للتدريس من أصول تلمسانية، استفاد منه أهلها، هذه الشخصية هي: عبد القادر المجاوي 1848-1914م، وهو علم من أعلام الجزائر، كانت له بصمات في الحركة الثقافية وتأثيرات هامة في النهضة والحركة الإصلاحية في الجزائر، ولد بتلمسان عام 1848م، ينتمي إلى أسرة تلمسانية عريقة في العلم

---

(1) عبد العزيز فيلالي: تلمسان في العهد الزياني، ج2، ص 328.
(2) عبد القادر دحدوح: مدينة قسنطينة محطات تاريخية ومعالم أثرية قسنطينة 2010، ص 95.

وممارسة القضاء، فقد كان والده محمد بن عبد الكريم المجاوي، قاضيا بتلمسان لمدة زادت عن خمس وعشرين سنة (25)، فنشأ عبد القادر في هذا البيت الشريف نشأة علمية، ولما عيّن والده قاضيا على طنجة، نقله من محيطه الاجتماعي الفاسد في طنجة إلى الدراسة في مدينة تطوان، المدينة التي تهيمن عليها التطهرية الصارمة للريفيين، ثم دخل جامع القرويين للتزود من معارف وعلوم كبار شيوخها، بفاس نذكر منهم محمد العلوي قاضي مدينة فاس، ومحمد كنون ومحمد بن سودة وجعفر الكتاني، ثم ذهب إلى مدينة دمشق، لإتمام دراسته، وارتبط بعائلة الأمير عبد القادر ارتباطا وثيقا. وفي سنة 1869 م عاد الى وطنه الجزائر واستقر في مدينة قسنطينة ليشارك بعض أقاربه من طنجة وخاصة عائلة بوطالب حيث استقرت هي الأخرى في مدينة قسنطينة في الستينيات من القرن 19م، فتزوج منها عبد القادر المجاوي، ولعل هذا يفسر مجيء المجاوي إلى مدينة قسنطينة، ففتح بها مدرسة سنة 1870 وهو ما جعل أهل قسنطينة يفرحون به ويحتضنونه، فصار ينظم مع القاضي المكي بن باديس الجلسات العلمية وينسقا مع بعضهما البعض، للحفاظ على الهوية العربية الإسلامية وتطويرها والدفاع عن القضاء الإسلامي في الجزائر، وسرعان ما أصبح عبد القادر المجاوي محل تقدير من قبل القسنطينيين، وفي نفس الوقت مزعجا للإدارة الفرنسية، لأنه كان يدرس في مساجدها العلوم الشرعية، واللغة العربية، وقد حاولت الإدارة الفرنسية أن تجلبه إلى صفها بتعيينه مدرسا في جامع الكتانية سنة 1873، ثم مديرا للمدرسة الرسمية في سنة 1878م، وهي المدرسة التي بناها صالح باي وحولتها السلطات الفرنسية إلى مدرسة رسمية[1].

فاستفاد منه أهل قسنطينة، بحيث كان معلما بارعا، استحوذ على قلوب تلاميذه بعلمه الغزير ولسانه الفصيح ومنهجه المشوق وعمق ثقافته، يعود إليه الفضل في

إيقاظ روح الإصلاح والنهضة الفكرية بمدينة قسنطينة، فذاعت شهرته العلمية في البلاد، فأقبل عليه طلاب العلم والمعرفة من مختلف مناطق الوطن.

ومن التلاميذ الذين حملوا أفكاره ولواءه والذين سيكون لهم شأن كبير: العالم حمدان الونيسي، الذي انتقل إلى التدريس بالمسجد النبوي بالمدينة المنورة وهو أستاذ الإمام عبد الحميد بن باديس، والمولود بن الموهوب المدرس بالمدرسة الكتانية، والأستاذ المفكر الجزائري مالك بن النبي.

فكان الشيخ عبد القادر المجاوي مربيا بارعا، قدم نصائح وعلوم مفيدة لطلابه، في كتاب ألفه بعنوان "إرشاد المتعلمين" تحدث فيه عن علوم اللسان وعلوم الأديان وعلوم الأبدان، نشره بالقاهرة سنة 1877 يحتوي على ثلاثين صفحة، شرح فيه حالة الثقافة في الجزائر في ظل الاحتلال الفرنسي، انتقد فيه بقسوة التخلف والانحطاط الفكري والثقافي، الذي سببه الاحتلال للجزائر وقارن ذلك بالتطور الثقافي في أوروبا والمشرق العربي، وقدم في الكتاب عدة اقتراحات للنهوض بالتعليم في الجزائر، وعلاجا للمنهج التربوي والتعليمي يعتمد على الأسلوب العصري، يركز فيه على الثقافة الدينية والعلمية، وذكر المجاوي، بأن العلم لا يهدد الدين، بل مكمل له لأن العلوم توضيح إضافي لوجود الله وعظمته، ويساهم في تطوير الحياة المادية والمدنية، فهذه الأفكار كانت محور نقاش حاد وجاد، حول الفكر والثقافة في الجزائر منذ دخول الاحتلال الفرنسي لها[1]، وبعد فترة قصيرة من ظهور كتاب عبد القادر المجاوي والنقاش الذي دار حوله، قام أحد المترجمين العسكريين بترجمة الكتاب وتلخيصه إلى اللغة الفرنسية ووضع له عنوانا «un livre utile» في الجريدة الحكومية الرسمية التي تحمل عنوان: "المبشر" في 12 ديسمبر 1877، انتقدوا فيها

---

(1) انظر محمد بن مصطفى بن الخوجة: عقود الجواهر في حلول الوفد المغربي بالجزائر سنة 1902/1319م، تقديم على تابليت الجزائر، ص ص 10-12.

المجاوي انتقادا شديدا، والظاهر أن ذلك كان بإيحاء من الوالي العام للجزائر، وكان للجريدة الكولونيالية progrés de l'est، التي تصدر بقسنطينة، رد فعل قوي تجاه الكتاب، فقد نشرت مقالا يوم 1877/12/20 بعنوان «le livre nuisible» طالب فيه بعدم تطوير اللغة العربية والثقافة الإسلامية، وعدم دعمها، ودعت إلى دعم Bas breton et basque بفرنسا، وأكدت على استبدال اللغة العربية باللغة الفرنسية للجزائريين، حتى تسهل مهام الإدارة والعدل.

ثم قامت نفس الجريدة بنشر رسائل من الجزائريين المأجورين، يتعرضون فيها لعبد القادر المجاوي، ويتهمونه بإهانتهم بنشر هذا الكتاب، وطالبت الجريدة، بإدماج الجزائريين في اللغة والثقافة الفرنسية، والذي يؤسف له فقدان المترجمين الجزائريين في هاتين الجريدتين، فقد وضع عبد القادر المجاوي كتابا بعد تشخيصه للداء في الجزائر، أيقظ به نخبة البلاد من سباتها، وعدم مبالاتها. والجدير بالذكر هو أن الإدارة الفرنسية وعلى رأسها المستوطنون، اتهموا الأمير عبد القادر الجزائري بأنه هو الذي دفع تكاليف طبع ونشر وتوزيع هذا الكتاب، نظرا للعلاقة التي كانت تربطه بالشيخ عبد القادر المجاوي[1]، كما قدم عدة كتب أخرى في علوم شتى بلغ عددها ثلاثة عشر كتابا ورسالة، ومقالات عديدة في صحف ذلك الوقت، أشار فيها إلى أن العلوم الحديثة لا تتعارض مع الإيمان، بل تخدمه، وتعز الدين وتدعمه وتنميه وتعتبر أفكاره هذه هي اللبنة الأولى للنهضة الإصلاحية في الجزائر، وخلف عبد القادر المجاوي عددا كبيرا من التلاميذ، حملوا أفكاره وساروا على دربه، واتخذوا من منهجه منارا يهتدون به في جهادهم التربوي والتعليمي، ثم انتقل إلى الجزائر سنة 1898م.

وأصبح مدرسا بمدينة الجزائر بمدرسة الثعالبية العليا المكلفة بتكوين القضاة والمترجمين، ثم وسع نشاطه بداية من سنة 1908م، خارج المدرسة

(1) محمد بن مصطفى بن الخوجة: المرجع السابق، ص 12.

الثعالبية إلى الدعوة والإرشاد، وساهم في إحياء اللغة العربية والعلوم الإسلامية، وبذل جهدا كبيرا في نشر الثقافة العربية الإسلامية، وتكوين جيل من المثقفين، صاروا كلهم نواة للوطنية واليقظة القومية، فربطوا حاضر الجزائر بتاريخها المجيد الحافل بالأمجاد والبطولات والانجازات الحضارية، وتشاء الأقدار أن يتوفى عبد القادر المجاوي في قسنطينة، التي خدم فيها كثيرا بين أهله وتلاميذه في 1914/09/26م أثناء زيارته لها وكانت له نشاطات مكثفة في هذه الزيارة، ولهذا فقد شككوا في أن موته لم تكن طبيعية، ويشير تلميذه إبراهيم أطفيش (1886-1965م) بأنه تعرض للإغتيال من طرف المخابرات الفرنسية، بحيث وضعت له ولثلاثة عشر عالما جزائريا السّمّ في القهوة فمات لتوه[1].

كما شككوا فيما بعد في مقتل الإمام عبد الحميد بن باديس، ونحن لا يمكننا الجزم في ذلك لأن الوثائق تعوزنا، غير أن هذه الأفعال غير بعيدة عن سلوكات الإدارة الفرنسية وأجهزتها المختلفة، وليست غريبة عنها هذه الأفعال للتخلص ممن يضايق وجودهم في الجزائر.

وقد أمّ صلاة الجنازة تلميذه الشيخ أحمد الحبيباتي وأبّنه تلميذه الشيخ المولود بن الموهوب مفتي الديار القسنطيني.

وألقى بالمناسبة الإمام الشيخ عبد الحميد بن باديس خطبة مؤثرة أبّن فيها شيخ أستاذه جاء فيها: "أيها الإمام الذي ببزوغ شمسه تمزقت سحب الجهل، **وبدت غرة القلم المعين، أنت الذي عانيت في سبيل إصلاحنا أتعابا طويلة ...كنت مثالا لحسن الأخلاق وكرم الطبع، ولباب الفضيلة...نبكيك بالدموع، ويبكيك القرطاس والقلم، نبكيك وتبكيك المنابر ودروس العلم والحكم، نبكيك ويبكيك هذا القطر الحزين، الذي غمرته بيض أياديك وغرر فضائلك الحسان، وقد حان أن**

---

(1) مولود عويمر: الشيخ المجاوي أستاذ الجماعة مجلة الوعي عدد 3-4 أشهر أفريل، ماي 2011، ص 149-153.

أودعك وعزيز على وداعك وداعا يعقبه اللقاء إن شاء الله في جنان الرضوان ارجع إلى ربك راضيا مرضيا مثنيا عليك بكل لسان مهديا لك الفوز بالخلد في أرقى فراديس الجنان". وختم العلامة ابن باديس تأبينه بقصيدة طويلة نقتطع منها ما يلي:

ألا إن هـــذا الـــدهر ذو فتكـــات	وإنـــا لنـــا في طيـــه لعظـــات
له عصميات في النفوس فلو رمى	بها الراسيات صرن منخفضات
وكم قد رماها فاصطبرنا لرميه	إلى أن رمى بأعظم النكبات[1]

ابن باديس وتلمسان:

أما الشخصية الثانية من الأسرة الباديسية التي كان لها اتصال بمدينة تلمسان فهي الشيخ الإمام عبد الحميد بن باديس الذي اختار لتلمسان شخصية علمية مرموقة هي الإمام محمد البشير الإبراهيمي، نائبه في جمعية العلماء المسلمين، لغزارة علمه وفصاحة لسانه وسداد رأيه وقوة حجته وشجاعته في مواقفه.

فكان الإمام الإبراهيمي في تلمسان يقوم بحركة واسعة، تفاعل أهل تلمسان مع مشروعه الاجتماعي والثقافي، كما تفاعل أهل قسنطينة بمشروع عبد الحميد بن باديس الذي يتضمن بذور نهضة إصلاحية وتربوية.

لم يتأخر التلمسانيون في السعي لبناء مدرسة حرة تكون منارة علمية وفكرية إسلامية وحصنا للغة العربية في مدينتهم، فأسسوا مدرسة جميلة أطلق عليها اسم "دار الحديث" فكانت هذه المدرسة فريدة من نوعها وليس لها نظير في القطر الجزائري آنذاك، شيدت على نمط معماري هندسي تلمساني أصيل، وهي عبارة عن مجمع تربوي ديني ثقافي.

لعل أحسن احتفال شهدته الجزائر وأروعه هو الاحتفال بفتح هذه المدرسة بتلمسان يوم 22 رجب 1356 الموافق ليوم 27 سبتمبر 1937 فكان الاحتفال

جميلا في مظهره، ولطيفا في أسلوبه وبديعا في مناسبته ودقيقا في تنظيمه وفي علو الطبقة التي شاركت فيه، وشاهدت مراسيمه، وتكلمت على منبر المدرسة، من العلماء ورجال السياسة والشعراء وأهل الفكر وصفته جرائد ذلك الوقت وصفا دقيقا، واهتمت به اهتماما كبيرا، وحشد له التلمسانيون، الإمكانيات المادية والمعنوية الضخمة، رغم مضايقات الإدارة الفرنسية واستفزازات المخابرات وتهديدات رجالها[1].

وقد اختارت الجمعية الدينية لمدينة تلمسان أن تدوم الاحتفالات بهذه المناسبة يومين كاملين، 27 و28 سبتمبر 1937م، وتزامن الاحتفال مع نهاية انعقاد مؤتمر جمعية العلماء المسلمين في الجزائر العاصمة لتجديد إدارتها، حضره ما يزيد عن 5 آلاف مشارك من المعلمين وأنصار الجمعية ومحبيها، وكان الشيخ محمد البشير الإبراهيمي، قد بشر المؤتمرين بهذا الحدث الهام، وتحديد يوم التدشين، وأخبرهم بطموح أهل تلمسان لنشر مبادئ الجمعية وأهدافها، والتفاني في خدمة الإسلام واللغة العربية ووجه لهم دعوة باسم سكان مدينة تلمسان، الذين يتشوقون ويتشرفون بأن يكون الافتتاح الرسمي لهذه المدرسة بيد الإمام الشيخ عبد الحميد بن باديس. وقال في هذا الصدد: **"لقد حملني إخوانكم التلمسانيون أمانة يجب علي أن أبلغها إليكم، وهي أنهم يسلمون عليكم، ويعاهدونكم على التفاني في خدمة الجمعية ونشر مبادئها، ويبشرونكم بأنهم شيدوا للإسلام والعربية معهدا، لم يكن له نظير، في تاريخ الجزائر الحديث، كما أنهم يتشوقون ويتشرفون، أن يكون فتح هذا المعهد لأول مرة بيد علامة الجزائر، وزعيم نهضتها الأستاذ عبد الحميد ابن باديس"[2].**

فكان يوم الافتتاح "عرسا علميا" تجلت فيه الأخوة الإسلامية والنخوة العربية حسب تعبير الإبراهيمي[3]. فكان يوما مشهودا اتضحت فيه تطلعات

---

(1) مجلة الشهاب م 13، ص 151 م 14، ص 177.

(2) نفسه، م 13، ص 342.

(3) آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي، ج2، ص 30- مجلة الشهاب م 13، ص 342.

الأهالي للثقافة الإسلامية والعلم فكان فيه روح التعاون والتكافل في أبلغ صوره، واعتبروه من اسعد أيام تلمسان وأبهجها، جاءته الوفود من مختلف مناطق الوطن، فرحة مستبشرة بهذا الإنجاز الذي لم يعهدوه منذ زمن بعيد[1].

وصل المجلس الإداري لجمعية العلماء بقيادة رئيسها الشيخ الإمام عبد الحميد ابن باديس صبيحة يوم الاثنين 27 سبتمبر 1937، إلى محطة تلمسان للسكك الحديدية، قادما من الجزائر العاصمة وكان في انتظار الوفد الشيخ محمد البشير الإبراهيمي وعلية القوم ووجهاء المدينة ونخبتها، وحشد كبير من أبناء تلمسان والضيوف فاستقبلوا الوفد بالورود والزهور وبالترحيب الحار، تقدم ابن الشيخ الإبراهيمي محمد الطفل، فألقى أمام الإمام عبد الحميد بن باديس كلمة ترحيبية لطيفة، باسم أطفال تلمسان عبر فيها عن شعور أبناء المدينة الطيب والفياض نحو الشيخ الإمام ونحو جمعية العلماء ومجلسها الإداري[2].

خرج الوفد من المحطة راجلا يتقدمهم الشيخ الإمام عبد الحميد ابن باديس بين صفين طويلين متراصين من الجماهير الغفيرة تعد بالآلاف (نحو عشرين ألف) من أبناء تلمسان والضيوف جاءت للترحيب بزعيم النهضة الجزائرية الحديثة وبالعلماء فكان الاستقبال استقبال الزعماء، تأثر ابن باديس له تأثرا عميقا. وكانت الجماهير منظمة تنظيما محكما ومنسقا، وحناجرها تهتف بحياة جمعية العلماء وبرجال العلم، وتكبر وتسبح لله، متحدية بذلك الإدارة الفرنسية وأعوانها، فكانت أصواتهم مؤثرة تصل إلى أعماق الوجدان وكانت النسوة تولولن وتزغردن من وراء الحجاب[3].

ولما وصل الوفد إلى مدرسة "دار الحديث" تقدم الشيخ البشير الإبراهيمي باسم أهل تلمسان وسكانها وباسم الجمعية الدينية التلمسانية بكلمة وجيزة

---

(1) مجلة الشهاب م 13، ص 151.م 14، ص 177.

(2) نفسه.

(3) نفسه، م13، ص 351.

عبر فيها للإمام عبد الحميد بن باديس عن امتنانهم لحضوره ومشاركته في هذا الحفل، واخبره بان التلمسانيين يرغبون في أن يكون فتح المدرسة بيده، ففتحها الشيخ الإمام ابن باديس باسم الله وباسم الإسلام والعروبة والعلم والفضيلة كما جاء على لسانه[1].

دخل الشيخ الإمام والوفد المرافق له المدرسة مبتهجا مسرورا فتفقد الأقسام والطوابق، معجبا، بطراز المدرسة وهندسته، وهو النمط التلمساني الأصيل، الذي أقبره الاحتلال أوكاد يقبره ويطمسه.

تقع المدرسة في مكان مجاور للشيخ الإمام البرادعي، صاحب كتاب التهذيب والإمام القدير الشهير محمد بن أحمد بن صعد التلمساني، وبالقرب من دار الباي، ومجاور للثانوية الفرنسية، فكان موقعها إستراتيجي وهام حافل بالطلاب والزوار[2].

وكانت الجماهير الغفيرة تحيط بالمدرسة وملتفة حولها ورؤوسها مشرئبة، تريد الاستماع إلى كلمة الشيخ الإمام عبد الحميد بن باديس ورؤيته. فأطل عليهم من شرفة المدرسة، وهو فرح مسرور بهذا الصرح العلمي التربوي الديني، ومتأثرا بحفاوة الاستقبال وخاطبهم بكلمة رقيقة بليغة نابعة من القلب، عبر فيها عن اغتباطه بوجوده في تلمسان وبين أهلها قائلا: **"يا أبناء تلمسان ويا أبناء الجزائر، إن العروبة من عهد تبّع، إلى اليوم تحيّيكم، وأن الإسلام من يوم محمد صلى الله عليه وسلم إلى اليوم يحيّيكم، وأن أجيال الجزائر من اليوم، وإلى يوم القيامة، تشكركم وتذكر صنيعكم، يا أبناء تلمسان، كانت عندكم أمانة من تاريخنا المجيد، فأديتموها، فنعم الأمناء أنتم، فجزاكم الله جزاء الأمناء"**[3] وهي كلمة صادقة نابعة من القلب تبين ما يشعر به الإمام نحو تلمسان وأبنائها،

---

(1) نفسه، م13، ص 351.

(2) أحمد طالب الإبراهيمي: مذكرات جزائري، ج1، ص 25-26.

وهي شهادة صريحة واعتراف واضح من الإمام، بما قدمه أهل المدينة للعروبة والإسلام ماضيا وحاضرا.

وكان الإمام يكن معزة خاصة لتلمسان، ومحبة متميزة في وجدانه، وهوى فياض في قلبه، ولهذا كان يزورها في كثير من المناسبات، والتردد عليها، وكان يشعر بانشراح في صدره ونشاط في فكره وغبطة في قلبه أثناء زيارته لها.

ويتضح ذلك من خلال خطاب ألقاه أمام طلاب الزيتونة وعلمائها في تونس سنة 1937م، جاء فيه. "**حقا إن لتونس هوى روحيا بقلبي لا يضارعه ولا يضاهيه، إلا هوى تلمسان، اعرف ذلك من انشراح في الصدر، ونشاط في الفكر، وغبطة في القلب، لا أحد مثلهما إلا في ربوعهما (تونس وتلمسان)، ومن نعم الله علي في العهد القريب أن يسر لي التردد بين الخضراء (تونس) والبهجة (تلمسان) مرتين**"[1].

وبمناسبة افتتاح مدرسة الحديث بتلمسان كما أسلفنا رافق الأستاذ الشيخ محمد خير الدين الإمام الشيخ عبد الحميد بن باديس إلى المنصورة حيث توجد أطلال مسجدها، أين حرر نداءا يدعو فيه سكان قسنطينة خاصة والأمة الجزائرية على وجه العموم مقاطعة الاحتفال الفرنسي بالذكرى المئوية لاحتلال مدينة قسنطينة وعدم المشاركة فيه، والتزامهم به جاء فيه: "**في مثل هذا اليوم منذ قرن مات أجدادكم المجاهدون المدافعون والفرنسيون في ميدان البطولة والشرف، وطويت صفحة من التاريخ على شهادته بالشجاعة والتضحية للغالب والمغلوب. ومضت مائة سنة كانت كافية لنسيان تلك المأساة وضمد تلك الجروح وتقريب السكان المجاورين من بعض، لكن قوما من الأنانيين (الفرنسيين) الذين يأبون إلا أن يكونوا سادة متفوقين وأن يشعروا المسلمين بسلطة الغالبين (المعمرين) على المغلوبين (الجزائريين) هؤلاء القوم أرادوا في هذه الأيام أن يقيموا احتفالات عسكرية بمدخل مدينة قسنطينة تثير العواطف، وتمس كرامة الأحياء مناو الأموات..**".

"يحتفلون ومطالب الشعب الجزائري معرقلة ومعطلة وحقوقه مهملة وسوط القوانين الاستثنائية نازلة على ظهره كل يوم".

ولهذا فقد اجتمعت (14) أربعة عشر جمعية إسلامية من جمعيات قسنطينة يوم 18 سبتمبر 1937م في نادي الاتحاد، وكانت كلها مستنكرة لهذه الاحتفالات عازمة على مقاطعتها، وكما قام المؤتمر الإسلامي باحتجاجه لهذه الاحتفالات وقدم عريضته للوالي العام، وقدم مكتب لجنة قسنطينة إلى رئيس بلدية قسنطينة.

وفعلت نفس الشيء الجمعيات الإسلامية القسنطينية، فقامت بواجبها، "وإني **كقسنطيني أقوم بنشر هذا النداء، فما بقي منكم إلا أن تقوموا أنتم بواجبكم وهو مقاطعة هذه الاحتفالات**" (حرر بالمنصورة حوز تلمسان يوم 1937/09/28)[1].

ولما قرأ الشيخ الإمام النداء على رفقائه بالمنصورة، جعل أحد تلامذته يثبط عزيمته ويحذره مغبة نشره، فغضب الإمام عبد الحميد بن باديس وقال: "**يا أبنائي إنكم تعلمون أني لم اطلب أي شيء لنفسي، ولكني اليوم أطلب لنفسي شيئا واحدا وهو أن تسمحوا لي أن أكون أول ضحية في سبيل الجزائر عندما يحين الوقت للتضحية في سبيلها**" ثم التفت إلى ضيفه ورفيقه الأستاذ إبراهيم الكتاني الذي حضر مؤتمر المعلمين وافتتاح دار الحديث، قادما من المغرب الأقصى، قائلا له: "**هنيئا لكم إنكم تجدون في المغرب السبيل للتضحية في سبيل بلادكم، أما نحن في الجزائر فإننا نحترق على التضحية في سبيلها ولا نجد للتضحية سبيلا**"[2].

وكان اليوم الأول من الاحتفال مخصصا للخطب والدروس بحيث ارتجل الإمام محمد البشير الإبراهيمي خطبة ساحرة، ثم قام الإمام الشيخ عبد الحميد بن باديس بإلقاء درس في الحديث النبوي الشريف.

---

(1) نداء منشور يوم 1937/09/28.

(2) نفسه.

وفي الليل تحدث الشيخ مبارك الميلي والشيخ العربي التبسي في درسين هامين الأول عن الحديث والثاني عن التفسير وختم الجلسة الشاعر محمد العيد آل خليفة بإنشاء قصيدة كلها عيون وغرر[1].

وقد ظل أهل تلمسان على العهد بواكبون، نشاط جمعية العلماء المسلمين وفي غيرها من المدارس والنوادي، ويساهمون في توعية مجتمعهم، بنخبهم وحضور التظاهرات الثقافية التي تديرها جمعية العلماء، في تلمسان وفي الحواضر الجزائرية الأخرى، فقد شاركوا أهل قسنطينة بجوارحهم وبحضورهم بوفد هام يزيد عدده عن أربعين تلمسانيا، في الاحتفال الذي دام أربعة أيام، أقامته جمعية العلماء المسلمين بمدينة قسنطينة سنة 1938م، بمناسبة ختم الشيخ عبد الحميد بن باديس، تفسير القرآن الكريم بمسجد سيدي الأخضر، والذي استغرق فيه نحو "25 سنة" كاملة.

وتقدم الوفد التلمساني يوم التكريم بتقديم هدية عميقة في معناها ثمينة في جوهرها للأستاذ المفسر، وهي عبارة عن محفظة كتب عربية مصنوعة من الجلد الجيد، سُرَّ بها الشيخ الإمام عبد الحميد بن باديس سرورا كبيرا، وصارت هذه المحفظة رفيقة دربه في تجواله وترحاله، ولا تزال المحفظة مع جملة من الآثار المادية والفكرية التي تركها الشيخ الإمام في بيت أخيه عبد الحق بن باديس بقسنطينة إلى اليوم مع مجموعة من الكتب والوثائق، محفوظة في منزله[2].

الخاتمة:

تعد كل من مدينتي قسنطينة وتلمسان، من المدن العريقة في الجزائر عرفتا الاستقرار البشري منذ آلاف السنين قبل الميلاد، خضعت كل منها للاحتلال الروماني والوندالي والبيزنطي ودخلتا دائرة الإسلام مع طلائع أبي المهاجر دينار وعقبة بن نافع.ومنذ ذلك الوقت عرفت كل منهما صلات ثقافية وفكرية، ومثاقفة صوفية خلال العصر الوسيط ساهم فيها علماء من قسنطينة ومن تلمسان. ولاسيما منها البيوتات العريقة في الدين والعلم والتصوف. وكانت الزيارات متبادلة بين العلماء لكلتا المدينتين لأن قسنطينة تعد محطة ومعبرا للطلاب والعلماء والحجاج، وأن تلمسان كانت مشتلة للعلم والتصوف.

فقد حط رحاله بمدينة قسنطينة الشيخ المتحدث أبو محمد عبد العزيز ابن مخلوف التلمساني، فدرس بها علم المعقول والمنقول كما زارها محمد بن أحمد ابن مرزوق الخطيب رفقة والده والسلطان أبي الحسن وأبي عنان عدة مرات، وانتقل إليها العالم محمد المقري والشريف التلمساني الذي عين قاضيا فيها.

وكان رجال التصوف بقسنطينة، على اتصال دائم مع رجال التصوف بتلمسان ولاسيما منهم الشيخ يعقوب وابنه يوسف بن يعقوب الملاري صاحب زاوية ملارة وحفيدهما ابن قنفذ الخطيب، لانتمائهم إلى الطريقة المدنية وتوجد زاوية بمدينة قسنطينة تحمل اسم شيخها مبدي علي التلمساني.

واستمر التواصل بين علماء قسنطينة وعلماء تلمسان حتى في العهد العثماني بحيث كان أبو عبد الله محمد بن باديس يراسل أبا العباس احمد المقري التلمساني في قضايا فكرية ولغوية.

أما في عهد الاحتلال الفرنسي، انتقل العالم القدير عبد القادر المجاوي التلمساني إلى مدينة قسنطينة واستقر بها مدرسا وباعثا لبذور النهضة الفكرية والعلمية والإصلاحية. كان رائد النهضة الإصلاحية والعلمية الإمام عبد

الحميد بن باديس، كثير الزيارة لتلمسان، التي كانت لها مكانة في نفسه ووجدانه، ولاسيما تلك التي دشن فيها "دار الحديث". وكتب منها بداء لأهل قسنطينة خاصة وأهل الجزائر عامة لمقاطعة الاحتفالات بالذكرى المئوية لاحتلال قسنطينة.

ملخص:

تعد كل من مدينتي قسنطينة وتلمسان، من المدن العريقة في الجزائر، دخلها الإسلام مع طلائع أبي المهاجر دينار، ومنذ ذلك الوقت عرفتا صلات ثقافية وفكرية ومثاقفة صوفية لأن المشرب والمنبع واحد، هو الإسلام.ساهم فيها علماء من قسنطينة ومن تلمسان. لعبت البيوتات القسنطينية والتلمسانية دورا مهما في هذه الصلات، ولاسيما منها أسرة لفكون والملاري وابن قنفذ وابن باديس من قسنطينة وأسرة ابن خلوف وابن مرزوق، والمقري والشريف التلمساني من تلمسان في العصر الوسيط.

واستمر التواصل بين علماء المدينتين في العهد العثماني بحيث كان بوعبد الله محمد بن باديس يراسل أبا العباس أحمد المقري التلمساني في قضايا تتعلق بمسائل فكرية ولغوية، وتوجد زاوية بمدينة قسنطينة يحمل اسم شيخها "سيدي علي التلمساني".

وفي عهد الاحتلال الفرنسي انتقل العالم القدير عبد القادر المجاوي التلمساني إلى قسنطينة والاستقرار بها مدرسا وباعثا للنهضة الفكرية والعلمية والإصلاحية. وكان رائد النهضة في الجزائر الإمام عبد الحميد بن باديس كثير الزيارة لأهل تلمسان التي كانت لها مكانة في وجدانه، ولاسيما تلك التي دشن فيها "دار الحديث" وكتب منها نداء لأهل قسنطينة خاصة والجزائر عامة لمقاطعة الاحتفالات بالذكرى المئوية لاحتلال قسنطينة.

Résumé:

Constantine et Tlemcen comptent parmi les villes les plus anciennes d' Algerie. Elles se convertirent à l'islam avec l'arrivée d'Abou muhajir dinar et depuis ce temps là, elles ont entretenu des relations culturelles, intellectuelles et mystiques puisées à la source de l'islam et auxquelles ont contribué au moyen age, des hommes de science de ces deux villes tel que el fgoun, el malary, ibn gounfoud, ibn badis, ibn khelouf, ibn marzoug, el mekri, cherif telemceni.

A l'époque ottomane, ces relations entre les hommes de science des deux villes se sont perpétuées ainsi bouabdellah mohamed ben badis et ahmed el mekri Tlemcen entretenaient une correspondance autour de questions intellectuelles et linguistiques. Comme il existe jusqu'à ce jour dans la ville de Constantine une zaouia qui porte le nom de (sidi ali Tlemceni).

Pendant l'occupation française, de grand érudit abdelkader el majaoui Tlemcen est venu à Constantine ou il s'est installé comme enseignant et animateur de la renaissance spirituelle, scientifique et rejourniste.

Le leader de la renaissance islamique en Algerie, l'imam abdelhamid Ben badis rendait souvent visite aux gens de Tlemcen et avait beaucoup d'affection pour cette ville où il inaugura (dar el hadith) et d'où il rédigea un appel aux constantinois en particulier et aux algériens en général afin de boycotter la célébration du centenaire de la prise de Constantine .

Summary:

Both of constantine and telemcen are ancient cities in Algeria.They converted to islam by the coming of the first arabs, like abou el mouhajir dinar. Since that time, intellectual and cultural exchange has been establishbed through the contribution of scientists and families like, lefgou, ibn gounfoud, ibn badis, ibn khalouf, ibn merzoug, el mekari and cherif tlemceni, in the middle ages.

During the ottoman empire the communication beteween scientists of the two cities had continued, so bouabdallah ben badis corresponded with abou abbas ahmed elmekri telemceni on many subjects which concerned intellectual

and linguistic questions, until now, there is a corner in constantine named (sidi ali tlemceni). at the french occupation period, the scientist, abdelkader elmojaoui telemceni has moved to constantine to settle there and became a teacher.from his contribution with abdelhamid ben badis this period witnessed the birth of intellectual and scientific renaissance.Because his respect and feeling toward the tlemceni people, ben badis was visiting tlemcen without interruption, especially when he inaugurated (dar elhadith) and from there he addressed a call on to algerian people demanding them to boycolt the french of the centenary of constantine.

المصادر والمراجع

* ابن خلدون عبد الرحمان: **المقدمة**، تحقيق حجر عاصي منشورات كلية الهلال، مطبعة المعارف بيروت 1991.

* ابن قنفذ القسنطيني: **الفارسية في مبادئ الدولة الحفصية**، تقديم محمد الشاذلي النيفر وعبد المجيد التركي، دار التونسية للنشر تونس 1986.

* ابن قنفذ القسنطيني: **الوفيات**، تحقيق عادل نويهض الكتاب التجاري بيروت 1971.

* ابن قنفذ القسنطيني: **أنس الفقير وأعز الحقير**، نشره وصححه محمد الفاسي وادولف فور، منشورات المركز الجامعي الرباط 1965.

* ابن عبد الحكم: **فتوح إفريقية والأندلس**، دار الكتاب اللبناني بيروت 1964.

* ابن مرزوق الخطيب: **المجموع** مخطوط الخزانة العامة بالرباط تحت رقم 20.

* التنبكتي أبو العباس أحمد بابا: **نيل الابتهاج بتطريز الديباج**، تحقيق على عمر مكتبة الثقافة الدينية القاهرة 2004.

* السخاوي شمس الدين: **التحفة اللطيفة في تاريخ المدينة الشريفة**، تحقيق اسعد طرابزوني، مطبعة دار الثقافة القاهرة 1979.

* لفكون عبد الكريم: **منشور الهداية في كشف حال من ادعى العلم والولاية**، تحقيق أبو القاسم سعد الله، دار الغرب الإسلامي بيروت 1987.

* أبو العباس: **دعامة اليقين في زعامة المتقين**، تحقيق أحمد التوفيق مطبعة المعرف الرباط 1980.

* الغبريني أبو العباس: **عنوان الدراية فيمن عرف من العلماء في المائة السابعة ببجاية**، تحقيق رابح بونار الشركة الوطنية للطباعة والنشر الجزائر 1981.

* الإبراهيمي أحمد طالب: **مذكرات جزائري**، دار القصبة للنشر الجزائر 2007.

* آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي، جمع وتقديم أحمد طالب الإبراهيمي، دار الغرب الإسلامي بيروت 1997.

* بونابي الطاهر: الحركة الصوفية في المغرب الأوسط خلال القرنين 8 و9 هـ/ 14-15م، دكتوراه بإشراف الدكتور عبد العزيز فيلالي كلية العلوم الإنسانية جامعة الجزائر 2008.

* الحفناوي أبو القاسم: تعريف الخلف برجال السلف، مؤسسة الرسالة تونس 1985.

* دحدوح عبد القادر: مدينة قسنطينة، محطات ومعالم تاريخية بقسنطينة قسنطينة 2010.

* العامري نللي سلامة: الولاية والمجتمع تقديم الدكتور هشام جعيط، جامعة منوبة تونس 2001.

* فيلالي عبد العزيز: مدينة قسنطينة تاريخ - معالم - حضارة، دار الهدى عين مليلة 2007.

* فيلالي عبد العزيز: تلمسان في العهد الزياني، موفم للنشر والتوزيع الجزائر 2002.

* فيلالي عبد العزيز: دراسات في تاريخ الجزائر والغرب الإسلامي، دار الهدى عين مليلة 2012.

* عويمر مولود: الشيخ المجاوي أستاذ الجماعة، مجلة الوعي عدد 3-4 أفريل ماي الجزائر 2011.

* مجلة الشهاب المجلدان 13 و14.

* نداء الإمام عبد الحميد بن باديس لسكان قسنطينة منشور يوم 1937/09/28.

الحياة الفكرية بتلمسان في العهد الموحدي:

حرص أهل تلمسان وعلماؤها على تمتين العلاقة مع أهل المغرب خاصة والمشرق والأندلس على وجه العموم، حيث تضاعف الاتصال، عن طريق النشاط الدبلوماسي وتبادل الرسائل الديوانية والإخوانية، وعن طريق الرحلة في طلب العلم التي أصبحت عادة محمودة عند التلمسانيين، وعن طريق الحج أيضا إلى البقاع المقدسة والتجارة، فأتيحت الفرصة للعلماء أن تتلاقح أفكارهم، وأن تتدعم الروابط الثقافية، والعلمية بينهم وبين نظرائهم في حواضر المشرق والمغرب والأندلس.

فاتخذت بذلك الثقافة في تلمسان برافدين هامين، رافد المشرق ورافد الأندلس، فضلا عن الجهاز العلمي المحلي، نتج عن ظهور عدة تيارات فكرية بالعاصمة الزيانية.

حملت الدعوة الموحدية في طياتها، بذور نهضة إصلاحية دينية ومذهبية، في ربوع المغرب الإسلامي، أرسى قواعدها الموحدون وثبتوا دعائمها بتشجيعهم، للبحث والدرس والتحصيل في مجال العلوم النقلية والعقلية، ودراسة المسائل الفقهية والعقدية، وفرضوا مبادئهم التوحيدية على أهل المغرب بالترغيب حينا وبالترهيب أحيانا[1]،

---

[1] البيدق: أخبار المهدي بن تومرت وابتداء دولة الموحدين، نشره بروفنسال 1928، ص 79 أزهق محمد البشير قائد معركة مراكش نحو 27 ألف نفس من الموحدين قبل خوض المعركة. وأطاح عبد المؤمن بن علي خليفة ابن تومرت، برؤوس ما يزيد عن 33 ألف نفس من المشكوك في إخلاصهم للدعوة الموحدية المهدوية، انظر ابن خلكان وفيات الأعيان، جـ 4، ص 143 عبد الله علي علام: الدعوة الموحدية بالمغرب، ص 222 ، محمود إسماعيل، فكرة التاريخ، ص 73.

وتحويلهم عن المذهب المالكي وعلم الفروع التي كانت سائدة في عهد المرابطين، وأمروا بالاجتهاد والعودة إلى الأصول، من كتاب وسنة ونبذ الفروع[1]، فأراد الموحدون بذلك كسر الحصار الذي ضربه المرابطون وفقهاؤهم على الفكر المغربي فترة من الزمن، وتصدوا لعلماء المالكية السلفية، ووصفوهم بالتقليد والجمود والجهل والطغيان والتجسيم والكفر[2].

بذل الموحدون جهودا كبيرة في سبيل توحيد بلاد المغرب والأندلس سياسيا وعقديا، بنشر دعوتهم في المدن والقرى والبوادي، وبين مختلف طبقات المجتمع المغربي وفئاته، مستندين إلى القرآن الكريم والسنة النبوية، ودعوتها الناس إلى التفكير المنطقي والاستدلال العقلي[3]، فأدى هذا الأسلوب الجديد إلى جدل كبير، بين فقهاء المالكية الممثلين للتيار السلفي، وبين غيرهم من أتباع الموحدين وأنصارهم، الذين يفضلون مذهب الأشاعرة، في مسائل عديدة، خاصة فيما يتعلق باستخدام الحجج العقلية والتأويل والمنطق، الذي يتفق مع التفسير التقليدي السائد عند

---

(1) عبد الواحد المراكشي: المعجب، ص 279، ابن مرزوق: المسند، ص 60 حمل الخليفة المنصور على علماء المالكية، حملة شديدة، وأمر بإحراق كتب المذهب بعد أخذ ما فيها من حديث شريف وقرآن كريم، كما قام بإحراق أعظم الكتب المالكية منها المدونة وكتاب ابن يونس ونوادر أبي زيد مختصرة، وكتاب التهذيب للبرادعي، وكان يؤتي بالإحمال منها، فتوضع وتضرم فيها النار: انظر عبد الواحد المراكشي: المعجب، ص 279 - ابن تومرت أعز ما يطلب، ص 245.

(2) عبد الواحد المراكشي: المصدر السابق، ص 279 - عبد الله علي علام: الدولة الموحدية بالمغرب، دار المعارف بمصر، ص 62.

(3) ابن أبي زرع: روض القرطاس، ص 122-124 يعلي صالح أحمد وآخرون تاريخ الحضارة العربية الاسلامية، ص 176.

الفقهاء المرابطين المحافظين[1]، الذين يقولون برأي مالك والسلف، والاعتقاد بظاهر النصوص والصفات[2].

قام الموحدون بتدريس تآليف الأشاعرة، في حلقات الدرس والتحصيل بين الطلاب، وترويج كتب الإمام الجويني (ت 478هـ/ 1085) ونشر أفكاره، كذلك سمحوا بتدريس مصنفات حجة الإسلام الغزالي (505هـ/ 1111م)، التي كانت محظورة في عهد أسلافهم المرابطين[3].

فقد تضمنت عقيدة الموحدين آراء اقتبسوها من بعض المذاهب التي سادت بلاد المغرب والمشرق والأندلس، ولاسيما منها مذهب المعتزلة والسنة والأشاعرة ومذهب ابن حزم الظاهري[4]، وتبنوا نظريات الشيعة

---

(1) ابن خلدون العبر، ج 6، ص 226، فرض ابن تومرت عقائد المطلق على الخواص والعوام، من المجتمع المغربي، مناهج التأويل، الذي يتعارض مع التفسير الحرفي التقليدي في أمور التوحيد، وضرورة استخدام المنطق والبرهان، دون أن يراعوا مدارك العامة، التي كانت عاجزة عن فهم هذا الإصلاح، لأن العقائد التقليدية ظلت راسخة في عقول المغاربة وقلوبهم، وأن التصورات الجديدة لا تتلاءم مع ميولهم وأذواقهم ومداركهم، انظر الشهر ستاني: الملل والنحل القاهرة 1317 هـ، ج 1، ص 118/119 الفريديل: المرجع السابق، ص 284-287 .

(2) تدور عقيدة الموحدين حول محورين متعارضين: الأول: دعا الموحدون باستخدام العقل وأعماله لكسر الجمود المرابطي، وإخراج الناس من الجهل الذي ضرب عليهم أيام دولة المرابطين. الثاني: تشبث الموحدون بمزيج من النظريات السنية والشيعية التي تتناق واستخدام العقل كالمهدية والعصمة وغيرها: انظر حسن جلاب: الدولة الموحدية أثر العقيدة في الأدب منشورات الجامعة (ط2) الدار البيضاء، مارس 1985، ص 26.

(3) عبد الكريم الفكون: منشور الهداية، تحقيق أبو القاسم سعد الله، دار الغرب الإسلامي بيروت (1989، ص 41).

(4) تمرد الخليفة إدريس بن يعقوب المنصور الموحدي (624-630هـ/ 1227-1232) على المهدوية والعصمة والإمامة التومرتية وضجر منها، واعتبرها من المبادئ الدخيلة على المسلمين من اليهود والنصارى، وأخذ بالمذهب الظاهري، وبالتالي خرج عن خط أسلافه، بظاهر القرآن والحديث إلا عند ضرورة التأويل، الذي تقره قواعد اللغة العربية وضرورات البلاغة، ويرفضون الإجماع إلا إذا كان من جميع علماء الأمة ،ويرفضون التقليد والقياس، انظر: عبد الواحد المراكشي: المعجب، ص 291-292 عبد الله علي علام: المرجع السابق، ص 307، عمر فروخ: المرجع السابق، ص 172-176.

في الإمامة[1] والمهدوية[2] والعصمة[3] فكان مذهبهم مذهبا عقديا مبتكرا، مستمدا أصوله من المذاهب الآنفة الذكر.

وقد حاول الموحدون الضغط على فقهاء تلمسان، كغيرهم من فقهاء المغرب وإرغامهم على اعتناق أفكارهم الجديدة، والتخلي عن المذهب المالكي، لكن هذه الوسائل لم تزد فقهاء تلمسان خاصة، منهم سلفية الإمام مالك إلا عنادا وتصلبا في الموقف[4]، بالرغم مما أصابهم من محن وأذى، وفي هذا الشأن يقول عبد الله كنون "والذي نريد أن نسجله هنا هو أن المذهب المالكي، لم ينهزم مطلقا أمام الدعوة إلى الاجتهاد، التي كان الموحدون يتزعمونها، ولا أمام المذهب الظاهري، الذي عرف نشاطا كبيرا في هذا العصر"[5].

فقد أظهر فقهاء المالكية مقاومة شديدة، ونوايا عدائية للموحدين وخير دليل على ذلك، حركة القاضي عياض ضد عبد المؤمن بن علي[6]، ونتيجة لهذا الصراع الفكري، انتعشت الحركة الفكرية، ثم نضجت وانتشرت في الحواضر المغربية والأندلسية، وازدهرت العلوم الدينية ازدهارا كبيرا، وكثر المشتغلون

---

(1) تعرف الإمامة، بأنها ركن من أركان الدين وفي هذا الصدد يقول ابن تومرت وهي ركن من أركان الدين وعمدة من عمد الشريعة، ولا يصح قيام الحق في الدنيا إلا بها، انظر ابن تومرت أعز ما يطلب تقديم عمار طالبي، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر 1985، ص 229.

(2) أما عن المهدوية فيقول: "أن الباطل لا يعرفه إلا المهدي، وأن الحق لا يقوم به إلا المهدي، وأن الإيمان بالمهدي واجب، وأن من شك فيه فهو كافر، انظر ابن تومرت: أعز ما يطلب، ص 234.

(3) وعن العصمة يقول: أن المهدي يجب أن يكون معصوما من الكبائر والصغائر، وأن يكون معصوما من الكذب والباطل والجور والجهل: انظر أعز ما يطلب، ص 229-230 - ابن خلدون المقدمة، ص 348 عبد الله علي علام: المرجع السابق، ص 292-294.

وظهرت طائفة تكفر كل من لم يتبع المهدي بن تومرت ولم يؤمن به ويفضلونه على أبي بكر الصديق وعمر بن الخطاب رضي الله عنهما، ويقول أصحابها بأنه من لم يقم بتعلم إثني عشر بابا من التوحيد فهو كافر، ومن حلق تحت اللحية فهو مجوسي، انظر الونشريسي: المعيار، ج2، ص 453.

(4) عبد الواحد المراكشي: المصدر السابق، ص 291.

(5) النبوغ المغربي، ص 122-123 - ابن شقرون: المرجع السابق، ص 35.

(6) عبد الواحد المراكشي: المصدر السابق، ص 291-292.

بها، لأنها توفر الوظائف الرفيعة في الدولة[1]، فضلا عن المكانة الاجتماعية التي يحظى بها الفقيه، عند السلاطين وعند مختلف فئات المجتمع، فتقدمت دراسة الفقه تقدما ملحوظا، ونبغ في هذه العلوم عدد كبير من أهل تلمسان تركوا لنا مؤلفات، ومصنفات، ومجاميع، ومختصرات، وبرامج عديدة[2].

التيارات الفكرية في تلمسان الزيانية:

لما ظهر بنو زيان بتلمسان، دعوا للحركة الفكرية، التي تركها الموحدون، وساروا على دربهم في بداية الأمر، ثم أخذوا يتميزون عنهم بسياسة ثقافية، تتعلق بالمسائل المذهبية والعقيدة، وأظهروا مرونة كبيرة تجاه فقهاء المالكية وعلم الفروع[3].

فأمروا بتدريس كتب المذهب المالكي، إلى جانب العلم النظري للأصول (القرآن والسنة)، وكتب التوحيد لابن تومرت (ت 524هـ/ 1230م) في بداية عهدهم، وأصبحت بذلك المدرسة الرسمية والمساجد والزوايا بمدينة تلمسان، تعطي المكانة الأولى، لتدريس الفقه طبقا للمذهب المالكي[4]، واستجابة لمطالب الفقهاء ونضالهم الطويل في عهد الموحدين، وهي المرحلة المعروفة بمرحلة الانتقال ما بين مبادئ الموحدين في التوحيد والعقيدة، وبين العودة إلى المذهب المالكي، الذي يعتبر مذهب الأغلبية في المدينة.

فبعد أن كانت الدولة في نظر الفقهاء والرعية، تقاوم هذا المذهب أصبحت تحتضنه، وتؤيد فقهاءه، وتحثهم على تدريس كتاب "الموطأ" للإمام مالك (ت 179هـ/ 745م) والمدونة للإمام سحنون (ت 240هـ/ 854م) فكان لهذا الموقف

---

(1) عبد الحميد حاجيات: الحياة الفكرية بالجزائر عهد بني زيان ضمن كتاب الجزائر في التاريخ، ص 739.

(2) ابن الأعرج: زبدة التاريخ، ج3 ورقة 99-100، عبد الله كنون: المرجع السابق، ج1، ص 189 – محمد الجزائري، المرجع السابق، ص 341.

(3) الفريديل: المرجع السابق، ص 300.

(4) نفسه، ص 306-307.

الرسمي، أثره البالغ في نهضة الفقه المالكي بتلمسان[1]، وبالتالي أخذ الناس في هذه المدينة كغيرهم من المغاربة يتخلون تدريجيا عن الأفكار الموحدية في المذهب والمعتقدات، وقضى بذلك بنو زيان على خرافة العصمة والمهدوية والإمامية، ونقحت في عهودهم العقيدة الأشعرية مما شابها من أفكار مقتبسة من المعتزلة والشيعة[2].

وأصبح بذلك المذهب المالكي، هو المذهب الرسمي في المغرب الأوسط، منذ النصف الأول من القرن السابع الهجري، الثالث عشر الميلادي[3]، فصادف هذا الإجراء والتحويل ارتياحا كبيرا لدى فقهاء تلمسان خاصة، وفي أواسط المالكية المغربية عامة.وتغنى بذلك الشعراء، فقال مالك بن المرحل[4] في هذه المناسبة: (الرمل).

مذهبي تقبل خذ مذهب ... سيدي ماذا ترى من مذهبي؟

لا تخالف مالكا في رأيه ... فيه يأخذ أهل المغرب[5]

وقال أيضا: (الطويل):

وما أنا إلا عالم كل عالم ... ففي الشعر حسان وفي الفقه مالك[6]

---

(1) محمد المنوني: ورقات، ص 195.

(2) محمد المنوني: التيارات الفكرية في المغرب المريني، مجلة الثقافة المغربية عدد5، ص 126-131.

(3) محمد القابلي: حول المجتمع والثقافة بالمغرب الوسيط، ص 69.الفريديل: المرجع السابق، ص 312.

(4) ولد الشاعر مالك بن المرحل سنة 604هـ/ 1207م بمدينة مالقة، ونزل بمدينة سبتة وهو صغير السن، برز في ميدان الأدب على العموم، بشعره ونثره، كانت له أشعار كثيرة في أغراض مختلفة، كما كانت له عداوة وخصومات مع ابن رشيق، ساكن سبتة حينذاك فهجاه بقوله:

لكلاب سبتة في النباح مدارك وأشدها عند النهار بين مالك:

شيخ تفانى في البطالة عمره ... وأجل يحكيه الكلام الآفك

أحلى شعائله السباب المقري ... وأف سيرته الهجاء الماحك

انظر المقري: نفح الطيب، ج5، ص 245 – ابن شقرون: المرجع السابق من 61/60.

(5) ابن الخطيب سحر الشعر، مخطوط بالخزانة العامة رقم 9/ 1295 ورقة 1/67.

(6) السيوطي المحاضرات والمحاورات مخطوط بالخزانة الملكية الرباط رقم 3755 ورقة 30.

وأعاد بالتالي بنوزيان، للمجتمع التلمساني خاصة، ولأهل المغرب الأوسط عامة، مذهبهم الرسمي، وعملوا على تدعيمه وتوطيده، فلم يجدوا صعوبة في ذلك لأن التلمسانيين، كانوا قد اختاروا هذا المذهب منذ زمن بعيد، قبل ظهور المرابطين، وإقامة دولتهم، فانسجموا مع مقتضياته، وتكيفوا مع متطلباته، لأسباب اجتماعية وطبائع أهل المغرب في حب البساطة، وعدم التعقيد من جهة، ولطبيعة المذهب في حد ذاته من جهة ثانية، فأصبح مذهب الأغلبية بدون منازع.

والظاهر أن المذاهب الأخرى، لم تكن لها صدى في أوساط المجتمع التلمساني، ولاسيما المذهب الشيعي، ويؤكد ذلك العلامة ابن خلدون بأنه عندما أراد القائد إبراهيم الأبلي، والد العامل محمد الأبلي التوجه إلى البقاع المقدسة لأداء فريضة الحج والهروب من خدمة بني مرين، اختفى فترة من الزمن بالعباد رفقة الفقراء (المتصرفة) فوجد بعض الشيعة قدموا من كربلاء يريدون نشر مذهبهم في هذه الربوع، وفي هذا الصدد يقول: "خرج قاصدا الحج وانتهى إلى رباط العباد مختفيا، في صحبة الفقراء، فوجد هناك رئيسا من أهل كربلاء من بني الحسيني جاء إلى المغرب يروم إقامة دعوتهم فيه"[1].

تيار الاجتهاد بتلمسان:

برز بعض الفقهاء بمدينة تلمسان، درسوا في مدارس عديدة وتتلمذوا على كبار شيوخ الحواضر المغربية، والأندلسية والمشرقية، حتى صاروا أئمة زمانهم، استخدموا نهج الاجتهاد[2] في مسائل فقهية، وهي المواضيع التي تكون غير

---

(1) التعريف بابن خلدون، ص 33-35.

(2) حدد لنا أبو عبد الله محمد الشريف التلمساني، درجة الاجتهاد في عهده وصنف المجتهدون إلى صنفين اثنين بقوله: "تعلمون أن المجتهدين صنفان: الأول مجتهد بإطلاق والمطلع على قواعد الشريعة المحيط بمداركها، العرف بوجوه النظر فيها فإذا عنت له نازلة أو سئل عن مسألة، حث عن مأخذ الحكم فيها، فنظر في سنده وفي وجه سنده دلالته، على الحكم المطلوب، ثم نظر في معارض السند وفي وجه دلالته على الحكم المطلوب وتقييده المطلق وتأويل الظاهر، ثم =

واضحة أو المسائل المختلف فيها، والتي لم تكن مفصلة في كتب الفروض[1]، فيعودون إلى الأصول ويشرحونها شرحا يتناسب مع تشريع المذهب ويتطابق معه، ثم يقيسون ويرجحون، خلافا لما كان في عهد فقهاء الدولة المرابطية، التقليديين، الذين كانوا يعتمدون على اجتهاد السابقين، دون الرجوع إلى الأصول والبحث فيه[2].

وعلى الرغم مما أنجبته مدينة تلمسان في العهد الزياني، من أئمة أعلام كثيرين في الفقه، فإنهم لم يصلوا إلى درجة الاجتهاد المطلق، التي وصل إليها الأئمة الأربعة المشهورون، وإنما يمكن تصنيفهم ضمن المجتهدين، في إطار المذهب المالكي، لا يخرجون عن مبادئه، إلا بما يوافق مضامينه[3].

عينات من المجتهدين:

وقد مثل هذا الاتجاه العديد من الفقهاء بتلمسان كالعالمين الفقيهين الكبيرين الأخوين ابني الإمام، أبي زيد عبد الرحمان (ت 1343/743) وأبي موسى عيسى (ت 750هـ/ 1349) اللذين عملا على تنقيح بعض مسائل الفقه، من خلال الأصول، وتوضيح ما جاء غامضا فيه دون تعصب إلى المذهب

= الترجيح، بعد الإحاطة بوجوه الترجيح في السند والمتن والدلالة وموافقة أصول الشريعة. الثاني: يجتهد صاحبه في مذهب معين وهو الذي يكون مطلعا على قواعد إمام مذهبه ويحيط بأصوله التي يستند إليها ويعتمد عليها، عارفا بوجوه النظر وبها يكون كالمجتهد المطلق بقواعد الشريعة كابن القاسم وأشهب في مذهب مالك، والمزني وابن شريح في المذهب الشافعي، وأبي يوسف في مذهب أبي حنيفة، ومما يوضح لك الفرق بين الصنفين أن الشافعي وابن القاسم وأشهب فرزوا جميعا على مالك وانتفعوا به أتم الانتفاع، أما الشافعي فترقى لدرجة الاجتهاد المطلق، فإذا سئل عن مسألة نظر فيها نظرا مطلقا وذهب إلى ما أداه إليه اجتهاده، وأما ابن القاسم فإذا سئل عن مسألة سمعت مالكا يقول فيها كذا...فإذا لم يكن قد سمع منه شيئا قال لم أسمع منه ولكن بلغني كذا...وقال لي في المسألة الفلانية كذا ومسألة هذه مثلها فهذه رتبة الاجتهاد المذهبي، انظر أحمد بابا التنبكتي كفاية المحتاج، ج2، ص 339 - ابن مريم: البستان، ص 179.

(1) الفريدبيل: المرجع السابق، ص 354.

(2) نفسه، ص 354.

(3) أحمد بابا التنبكتي، كفاية المحتاج

بالرجوع إلى أعلى الأسانيد والأصول، وقد ناظرا شيخ الإسلام رائد السلفية، الذي عاصرهما وهو تقي الدين أحمد بن تيمية (728هـ/ 1328)، وتفوقا عليه في بعض المسائل، فأحدثا له مضايقات، فكان ذلك من أسباب محنته[1] فأنشد لنفسه قائلا: (البسيط).

محصل في أصول الدين حاصله ... من بعد تحصيله علم بلا دين

أصل الضلالة الإفك المبين فما ... في فأكثره وحي الشياطين[2]

وقال عنهما جلال الدين القزويني بمثلهما يفخر المغرب[3]، فكان لهما صيت ببلاد المشرق والمغرب[4].

ونحا منحاهما الإمام، أبو عبد الله محمد المقري التلمساني (ت 759هـ/ 1357)، الذي يعد من أبرز العلماء، الذين أنجبتهم المدرسة المالكية في تلمسان والمغرب، خلال القرن الثامن الهجري الرابع عشر الميلادي، له تصانيف عديدة في الفقه والتصوف[5]، قارن بين فروع المذاهب الأربعة، وناقش من سبقه في مقاصد الشريعة الإسلامية، وقواعدها الفقهية وفروق أحكامها[6]، وربط الفروع بقواعدها الشرعية، وعلى بيان ما نشأ من الخلاف المذهبي، في أصل هذه القواعد، وقد اعترض على بعض آراء شهاب الدين القرافي[7]، فابتكر بذلك طريقة جديدة في خدمة الفقه، وهي خلاصة عمله

---

(1) أحمد بابا التنبكتي: نيل الابتهاج، ص 166 – المقري: نفح الطيب، ج5، ص 216.

(2) المقري: المصدر السابق، ج5، ص 216.

(3) نفسه، ج5، ص 216.

(4) نفسه، ج5، ص 207.

(5) المقري، نفح الطيب، ج5، ص 284-285، وقد لاحظ أحمد بأن هذا الكتاب في عصره كان مفقودا بمكتبات المشرق وخزانته، ولم ير منه إلا نسخة واحدة بمصر.

(6) أحمد بن حميدة: القواعد للمقري أبي عبد الله محمد، أطروحة دكتوراه دولة مرقونة جامعة أم القرى، ونوقشت سنة 1404هـ/ 1983، ص 80/84. انظر أيضا مقدمة كتاب القواعد الفقهية مخطوط بدار المكتبة الوطنية بتونس رقم 14682.

(7) أبو الأجفان: المرجع السابق، ص 103.

النقدي لأقوال الفقهاء ونظرائهم، إلى بعض المسائل فكانت له مواقف اجتهادية عديدة وآراء خاصة في حدود المذهب المالكي، صحح فيه الكثير من أقوال الفقهاء[1]، وكانت له مشاركة في الجدل والمنطق[2]، ووصفه الشريف التلمساني بقوله: "قد جاز بذهنه الثاقب الراجح في تحقيق الدلائل الصعبة، وجاز برأيه الصائب الناجح في تحصيل المسائل موردا عذبا حتى صار يفصل في مضيق المناظرات، بين أربابها، ويلي كشف حجابها"[3].

فقد أصبحت المدرسة الأشعرية منهجا، لأتباع المذهب المالكي الذين صارت لهم مرونة من غير تسامح، تجاه المذاهب الأخرى، فاكتسبوا بذلك أدوات الجدل، والمساجلات والمناظرات، للدفاع عن موقفهم ومذهبهم، خاصة في مواجهة خصومهم، ولاسيما المتصرفة الباطنية، ومحاربة البدع بجميع أنواعها[4].

ولعل تفضيلهم لمذهب مالك يعود إلى ما يحتويه من آراء وأفكار ونصوص أصلية من الكتاب والسنة من جهة، ولإعادة الاعتبار للفقهاء المالكية الذين تعرضوا إلى المحن في العهد الموحدي من جهة ثانية، وللتوافق القائم بينه وبين عقليتهم ومزاجهم، لاعتماد المذهب على النص والتثبت في النقل، والابتعاد عن المبالغة في استعمال الفلسفة والمنطق والقياس[5].

وكذلك فضل أهل المغرب المذهب المالكي، لأن سلوك المالكيين من القضاة والفقهاء بين الجماهير، كان سلوكا، يكاد يكون مثاليا، سواء فيما يتعلق

---

(1) ابن عاشور: إعلام الفكر الإسلامي في تاريخ المغرب العربي مكتبة النجاح تونس، ص 84.

(2) المقري: نفح الطيب، ج5، ص 208.

(3) انظر الشريف التلمساني: مفتاح الوصول إلى بناء الفروع على الأصول،تحقيق عبد الوهاب عبد اللطيف مكتبة الخانجي مصر 1962، ص3 وما بعدها.

(4) مشاهدي الحسن: الرحلة في العصر المريني: د.د.ع كلية الآداب جامعة الرباط 1985، ص 15.

(5) نفسه، ص 17-18.

بعلاقتهم بالله أو بالأمراء والسلاطين، أو بالناس جميعا، فعلاقتهم بالله تمثلت في التقوى والورع وحسن السيرة، واجتناب مغريات الدنيا وزخرف الحياة[1].

أما صلتهم بالسلاطين والأمراء، فلم تكن قائمة على التودد والتملق لهم، واسترضائهم أو التمسح بأطرافهم، وطلب رضاهم، بل كان أغلبهم لا يتسامح معهم في الرأي والفتوى ولا يطوعون الدين لرغباتهم، ولا يخشون في الله لومة لائم، وأما علاقتهم بالناس فكانت قائمة على التواضع، غير مترفعين على العامة، مهتمين بهم يبحثون معهم عن الحلول العلمية لقضاياهم الفقهية، ويتوسطون بينهم وبين الحاكم للتخفيف عنهم والدفاع عن حقوقهم[2].

وهكذا نرى بأن المذهب المالكي، قد تطور نحو المرونة والانتشار، ولم يعد أصحابه متصلبين جامدين، لأنهم استفادوا من المحنة الطويلة، التي تعرضوا لها خلال القرون السالفة، فطرحوا قضايا مذهبهم وأفكارهم من خلال مقاييس جديدة، تحاول التوفيق بين النظرية الشرعية وبين الواقع وتطوره[3].

ويبدو أن نزعة الاجتهاد، خلال القرنين الثامن والتاسع الهجري، الرابع والخامس عشر الميلاديين، بمدينة تلمسان، كغيرها من حواضر المغرب الأوسط لم تتعد نطاق المذهب المالكي للاعتبارات السالفة الذكر،

---

(1) ابن فرحون الديباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب، تحقيق محمد الأحمدي أبو النور، دار التراث للطبع والنشر القاهرة 1976 المقدمة، ص 1 ب.

(2) نفسه، ص ب – ج.

(3) خرج المذهب المالكي في بلاد المغرب منتصرا، بعد صراع دام أكثر من ثلاثة قرون من الزمن مع الحنفية ومع المعتزلة ضد الشيعة ثم في عهد الموحدين الذين ناصبوه العداء، فاكتسب أصحابه مرونة في هذه الفترة في بنيته وذهنيته، وهو الأمر الذي جعل بعض الفقهاء المغاربة يتقبلون مضامين العقيدة الأشعرية التي أتى بها جماعة من الأشاعرة من بلاد المشرق إلى بلاد المغرب خلال القرن الرابع الهجري العاشر الميلادي، انظر عبد الرحمان الجيلالي: تاريخ الجزائر العام، ج2، ص 86- مشاهدي الحسني: المرجع السابق، ص 18.

وتخضع لأفكاره ومقاييسه، ولم يكن من السهل على الفقهاء بلوغ درجة الاجتهاد المطلق والتحرر من أصول المذهب وفروعه، ولعل هناك من تصدى لهذه النزعة وعارضها، ووقف ضد أصحاب استعمال الرأي، وفي هذا الصدد يقول ابن خلدون: "ومدعي الاجتهاد لهذا العهد مردود على عقبه مهجور تقليده"[1].

وقد ظل بعض الفقهاء المحافظين على الفروع يعتمدون على النقل الحرفي لآراء السابقين، وهم الذين انتقدهم المقري الجد بقوله: "ولا يجوز التعصب إلى المذهب بالانتصاب للانتصار"[2].

وندد بالتقليد والتعصب، وتصدى لبعض المواقف التقليدية المتزمتة، التي سادت في عصره، وهي ظاهرة الجنوح إلى الأقوال المنقولة، والتقوى بما أفتى به السابقون الأولون، وفي ذلك يقول: "اعلم أن التقليد هو المعصية التي هي كالطبع لهذا النوع، لأنه غلب عليه حب الخيال والوهم، وقلّ فيه طاعة العقل والفهم"[3].

وقد انتقد كل من إبراهيم الآبلي العبدري التلمساني (ق8)، والإمام أبي عبد الله المقري (ق8)، كثرة التأليف المختصرة، في عهدهما، وكذلك الاتجاه السائد في بناء المدارس، لأنهما يريان بأن هذه الظاهرة، يمكنها أن تفسد التعليم، وتؤثر على التحصيل، والجدير بالذكر أن ظاهرة انتشار المختصرات والمواجيز ظهرت في بلاد المشرق والمغرب، وتميز القرن الثامن الهجري الرابع عشر الميلادي، بكثرة المؤلفات في الفقهيات وغيرها، والتزم الفقهاء

---

(1) المقدمة، ص 803.

(2) أحمد بابا التنبكتي: نيل الابتهاج، ص 247، انظر الونشريسي المعيار، ج2 من 482-483، وقد قام الفقيه ابن مرزوق الحفيد: بتأليف كتاب استهل فيه التعريف بالإمام المقري سماه البدري في التعريف بالفقيه المقري، بناءا على منهجه ومذهبه، انظر المقري: نفح الطيب، ج5، ص 204.

(3) الونشريسي: المعيار، ج2 من 483 – أبو الأجفان: المرجع السابق، ص 147.

بالاختصار وتوسعوا في تصانيف المتون والحواشي والمختصرات، التي يحفظها الطالب عن ظهر قلب، من الإيجاز ما يخل بالمعاني ويزيدها غموضا[1].

واستنكر الإمام المقري كثرة النقل من الكتب المختصرة، لمؤلفين غير معروفين، ونقل الفتاوي من كتب الدين، لا يميّزون بين كتب المسخوطين وكتب المرضيين[2]، وفي هذا الصدد يقول: "كل أهل هذه المائة عن حال، من قبلهم من حفظ المختصرات، وشق الشروح والأصول الكبار، فاقتصروا على حفظ حظه، وأفنوا أعمارهم في حل لغوزه، وفهم رموزه، ولم يصلوا إلى رد ما فيه إلى أصوله بالتصحيح، فضلا عن معرفة الضعيف من ذلك والصحيح، بل هو حل مقفل وفهم أمر مجمل، ومطالعة وتقييدات زعموا أنها تستنهض، فبينما نحن نستكبر العدول عن كتب الأئمة إلى كتب الشيوخ، أتيحت لنا تقييدات للجهلة بل مسودات المسوخ"[3].

ويتضح من خلال حديث المقري أنه يستحيل فهم هذه المختصرات إلا إذا توفرت لها شروح وحواشي وهوامش. فقد توفرت هذه الكتب بكثرة وهي متفاوتة القيمة، وصارت تعد خطرا بالنسبة للفقه، لابتعادها عن التعمق في

---

(1) الفريدبيل المرجع السابق، ص 361، ظهرت المختصرات الفقهية في المذهب المالكي للوجود في أوائل القرن الثالث الهجري التاسع الميلادي، وتضاعف انتشارها في القرن الرابع الهجري العاشر الميلادي، ثم ازداد عددها، بشكل كبير في القرن السابع الهجري الثالث عشر الميلادي على حساب النوعية، ويبدو أن هذه الظاهرة قد جنت على الفقه من حيث نموه وتطوره وازدهاره، حتى أن بعض الباحثين، اعتبروا ذلك تقهقرا وضعفا وانحلالا، لأن المختصرين لم يصلوا إلى فهم التراث الفقهي فهما جيدا، ولم يستوعبوا مضامينه ومحتواه، فجاء تصنيفهم ضربا من الألغاز، لا يمكن فهمه إلا إذا استعان الدارس بالشروح والأصول القديمة. انظر المدارك ج3، ص 365 – عمر الجبدي كمحاضرات في تاريخ المذهب المالكي في الغرب الإسلامي، منشورات عكاظ ، الدار البيضاء 1987، ص 131.

(2) أحمد باب: نيل الابتهاج، ص 247، الونشريسي: المعيار دار الغرب الإسلامي، بيروت 1981، ج2، ص 180.

(3) الونشريسي: المعيار، ج2، ص 480– أحمد باب: نيل الابتهاج، ص 247 ، البستان، ص 217-218.

البحث والاجتهاد من جهة، ولضعف الروح النقدية من جهة ثانية إلى أن زالت نهائيا تقريبا، في القرن التاسع الهجري الخامس عشر الميلادي[1].

أما عن بناء المدارس، فإن المقري يرى بأنها تجذب الطلبة بكثرة، نتيجة إغراءات المنح والجرايات، التي كانت تقدم لهم من قبل الدولة والأوقاف، فيقبل بهم على من يعينه أهل الرياسة للأجراء والإقراء، منهم من يرضى لنفسه الدخول في حكمهم، ويصرفهم عن أهل العلم حقيقة الذين لا يدعون إلى ذلك، وإن دعوا لم يجيبوا وإن أجابوا لم يوفروا لهم بما يطلبون من غيرهم"[2].لأن نظام المدارس تصرفهم عن الرحلة في طلب العلم والسعي في طلبه، للاستفادة من كبار العلماء في المشرق والمغرب، ويرى بأن إشراف الدولة على هذه المدارس يجعل الدارسين يتقيدون بالاتجاه العام والرسمي لها، ولا يمكنهم الحياد عن ذلك.

ومن المجتهدين أيضا العالم الفقيه أبو عبد الله الشريف الحسني التلمساني (1369/771)، الذي كان يلقي دروسا أمام السلطان أبي عنان المريني وحاشيته وعلمائه، فكان يبهر الحاضرين بعلمه الغزير في كل فن قام بتدريسه، وكذلك في الإشارات الصوفية، يقول عنه صاحب البستان: "آخر الأئمة المجتهدين الراسخين...فحيت به السنة وماتت به البدعة"[3]، يعد من جمهور الفقهاء وعامة العلماء، الذين اكتملت لهم آلات الاجتهاد، وقال عنه الخطيب ابن

---

(1) الفريدبيل: المرجع السابق، ص 361.

(2) الونشريسي، المعيار: ج2، ص 419 – أحمد بابا نيل الابتهاج، ص 246، المقري، نفخ الطيب: المطبعة الأزهرية، ج3، ص 143.

وقد أصاب علماء ما وراء النهر الحزن عندما فوجئوا ببناء المدارس وتنظيمها ومقرراتها، فأقاموا نعشا للعلم وقالوا: "كان يشتغل به أرباب الهمم العلية الأنفس الزكية الذين يقصدون العلم لشرفه والكمال به فيأتون علماء ينتفع بهم وبعلمهم، وإذا صار أجرة تداني إليه الفساد وأرباب الكسل، وهذا دليل على أن موقف فقهاء تلمسان من بناء المدارس يشبه موقف المشارقة بعد عشرات من السنين: انظر حاجي خليفة: كشف الظنون، ج1، ص 53 حسين أمين: المرجع السابق، ص 6.

(3) ابن مريم، ص 167.

مرزوق: "فقد بلغ درجة الاجتهاد"[1]، درّس التصوف وتلاخيص أرسطو لابن رشد والحساب والهندسة والهيئة والفرائض، بالإضافة إلى الفقه واللغة العربية وسائر علوم الشريعة والتنجيم والموسيقى والفلاحة، وغيرها من العلوم النقلية والعقلية[2]، حتى صار شيخا، يتولى إدارة المدرسة اليعقوبية في عهد السلطان أبي حمو موسى الثاني (760-791هـ/ 1360-1391م).

ومن المجتهدين في القرن التاسع الهجري الخامس عشر الميلادي، الشيخ الإمام بن سعيد بن محمد العقباني (817هـ/ 1408م)، الذي تتلمذ على يد والده رئيس العقلاء أبي عثمان سعيد (ت 811هـ/ 1408م) وصفه الفقهاء بالحافظ القدوة المجتهد، العارف بالعلوم العقلية والنقلية، وصل إلى درجة الاجتهاد، كانت له اختيارات خارجة عن المذهب، نازعه فيها بعض فقهاء تلمسان والمغرب.

فقد أفاد بعلمه الغزير، جهابذة النقاد وأمتع مسامعهم بدروسه ومجالسه، قرأ عليه كثير من طلاب تلمسان ودرّس مختصر المدونة لابن أبي زيد، ومختصر خليل، وحكم ابن عطا الله والحوفي والمناسخات من شرح والده، ومختصره في أصول الدين[3].

ومنهم أحمد بن محمد بن أحمد بن محمد بن مرزوق الشهير بالحفيد (ت 842هـ/ 1438)، الذي يعد من أكبر فقهاء المرازقة، أخذ من مختلف العلوم، فصار له صيت في ربوع المغرب الإسلامي حتى أصبح يلقب برئيس علماء المغرب بدون منازع في عهده[4]، بلغ درجة كبيرة من الاجتهاد في الفقه والعقيدة، وملك ناصية اللغة والبيان وألم بالتصوف وسلك مسلكه[5]، حارب

---

(1) نيل الابتهاج، ص 256.

(2) نفسه، ص 260.

(3) أحمد بابا التنبكتي: نيل الابتهاج، ص 223.

(4) ابن مريم البستاني، ص 208.

(5) أحمد بابا التنبكتي: المصدر نفسه، ص 293.

البدع وتصدى لمختلف أنواعها[1]، يعد آية في تحقيق العلوم، واسع الإطلاع على المنقول مفرطا فيه، مالكا للفقه وفروعه، جمع بين الشريعة والحقيقة على أصح طريقة[2]، لبس خرقة التصوف من أبيه وعمه[3]، اجتهد في إطار المذهب المالكي[4]، وتميز بعقيدة أهل التوحيد البعيدة عن ظلمة التقليد، وقد نحا منحاه الإمام الفقيه محمد بن يوسف السنوسي (ت 895)، في عقيدته الصغرى[5]، بحيث جمع بين العلوم الظاهرة، والعلوم الباطنية، وزاد على فقهاء عصره معرفة حل المسائل المعقدة في التوحيد، فباطنه حقائق التوحيد وظاهره زهد وتجريد حسب ابن مريم[6].

وصفوة القول إنه على الرغم من كثرة العلماء والفقهاء بمدينة تلمسان، إلا أنهم لم يصلوا إلى درجة الاجتهاد المطلق، الذي وصل إليه الأئمة الأربعة المشهورين، وإنما يمكن إدراجهم ضمن المجتهدين في إطار المذهب المالكي بحيث لم يحيدوا عن مبادئه، ولم يعملوا إلا بما يوافق مضامينه ومبادئه.

---

(1) أحمد بابا التنبكتي: المصدر السابق، ص 294.

(2) كفاية المحتاج، ج2، ص 372.

(3) نفسه، ج2، ص 373.

(4) أحمد بابا التنبكتي: المصدر نفسه، ص 294.

(5) نفسه، ص 298.

الأحوال الصحية لسكان تلمسان في عهد بني زيان

(تأثير الأمراض والظواهر الطبيعية والأزمات السياسية على السكان)[1]

مقدمة:

تخضع الأحوال الصحية للسكان إلى عدة عوامل منها: الموقع الذي يعيشون فيه، والظروف الطبيعية والمناخية والاقتصادية والثقافية التي تحيط بهم، وتؤثر فيهم، والى مستوى المعيشة التي يحيونها، والى الوعي الصحي والاجتماعي الذي يتكيفون معه.

والظاهر أن التلمسانيين كانوا محظوظين بحياة الرفاهية ولاسيما الطبقة الخاصة منهم، في الحالات العادية لأن المناخ الصحي والموقع الجغرافي والظروف الاقتصادية والمعيشية وفرت لهم هذه الحياة، ويتضح ذلك من خلال النمو الديموغرافي المرتفع، وكذلك ارتفاع معدل العمر عند أهل تلمسان خلال القرن 9هـ/ 15م. فهناك نصوص تشير إلى أن متوسط عمر الفرد يتراوح ما بين 70 و80 سنة.

أما القرويون من أهل بادية تلمسان، فيزيد معدل أعمارهم عن 80 سنة، وأنهم كانوا يتمتعون بشيخوخة قوية ومرنة، بحيث كانوا يقومون بالأعمال في الحقول كالحرث والنقش وتقليب الأرض وبذر البذور وحصد المحاصيل الزراعية ويعيدون الزواج في كثير من الأحيان[2].

وعلى الرغم من ذلك، فان سكان تلمسان وأرباضها وضواحيها، تعرضوا إلى بعض الأمراض والوباءات والأوبئة والكوارث الطبيعية والجوائع والأزمات السياسية.

---

(1) نشر في مجلة مخبر الدراسات التاريخية والفلسفية "التغيرات الاجتماعية في البلدان المغاربية عبر العصور"، دار الهدى للطباعة والنشر والتوزيع، عين مليلة الجزائر 2001.

(2) ... 66.

لقد عرف أهل تلمسان، علوم الطب والصيدلة كغيرهم من المسلمين، وجعلوها فرعا من فروع العلوم الطبيعية، يهتم بجسم الإنسان، وقت الصحة وأثناء المرض، واهتم التلمسانيون بهذا العلم وجعلوه من العلوم المستحبة والضرورية للإنسان واعتنوا بدراسته، آخذين بقول الإمام الشافعي: "لا أعلم علما بعد الحلال والحرام أنبل من الطب"[1]، وكان يتحسر على ما ضيعه المسلمون من صناعة الطب في بداية الأمر بقوله: "**لقد ضيعوا ثلث العلم وأوكلوه لليهود والنصارى**"[2].

لأن هذا اللون من المعرفة، يحفظ سلامة المجتمع من العلل والأمراض كما يسهر على سلامته الروحية رجال الفقه والشريعة، فالإسلام إذن أعطى أسبقية لحفظ الأبدان على حفظ الأديان[3].

وعلى هذا الأساس نجد الكثير من الفقهاء عززوا معارفهم الشرعية بصناعة الطب وما يتصل به من نفسانيات وصيدليات بين المادة والروح.

ومن هذا المنطلق شجع المسلمون دراسة الطب والصيدلة والتعمق فيهما، فسحوا المجال للقيام بالتجارب الميدانية والملاحظة السريرية والمشاهدة، وتمكنوا من خلال ذلك، وضع الأسس والمنهجية العلمية منذ القرن 3هـ/ 9م، فركزوا على البحث النظري والعملي، لمعرفة وظائف الأعضاء والإلمام بكل ما وصل إليه العلم الطبيعي، فالطبيب الجيد كما يشير إليه ابن رشد، ينبغي عليه أن يواصل البحث بالاعتماد على المشاهدة والتجربة وأن يصل إلى ما لم يصل إليه غيره، فتكون بذلك الأطباء والحكماء والممرضون، والحجامون لمقاومة الأمراض المتوطنة والوباءات، وإنشاء البيمارستانات في المدينة وهذا ما سنتحدث عنه.

---

(1) عبد العزيز بن عبد الله: تعليم الطب بالمغرب و العالم الإسلامي مجلة الأكاديمية للمملكة المغربية ع/ 5/ ديسمبر 1988، ص 25.

(2) نفسه، ص 25.

(3) ابن رشد: كتاب الكليات في الطب، تحقيق سعيد شيبان وعمار طالبي المجلس الأعلى للثقافة القاهرة 1989، ص 7.

موقع تلمسان وعدد سكانها:

تتميز مدينة تلمسان، بموقع جميل بين البساتين الكثيرة والحقول الواسعة، وتحيط بها السلاسل الجبلية التي تتوفر على المناجم المعدنية والمياه الغزيرة، فهذه العناصر جعلت تلمسان تتصدر مدن المغرب الأوسط، حتى صارت عاصمة للدولة الزيانية استقطبت اهتمام الناس وأصحاب رؤوس الأموال واليد العاملة من المناطق المجاورة والبعيدة، وحتى الأجنبية منها فهيأت هذه الخصائص المجتمع التلمساني إلى نقلة حضارية متميزة، بسبب الدورة الاقتصادية والتجارية والنهضة الثقافية والعلمية المعتبرة، التي أصبحت تحتلها في المغرب الأوسط، وكذا لوجودها على الطريق البري الرابط بينها وبين موانئها من جهة، وبينها وبين عواصم المغرب الكبير، حتى إن الجغرافي البكري اعتبرها المدينة الأساسية في المغرب الأوسط، ومركز القبائل البربرية، ومكان تلاقي القوافل القادمة من الغرب والشرق والصحراء[1]. بينما جعلها الإدريسي مفتاح افريقية الغربية والممر الذي يعبر منه المسافرون، وسكانها من أغنى سكان المغرب[2].

وتتضمن إحدى رسائل الموحدين، الاعتراف بهذه المكانة، لمدينة تلمسان حيث ذكرت بأنها: **"البلدة العتيقة، بل الروضة الأنيقة، جمعت محاسن المدائن منها في المدينة، واشتملت على أكمل عدة، ليومي الحرب وزينة، حشوها السلاح والكراع، وفاخر متاعها لا يضاهيها متاع"**[3].

وقد ازداد نمو سكان مدينة تلمسان، بسبب الهجرة إليها، حتى بلغ عدد سكانها في عهد الموحدين نحو 100 ألف نسمة، موزعين بين "أكادير" و"تاكرارات" وتطور هذا العدد إلى نحو 120 ألف نسمة[4]، ثم قفز إلى أكثر من 125 ألف نسمة في

---

(1) المغرب، ص 77.
(2) نزهة المشتاق، ص 101.
(3) محمد عزاوي، مجموعة جديدة من الرسائل الموحدية، ج3، ص 220 (رسالة رقم 124).
(4) يحيى بن خلدون: بغية الرواد / ج1، ص 211.

العهد الزياني[1] وهي أرقام تدل على تطور عمران المدينة، وازدياد عدد سكانها، ما بين القرنين 7 و8 الهجريين (13 و14)الميلاديين. بالرغم من الحصارات والاحتلالات والتخريب الذي أطال المدينة وهجرة سكانها أثناء الأزمات.

سكن مدينة تلمسان، خلال العهد الزياني، عناصر بشرية من أصول عرقية مختلفة، تمازجت واندمجت مع السكان الأصليين، كالعرب المسلمين الذين قدموا من الجزيرة العربية ومصر والشام والعراق والفرس، وخراسان والأغزاز (الاتراك) والأكراد والأعلاج الصقالبة والعبيد السود ومن الأندلس فضلا عن اليهود والنصارى الذين قدموا من أوروبا وغيرهم ممن حطوا رحالهم فيها، لعوامل وظروف عديدة، ولأغراض مختلفة، في شكل مجموعات كبيرة أو صغيرة أو فرادى على مر السنين، حيث وجدوا المناخ المناسب للمساهمة في المجالات الثقافية والاقتصادية والحربية والسياسية بالمدينة.

إن المتتبع للمصادر الزيانية والمتمعن فيها يجدها قليلة الاهتمام بالأمراض والظواهر الطبيعية رغم أهميتها وتأثيرها، على صحة الإنسان ونمو السكان والاقتصاد والعمران.

فقد تأثر المجتمع التلمساني بطبيعة الحال كغيره من المجتمعات تأثيرا شديدا، بالكوارث الطبيعية والجوائح والأوبئة والأمراض الفتاكة، وبالمجاعات الناتجة عن الجفاف والإعصار والجراد، وبالأزمات السياسية التي تحدث من حين لآخر، متسببة في حروب مدمرة[2].

فقد تركت هذه الظواهر ثغرات مظلمة في حياة سكان مدينة تلمسان، وشلت حركتهم، وأعاقت تطورهم في بعض الفترات. وعلى الرغم من عدم توفر الإشارات والخصائص الديمغرافية لأهل تلمسان في العهد الزياني، إلا أننا نفترض بأن عدد الوفيات بسبب الكوارث والأزمات كان مرتفعا في مدينة تلمسان.

لقد ساعد - بدون شك - على ارتفاع عدد الوفيات بتلمسان سوء التغذية للطبقة الفقيرة والأمراض الوبائية التي تفاجئ السكان من حين لآخر، والأمراض المتوطنة وقلة الوعي الصحي وخاصة عند العامة من الناس، في أوساط الطبقة الفقيرة، لانتشار الأوبئة الفتاكة وقلة النظافة نتيجة الظروف الاجتماعية والاقتصادية التي يمرون بها، وتقلب أحوال المعيشة وحرية تنقل الإنسان والحيوان على نطاق واسع، بين المدن بدون شروط صحية وحواجز حدودية، كما هو الشأن في الوقت الحاضر، وعدم توفر الرقابة الصحية الدائمة، على الرغم من وجود أطباء وحكماء وممرضين وبيمارستنات، للمعالجة والتمريض. فقد كان النازحون والمسافرون يدخلون مدينة تلمسان ويقيمون فيها متى شاءوا، وهو الأمر الذي ساعد إلى حد كبير، على انتشار بعض الأمراض المعدية الفتاكة وانتقالها وسريانها.

أما الطبقة الخاصة التي كانت تتأنق في المأكل والملبس والمسكن وتتفنن في ضروب أصنافه وتتوسع في النفقات، ولا تبخل عليها بالتغذية الجيدة والرعاية الصحية، وبهذا كانت أقل عرضة للأمراض والأوبئة من العامة.

الأمراض المتوطنة:

أما الأمراض المتوطنة، التي عرفها المجتمع التلمساني وكانت شائعة بمدينة تلمسان، فقد حصرت بعضها وثائق زيانية يمكن الاكتفاء بها على سبيل المثال فقط، فقد أشار محمد بن مرزوق الخطيب في مجموعه إلى عدة أمراض نذكر منها ما يلي:

مرض البلعوم (الحنجرة) الذي ينجم عنه التهاب الحلق وتورمه فترتفع درجة حرارة المريض[1].

---

(1) ابن مرزوق: المجموع، ورقة 22-24.

وكذا مرض الذبحة أو النزلة، وهي أمراض صدرية تسبب للمريض ضيقا في التنفس، ومرض الزكام والسعال الديكي وغيرها، وأشار ابن مرزوق أيضا إلى مرض الدماميل والأورام[1]، التي كانت منتشرة بتلمسان، وقد عانى منها مؤرخنا هذا أوقاتا صعبة كثيرة، ومرض الإسهال خاصة بين الأطفال ومرض الشكية والكند[2]، ومرض القرع، الذي كان منتشرا بصفة خاصة عند الأطفال والنساء[3]، وعرف أهل تلمسان الصداع وهو مرض يصيب الرأس لكن بدون حمى[4]. كما تكثر أمراض الأسنان لأن سكان تلمسان كثيرا ما يشربون الماء البارد بعد الحساء الساخن.

وعرف المجتمع التلمساني أمراض المعدة والأمعاء وألم النسا، يصيب الصلب والركبة، من كثرة الجلوس على الأرض[5]. وانتشر مرض في القرن 9 هـ/ 15م يدعى "داء الإفرنج" وهو المعروف بمرض الزهري، في عصرنا هذا، انتقل لأول مرة إلى بلاد المغرب مع اليهود الذين هاجروا الأندلس مضطرين بعد سقوط غرناطة، وقد انتشر هذا المرض بالاتصال الجنسي بين اليهوديات والتلمسانيين وغيرهم من سكان مدن المغرب الأوسط[6].

---

(1) الورم: هو الغلظ الخارجي عن الطبع عادة تتخلل العضو، متفرق فيه اجتمعت في تجويف واحد فهو الخراج، انظر محمد العربي الخطابي: الطب والأطباء في الأندلس، دار الغرب الإسلامي/ بيروت 1988، ج2، ص 352.

(2) ابن مرزوق، المصدر السابق، ورقة 25-26.

(3) القرع: قروح في الرأس، متصلة يذهب معها الشعر وتسمى السعفة، محمد العربي الخطابي نفسه، ج2 ن، ص 334.

(4) حسن الوزان، المصدر السابق، ج1، ص 67.

(5) محمد العربي الخطابي، المرجع السابق، ج2، ص 329.

(6) حسن الوزان، المصدر السابق، ج1، ص 68.

وكذلك لا يخلو المجتمع التلمساني من مرض الأعصاب ولاسيما عند الأطفال والنساء، ومرض الفتق[1]، وداء الشاخة[2]، ومرض الدماس الذي توفي به السلطان عثمان بن يغمراسن سنة 703هـ/ 1203م[3].

وتتعرض الطبقة الحاكمة والأغنياء في كثير من الأحيان لمرض النقرس. ولاسيما منهم الذين يتناولون شرب الخمر، واكل الدجاج وغيره من الأطعمة الناعمة الشهية[4].

وكان الشيخ أحمد بن مرزوق والد الخطيب قد مرض بمرض أقعده في الفراش أصاب ساقيه ووركيه حتى صار يحمل على الأكتاف، وربما يكون هذا المرض نتيجة شلل بسيط أصابه. وظهرت أمراض الخوانيق ومن أعراضها ضيق التنفس وبقاء الفم مفتوحا، وصعوبة الابتلاع وجحوظ العينين وخروج اللسان، وإذا اشتد الوجع ربما تنتفخ الرقبة والوجه ويتدلى اللسان ويحدث هذا المرض من كثرة تقلبات الجو، وشدة البرد المشهورة بها مدينة تلمسان[5]. وأما أمراض "التشنج" و"الرياح الغليظة" فهي أمراض تصيب العضل في جسم الإنسان، فكانوا يعالجونها بالاستحمام في المياه المعدنية الساخنة[6]. وعرف أيضا أهل تلمسان مرض "القولنج" وهو مرض يصيب الأمعاء ويتسبب في التهاب المعدة[7].

---

(1) الفتق، انخرام يقع في شيء ملتحم متصل، وهو من الأمراض انفتاق صفاق البطن وبروز المعي أو الثرب تحت عضل البطن، وجلده. وأصله في اللغة الخرق، انظر محمد العربي الخطابي: المرجع السابق، ج2، ص 332.

(2) ابن مرزوق: المسند، ص 265، لم أقف على هذا المرض.

(3) ابن خلدون: العبر، ج7، ص 196، لم أقف عليه.

(4) حسن الوزان: المصدر السابق، ج1، ص 67.

(5) ابن مرزوق، الورقة 26، انظر ابن سينا: القانون في الطب القاهرة 1294 هـ ، ج2 ، ص 200.

(6) العمري: مسالك الأمصار، في ممالك الأمصار مطبعة دار الكتب المصرية، القاهرة 1924، ج1، ص 301.

(7) ابن مرزوق، المجموع ورقة 25، انظر أيضا: ابن العديم، زبدة الحلب في تاريخ حلب المطبعة الكاثو لكية ببروت 1968، ج1، ص 43، سواد عبد محمد ، المرجع السابق، ص 193.

وقد تقدم طب الأمراض النسائية والتوليد، تقدما ملحوظا في بلاد المغرب والأندلس، وظهرت كتبا عديدة في هذا المجال أهمها كتاب: "خلق الجنين وتدبير الحبالى والمولدين" للعالم المؤرخ عريب بن سعد القرطبي، الذي عاش في القرن الرابع الهجري العاشر الميلادي، وكان هذا الكتاب يتداوله طلاب الطب، ويعتمد عليه الأطباء في الحفاظ على الأمومة والطفولة وصيانتها، فعرفوا دواء الهيلون في توليد الإناث وهو دواء يعدل البدن ويصلح فساده[1].

وكذلك اكتشفوا دواء ينقي أوردة الرحم ويفتح سدد الأرحام عند النساء اللائي لا تلدن[2]، وتوصلوا إلى اكتشاف حقن يحقن بها الرحم منعا للإسقاط.

واعتنوا أيضا بالطفل وبعلاجه، وخاصة في سنواته الأولى، التي تتميز بتعرضها لمختلف الأمراض كالسعال العارض والحصبة والجدري وورم السرة، ومرض الربو العارض وهو عبارة عن جرجرة تحدث في الصدر والحلق لإصابة الرئة وأنابيبها[3]، كما عرفوا علاج مرض الأرق والخوف العارضين للطفل[4]، ومرض الرمد الذي يعرض للصبيان، كما يعرض للكبار وهو انتفاخ الأجفان مع دمع سائل ورطوبة كثيرة وبكاء دائم لفرط ما يجده المريض من الم وثقل في آلات العين[5].

---

(1) عريب بن سعد القرطبي: كتاب خلق الجنين وتدبير الحبالى والمولودين، اعتنى بتصحيحه وترجمته والتعليق عليه الأستاذ نور الدين عبد القادر والحكيم جاهية، منشورات كلية الطب والصيدلة ومكتبة فراريس، الجزائر 1956، ج3، ص 22-26.

(2) عريب بن سعد، المصدر نفسه، ج3، ص 63.

(3) نفسه، ج3، ص 63-75 و78. يقدم شراب لذيذ للمريض بالسعال يؤخذ من برز الخشخاش ثلاث أوراق و من عروق السوس المجرود أوقية فيلقى عليه أرطال من ماء حار قوي الحرارة ويسقع يوما وليلة ثم يطبخ بنار جمر ثم يسقى الطفل انظر نفسه، ج3، ص 63.

(4) نفسه، ج3، نص 63.

(5) نفسه، ج3، ص 81.

الأدوية والعلاج:

يستند العلاج أساسا على الأدوية النباتية واللقاح والفصد، وبعملية الإسهال وتطهير الأمعاء، والحجامة وهي أكثر أساليب المعالجة شيوعا بتلمسان[1]. وكانت بعض الأدوية التي توصلنا إلى معرفتها من خلال ما وجدناه في النصوص الزيانية، والتي كان المرضى يستعملونها، وتتمثل في الأنواع المختلفة من الأشربة والغرغار، والأدهان وحب الفلفل والبتوع اللبد، وهي عبارة عن عروق لنبات الانبسون والسكر، يخلط بالماء ثم تقدم شراب للعلاج[2]. والعشاري[3] وحب الزنم[4] وهو دواء يصلح للأمراض التناسلية والجنسية[5]، وحب العروس[6] وهو شراب يعالج الصداع ووجع الأسنان، وعصير العناب والرمان[7].

ومن عادة أهل تلمسان أن يقدموا للمريض مرق الشربة بالدجاج عندما يشتد عليه الزكام والسعال[8]، وحسو النشا[9]، وتتم عملية الفصد عندهم بإخراج الدم بواسطة الحجامة، ثم يتناولون بعض الأشربة المقوية، والغرغار، وأدهنة الجروح وشراب الأرجوان[10].

---

(1) سواد عبد محمد: المرجع السابق، ص 140.

(2) ابن بطوطة: تحفة النظار، ج2، نص 781.

(3) ابن مرزوق: المجموع ورقة 26.

(4) يصنع من نبات جبلي انظر سواد عبد محمد: المرجع السابق، ص 139.

(5) ياقوت الحموي: معجم البلدان، منشورات مكتبة الأسد، ج3، ص 340-341.

(6) يستخرج من نبات يعيش في المستنقعات المائية ورواكدها كما ينبت في الماء العذب الواقف، انظر سواد عبد محمد: المرجع السابق، ص 140.

(7) نفسه، ص 139.

(8) ابن مرزوق: المجموع ورقة 25.

(9) نفسه، ورقة 26.

(10) نفسه، ورقة 26.

وكان العلاج يتم تحت إشراف الأطباء أو في بيمارستان تلمسان المجهز بالوسائل الطبية والبشرية، حيث كان يعمل به موظفين إلى جانب الأطباء والحكماء منهم الكتاب والممرضون والحراس والطباخون، ويتقاضى كل واحد منهم أجرا محددا كل شهر[1].

ويعمل بالمستشفى الأطباء والحكماء لمداواة المرضى ومعالجتهم والتخفيف عن آلامهم ومعاناتهم والتصرف في مطالبهم[2]. وكانت به عدة غرف مخصصة للحمقى والمجانين والمجذوبين[3]، يتتبعون الحالة الصحية لكل نزلاء البيمارستان، وكان الطب النظري موضوع عناية عدد كبير من الأدباء والفقهاء نظرا لعناية الدولة ورعايتها لهذا الجانب من العلوم الطبيعية[4].فضلا عن المهمة الصحية والإنسانية، التي يقوم بها البيمارستان كان يستقبل الغرباء ويستضيفهم لمدة ثلاثة أيام[5]، ويداوي الطيور والحيوانات الجريحة، ويتكفل بغسل الأموات والغرباء وكفنهم ودفنهم[6].

والظاهر أن المستشفى كان يداوي المرضى أيضا بالموسيقى فقد كان له وقف برسم الموسيقيين الذين كانوا يزورونه، مرة أو مرتين في الأسبوع، يقدمون للمرضى ونزلائه نغمات موسيقية مناسبة لهم[7]، لان ذلك يفيد في انشراح الصدر وإنعاش الروح، فتقوى ضربات القلب وتعود الأعضاء الجسيمة إلى

---

(1) حسن الوزان: المصدر السابق، ج1، ص 181.

(2) محمد المنوني: دور الأوقاف المغربية في التكافل الاجتماعي عبر عصر بني مرين مجلة دعوة الحق عدد 230 يوليو الرباط 1983، ص 28.

(3) حسن الوزان: المصدر نفسه، ج1، ص 180.

(4) إبراهيم حركات، المغرب عبر التاريخ، ج2، ص 157.

(5) حسن الوزان: وصف إفريقيا ، ج1، ص 181.

(6) محمد المنوني، المرجع نفسه، ص 28.

تأدية وظائفها. فقد كان العلاج بالموسيقى والغناء من الوسائل النافعة في علاج الحمقى، كما هو الشأن في الوقت الحاضر[1].

وكانت طريقة العلاج تخضع للطريقة النفسية، وهي طريقة معالجة الأضداد بالملاطفة والتدبير[2] . وكان يقدم للمرضى ثيابا بالمجان للنوم في الليل والنهار وفي فصل الصيف والشتاء[3]. وقد الحق بالمستشفى، صيادلة لصناعة الأشربة والأدهان والأكحال[4]، وتوجد بعض الصيدليات التي يملكها الأطباء في سوق العطارين، تباع فيها المواد المتعلقة بالعطارة والطب، التي يهيئها الأطباء والحكماء في منازلهم وتباع للمرضى مقابل وصفة طبية[5].

أشهر الأطباء بتلمسان:

كانت مهنة الطب متداولة بعناية في تلمسان خلال العهد الزياني، وكان الأطباء والعلماء يقومون بتدريس العلوم الطبية، والنظرية والعملية للطلبة، في بعض مساجد تلمسان ومدارسها، وفي البيمارستان والتي تحتوي على كراسي لتدريس هذا العلم.

فقد كانت الكتب والرسائل العلمية المجلوبة تؤدي للطلاب أنفع الخدمات والحصول على ما يحتاجونه من مادة علمية ومن أدوات البحث، فالنصوص تشير إلى وجود أكثر من ثلاثمائة عنوان لمصنفات الطب والصيدلة في خزائن

---

(1) ابن شقرون محمد: مظاهر الثقافة المغربية من القرن الثالث عشر إلى القرن الخامس عشر، مطبعة الرسالة الرباط 1982، ص 225-226.

(2) ابن الأثير ضياء الدين: رسائل ابن الأثير، تحقيق أنيس المقدسي، دار العلم للملايين بيروت 1959، ص 116.

(3) أحمد عيسى: تاريخ البيمارستانات في الإسلام، دار الرائد العربي، بيروت 1981، ص 281.

(4) نفسه، ص 281.

(5) حسن الوزان، المصدر السابق، ج1، ص 190، -محمد المنوني: المرجع السابق، ص 28.

حواضر المغرب الأوسط خلال العهد الزياني[1]. وقد برز في العلوم الطبية من التلمسانيين في العهد الزياني وكان لبعضهم باع في هذا المجال نذكر منهم ما يلي:

1- **أبو القاسم محمد بن أبي القاسم الحكيم التلمساني**: نبغ في العلوم الطبية والفقه والخطابة وكان يؤم الناس في الصلاة، قربه السلطان أبو تاشفين الأول، ورعاه حتى صار طبيبه الخاص[2].

2- **أبو عبد الله محمد بن أبي جمعة التلاليسي**: من أهل تلمسان، كان جراحا ممتازا، قام بعملية جراحية لأمعاء السلطان أبي يعقوب المريني، وأخاط الجرح الذي أصابه في بطنه بالمنصورة أثناء حصاره لمدينة تلمسان[3]، درس الطب، وزاول مهنته كطبيب محترف، اختصه السلطان أبي حمو موسى الثاني، فكان طبيب البلاط، فضلا عن كونه شاعرا مميزا مدح السلطان في كثير من المناسبات وله قصائد كثيرة في المولديات[4].

3- **محمد بن علي بن فشوش**: طبيب تلمساني ماهر زاول مهنته بكفاءة عالية، وكان يدرس العلوم الطبية بمدراس تلمسان، درس عنه العالم المصري

---

(1) محمد العربي الخطابي: فهارس الخزانة الحسنية، الرباط 1982، ج2، ص 7، نذكر على سبيل المثال: الاكتفاء في طلب الشفاء محمد بن يحيى العزفي، المتوفي سنة 768هـ/ 1966م.
- الأمراض الوبائية ، لعلي بن عبد الله بن هيدور التادلي (ت 816هـ/ 1413م).
- أرجوزة في الأغذية والأشربة، لأحمد الخطيب ابن قنفذ (ت 810هـ/ 1407م).
- زاد المسير في علاج البواسير، لمحمد القصوني (ت 931هـ/ 1524م).
- عمل من طب لمن حب، للسان الدين بن الخطيب (ت 776هـ/ 1374م).
- تدبير الصبيان، لابن الجزار القيرواني (ت 390هـ/ 1004م).
- الاستقصاء والإبرام في علاج الجراحات والأورام، لمحمد بن علي بن فرح (ت 761هـ/ 1359م).
- كتاب القانون، لابن سينا (ت 428هـ/ 1037م).
مادة الحياة وحفظ النفس من الآفات، لمحمد بن أبي بكر الفارسي (ت 621هـ/ 1228م).

(2) ابن مرزوق: المجموع ورقة 4 و24.

(3) المقري، نفح الطيب (طبعة دار صادر 1968)، ج5، ص 243.

(4) نفسه، ج5، ص 336-337. محمد طمار: تاريخ الأدب الجزائري الشركة الوطنية للتوزيع والنشر الجزائر 1969، ص 185-191.

الرحالة عبد الباسط بن خليل الذي زار تلمسان، قصد الأخذ عن أطبائها وعلمائها، وفي هذا المجال يقول: "ولقينا بها (تلمسان) جماعة أخرى من الفضلاء والأدباء والأطباء منهم محمد بن علي بن فشوش أحد أطباء تلمسان في المزاولة والدراسة، وسمعت من فوائدهم وحضرت دروس بعضهم ونقلت عنه أشياء وأجازوني..."[1].

4- موشى بن صمويل بن يهود الإسرائيلي المالقي الأندلسي اليهودي: المتطبب المعروف بابن الأشقر، يعد من أشهر الأطباء وأمهرهم قدوة وحدقا في ميدان الطب، ولد بمالقة قبل سنة 820هـ/ 1418م، اخذ هذا العلم عن أبيه اشتهر بهذه الصنعة في الأندلس ثم انتقل إلى تلمسان وحط رحاله بها، حيث زاول بها مهنة الطب وتدريسه للطلاب المهتمين به، فلازمه كثير منهم وتوافدوا عليه من حواضر وأقطار مختلفة طلبا لهذا العلم، وقد درس عليه الرحالة المصري وأجازه، فقال عنه: "لم أسمع بذمي ولا رأيت كمثله في مهارته في هذا العلم وفي علم الوفق والميقات[2].

أخذ شهرة كبيرة في مدينة تلمسان وذاع صيته خارجها، انتهت إليه رئاسة الطب، وصار الطبيب الخاص للبلاط الزياني والمقرب من أمرائه[3].

5- أبو إسحاق إبراهيم بن أحمد التلمساني الثغري الطبيب: ألف رسالة أو معجما صغيرا في الطب رتبه على حروف المعجم، هو عبارة عن قائمة بأسماء الأعشاب ونحوها، مما يتداوى بها في ذلك العصر، أضاف له معلومات شخصية عن الأدوية الشائعة في التطبيب في عصره[4].

---

(1) عبد الباسط: الروض الباسم، ص 44.محمود بوعياد: رحالة مصري يزور الجزائر في القرن التاسع، مجلة الأصالة عدد 25 مطبعة البعث قسنطينة 1975، ص 124-135.

(2) عبد الباسط، المصدر نفسه، ص 44.

(3) نفسه، ص 45.

(4) أبو القاسم سعد الله: تاريخ الجزائر الثقافي، ج2، ص 105.

استهل إبراهيم معجمه أو رسالته هذه، بالأدوية النافعة لبرد الدماغ، هي مشتملة على أضمدة وأدهان...وغيرها، تحتوي الرسالة على وصف أدهان وأشربة وسفوفات ومعاجين مع ذكر منافعها الطبية كما تعرض إلى بعض أمراض العين[1].

وساهم بعض الفقهاء والعلماء في ميدان الطب، وإن لم يكونوا متخصصين فيه مثل:

6- الفقيه أبي الفضل المشذالي التلمساني: (ت 866هـ/ 1461م) الذي درس الطب على محمد بن علي بن فشوش التلمساني السالف الذكر[2].

7- الفقيه الصالح محمد بن يوسف السنوسي: (ت 895هـ/ 1491م) الذي درس العلوم الطبية، ولكنه لم يخرج في تناوله لهذه العلوم عن دائرة اختصاصه بل جعل معارفه المتنوعة تكمل بعضها، فقد ربط بين الدين والطب واستعان بالأحاديث النبوية في المجال الطبي والتزم بتوجيهاتها في الامتهان به[3].

وقد كتب في هذا الميدان مصنفا سماه "شرح حديث المعدة بيت الداء والحمية رأس الدواء"، استهله بقوله: "وكذلك تقبل الأعضاء قبولا حسنا لاستفراغها من العضلات، بسبب الرياضة فتستقيم بذلك الصحة بإذن الله عز وجل"[4].

والظاهر أن لهذا المصنف عدة عناوين منها "رسالة في الطب" وتفسير ما تضمنته كلمات خير البرية من غامض أسرار الصناعة الطبية " أوضح فيه السنوسي الحمية ثم انتقل إلى الأغذية والأشربة، ومقاديرها اللازمة للجسم،

---

(1) أبو إسحاق إبراهيم التلمساني الثغري: رسالة في الأدوية مخطوط بالخزانة الحسنية بالرباط، رقم 8545، أبو القاسم سعد الله: تاريخ الجزائر الثقافي، ج1، ص 107.

(2) أبو القاسم سعد الله: تاريخ الجزائر الثقافي، ج1، ص 107.

(3) نفسه، ج1، ص 107.

(4) محمد العربي الخطابي: فهارس الخزانة الحسنية، ج2، ص 185.

ثم انتقل إلى الحديث عن الحليب واللبن وفوائدهما، وعن الماء وتأثيره على الجسم، كما تحدث عن الهضم والأخلاط، وتأثيرهما على الصحة وواجبات الإنسان في حفظ المعدة وعناية بها[1].

وله تأليف آخر في ميدان الطب عنوانه "مجريات في الطب" و"مقدمات فوائد" يتكون من 144 ورقة في الطب أيضا[2]، وله شرح لأرجوزة ابن سينا في الطب لم يكمله[3].

8- ومنهم **أبو عبد الله المالقي المتطبب**: الذي عاصر العالم الفقيه الآبلي والإمام المقري الجد[4].

9- منهم: **داود عبد الله البغدادي ثم التلمساني**: الطبيب الماهر، كان ضريرا عاش ما بين القرنين التاسع والعاشر الهجريين، تميز بمعارف طبية عظيمة[5].

10- ومنهم: **الفقيه أبو الفضل محمد بن إبراهيم بن عبد الرحمان ابن الإمام**: (ت 845هـ/ 1441م) صاحب القدم الراسخ في التصوف والأدبيات والشعر والطب[6].

---

(1) السنوني: تفسير ما تضمنته كلمات خير البرية من غامض أسرار الصناعة الطبية، مخطوط بمكتبة الأسد الوطنية، دمشق رقم 7136، ورقة 20 وما بعدها.

(2) اسعيد عليوان: محمد بن يوسف السنوسي وشرحه لمختصره في المنطق رسالة دكتوراه، الحلقة الثالثة، جامعة الجزائر 1987، ص 76.

(3) البستان، ص 246.

(4) أحمد بابا التنبكتي: نيل الابتهاج، ص 252.

(5) محمد الطمار: الروابط الثقافية بين الجزائر والخارج، الشركة الوطنية للتوزيع والنشر الجزائر 1983، ص 230.

(6) الحفناوي: تعريف الخلف برجال السلف، مؤسسة الرسالة والمكتبة العتيقة تونس 1985، ج2، ص 339.

وباء الطاعون[1]:

يعد مرض الطاعون من أشد الجوارح الطبيعية وأكثرها فناءا للبشرية وفتكا بها، فقد عرفت بلاد المغرب عامة ومدينة تلمسان خاصة هذا الوباء الجارف عدة مرات، خلال العهد الزياني[2]. اجتاح وباء الطاعون بلاد المغرب في العهد الزياني عدة مرات في فترات متعاقبة، فقد ظهر في السنوات التالية: 657هـ/ 1251م-749هـ/ 1348م-765هـ/ 1365م-796هـ/ 1394م-845هـ/ 1442م-847هـ/ 1443م-857هـ/ 1453م-872هـ/ 1467م-899 هـ/ 1493م. فكان يظهر على رأس كل عشر سنوات أو عشرين سنة تقريبا، يذهب بالآلاف من الناس[3].

وكان أشدها وطأة على الناس ذلك، الذي ظهر في آسيا الوسطى سنة 746هـ/ 1346م، واكتسح أوروبا، ووصل إلى شمال إفريقيا سنة 749هـ/ 1348م. وهو الذي أطلق عليه الأوروبيين الطاعون الأسود la peste noire[4]. فانتشر في بلاد المغرب مخلفا الكثير من الضحايا وقد عاصره ابن خلدون ووصفه وصفا دقيقا ونعته بالكارثة الكونية، بلغ درجة كبيرة من الانتشار والتوسع،

---

(1) الوباء يعني الموتان انظر محمد العربي الخطابي: المرجع السابق، ج2، ص 351. والطاعون يصيب صاحبه بالمرض الحاد الخبيث، ويقتل في ساعة أو ساعتين وربما طال يوما أو يومين، ويكون خلف الأذن وأكثر ما يكون في أوقات الوباء، منقول متعارف عن الأطباء، انظر محمد العربي الخطابي المرجع السابق، ج2، ص 327.

(2) اجتاح وباء الطاعون بلاد المغرب في العهد الزياني عدة مرات في فترات متعاقبة، انظر ابن خلدون: المقدمة، ص 53، ابن قنفذ: الفارسية، ص 127، الزركشي: تاريخ الدولتين، ص 150-158، ابن الخطيب: نفاضة الجراب في علالة الاغتراب تقديم وتحقيق السعدية فاغية مطبعة النجاح الدار البيضاء 1989، ج3، ص 61 و80-90 ابن الأحمر: المصدر السابق، ج3، ورقة 99.

(3) حسن الوزان، المصدر السابق، ج1، ص 68.

(4) كتب عن هذا الطاعون ابن خاتمة: رسالة سماها "تحصيل غرض القاصد في مرض الوافد" والف عنه أبي قنفذ القسنطيني "المسنون في أحكام الطاعون" انظر ابن الخطيب نفاضة الجراب، ج... ص 61-80. وابن قنفذ الوفيات، ص 358 اوميل الخطاب التاريخي "دراسة لمنهجية ابن خلدون" الرباط 1984، ص 88-91.

(R) ... un opuscule grenadin sur la peste noire de 1348 la nasiha de ...

بحيث لم يسلم منه أي قطر من الأقطار الإسلامية والآسيوية في بلاد الشرق، والأقطار المسيحية بالبلاد الأوروبية، ووصل إلى الأقطار المغربية .كان الموتى من جرائه يعدون بالمئات في اليوم الواحد وفي القطر الواحد، حصد السكان بدون استثناء[1]. وإذا كانت النصوص التاريخية لم تبين لنا الظروف التي عاشها المجتمع التلمساني خلال هذه الكوارث، ولم تحدد عدد الموتى الذين كانوا يسقطون يوميا، من جراء هذا الوباء، فان المؤرخ الزركشي لم يغفل ذلك، وأشار إلى أن سكان مدينة تونس كانوا يموتون بالمئات يوميا، وصل عدد الموتى في بعض الحالات إلى ألف شخص في اليوم الواحد[2]، وانفرد صاحب نفاضة الجراب بالحديث عن وباء الطاعون الذي أصاب بلاد المغرب فترك وصفا دقيقا عن انتشاره وما أصاب الناس به، من ضرر ومعاناتهم الكثيرة بهم، وكان هذا المرض قد تفشى في طبقة العامة من الناس واشتد على الفقراء، حيث يكثر الاختلاط ولا تتوفر شروط الصحة والنظافة[3]، غير أن هذا المرض لا يستثني أحدا عندما يعم وباؤه وتكثر أسبابه.

وقد اجتاح مدينة تلمسان مرض الطاعون كغيرها من مدن المغرب وقراه، سنة 750هـ/ 1349م فقضى على خلق كثير من الناس فيها، وفتك بعائلات بأكملها، مثل ما حدث لأسرة حفيد العالم التفريسي التلمساني التي انقرضت كلها، من جراء هذا الوباء القاتل.

---

(1) كتاب العبر، ج2، نص 53. يقول عنه ابن خلدون: "نزل بالعمران شرقا وغربا في منتصف هذه المائة الثامنة من الطاعون الجارف، الذي تحيف الأمم وذهب بأهل الجيل وطوى كثيرا من محاسن العمران ومحاها، جاء للدول على حين هرمها، وبلوغ الغاية من مداها، فقلص من ظلالها وقل من حدها وأوهن من سلطانها، وتوادعت إلى التلاشي، والاضمحلال أحوالها، وانتقض عمران الأرض انتقاض البشر، فخربت الأمصار والمصانع، ودرست السبل والمعالم، وخلت الديار والمنازل، وضعفت الدول والقبائل".انظر أيضا المقدمة، ص 53.

(2) تاريخ الدولتين، ص 158. Brunshvig (R): Un calife hafside méconnu rev.tun 193., p 38.

(3) عبد العزيز الدولاتلي: المرجع السابق، ص 94.

وتوفي به عالم تلمسان المعروف بابن الإمام أبو موسى عيسى، بمسقط رأسه وغيره من العلماء والأهالي[1]. وظهر وباء الطاعون في المغرب الأوسط عام 845هـ/ 1442م. وانتشر في مدينة تلمسان وأتى على كثير من سكانها، ولم يمنع منه عالم تلمسان حينذاك، ومفتي بلاد المغرب، أبو العباس أحمد بن عبد الرحمان المغراوي التلمساني، الشهير بابن زاغو[2]، وهذا دليل على أن مرض الطاعون، أصاب العامة والأسياد والأشياخ وأصحاب القصور والجاه بدون تمييز[3].

الجفاف والمجاعات:

لم يكن وباء الطاعون وحده يشكل خطرا على حياة المجتمعات والأسرة بل يضاف إليه، ظواهر طبيعية أخرى لا تقل عنه خطورة وفتكا كالقحط والزلزال والأعاصير والجراد، والمجاعات[4]، التي تؤثر على معاش الناس وقوتهم، فقد تعرضت بلاد المغرب، إلى كوارث طبيعية والى ظروف مناخية قاسية دورية بحيث ساد المنطقة القحط، واستفحل فيها منذ القرن السابع الهجري، الثالث عشر الميلادي، ففي سنة 617هـ/ 1220م اجتاحت بلاد المغرب والأندلس مجاعة كبيرة، اشتدت وطأتها على السكان، وتسببت في موت الكثيرين منهم في المدن والقرى[5]، وقد انتشر الغلاء والجراد، والقحط من جرائه حتى وصفها صاحب القرطاس "بالمجاعة العظمى"[6].

وداهم الجراد بلاد المغرب سنة 624هـ/ 1228م فأتى على المحاصيل بجميع أنواعها فارتفع ثمن القمح ومختلف المواد الغذائية، وتكرر قدومه سنة

---

(1) Marcais (G): Tlemcen (les villes d'arts celebres), p 48.

(2) ابن الأعرج: زبدة التاريخ، ورقة 99.

(3) ابن عذاري: البيان ، قسم الموحدين، ص 136، ابن أبي زرع: المصدر السابق، ص 267.

(4) الزركشي: المصدر السابق، ص 150، ابن أبي زرع، المصدر السابق ط..، دار المنشور الرباط، 1973، ص 273.

(5) ابن أبي زرع، ص 273.

(6) السلاوي: الاستقصاء، ج2، ص 264.

630هـ/ 1232م. فعمت المجاعة بسببه، بلاد المغرب من أقصى الشرق إلى أقصى الغرب[1] .فانعدمت فيه الأقوات، ونقصت الغلات، وقلت مردودية الأرض، وذهب معظم الإنتاج فتضرر الإنسان والحيوان معا، ويتضح مما سبق مدى الضرر الذي أحاط بالسكان والحيوان والاقتصاد، وعمق تأثيره على الحياة بالمدن والقرى إلا أن القحط، بالرغم من كثرة حدوثه، في بلاد المغرب، كان أقل إبادة، وقد كان أهل تلمسان وسلاطينها يدخرون هذه المواد في أهراء المدينة ومطاميرها، في أحد أحياء تلمسان يدعى حي الممطر[2]، لمثل هذه الظروف ولمقاومة الحصار الذي يمكن أن تتعرض له مدينتهم، ثم إن سلاطين بني زيان كانوا كثيرا ما يفتحون هذه المدخرات لرعايا المدينة[3]، ويرجع ابن خلدون أسباب ظهور المجاعات الدورية إلى ظواهر اجتماعية وسياسية وطبيعية، وإلى الحروب والفتن الداخلية، فقد داهمت مدينة تلمسان مجاعة شديدة خلال النصف الأول من القرن الثامن الهجري الرابع عشر الميلادي حتى لم يطق السكان تحمل هذه المجاعة، وتعرضت مدينة تلمسان في عهد السلطان أبي سعيد عثمان الأول، لغلاء كبير حتى تعطلت المرافق العامة الخيرية والمساجد فبعث السلطان لأهل البلد يطلب منهم بيعه بعض المنتوجات الزراعية، فلم يجدها عندهم[4].

كما حدثت في بلاد المغرب عامة ومدينة تلمسان على وجه الخصوص، مجاعة عظيمة سنة 776هـ/ 1373م. فعم الغلاء البلاد وهي الحالة التي ضجر منها احد المراة الميسورين وهو أبو العباس أحمد الشهير بابن قنفذ القسنطيني، فاشتكى من ارتفاع سعر المواد الغذائية في مدينة تلمسان، إذ لم يستطع تحمل النفقة

---

(1) السلاوي: الاستقصاء، ج2، ص 264.

(2) يحيى بن خلدون، بغية الرواد ، ج1، ص 209-210، ابن مرزوق: ورقة 14-15.

(3) Marcais (G): Tlemcen (les villes d'arts celebres), p 87.

(4) بغية الرواد ، ج1، ص 122 .ابن مريم، البستان، ص 307.

الباهضة، التي كانت تكلفه يوميا نحو أربعة دنانير ذهبا دون المزية العظمى واليد الكبرى، التي تبيع له الطعام، وقد اضطر ابن قنفذ أن يقيم في تلمسان مدة شهر لانعدام الأمن في المسالك، والطرق بسبب هذه المجاعة[1].

وعاصر يحيى بن خلدون هذه المجاعة، بمدينة تلمسان فوصفها بقوله: "أنها نتجت عن إعصار عظيم أهلك زرع صائفة تلمسان وحيوانها، فأكل الناس بعضهم بعضا، وافتقروا إلى ما لدى السلطان[2]، الذي تصدق بنصف جبايته على ضعفاء تلمسان.

فقد كان يجمعهم كل يوم في الرحاب الفسيحة من المدينة، وتقدم لهم المؤونة بواسطة أعوانه ومساعديه[3]، وأصدر السلطان أبو حمو الثاني، بهذه المناسبة قرارا بالتكفل بالضعفاء والمساكين والفقراء، وضمهم إلى بيمارستانات المدينة، وتقديم الطعام لهم، في الصباح والمساء، طوال فصلي الشتاء والربيع، وفتح للرعية أهراء الزرع ومخازنه وأباح للناس بيعه وخفض لهم سعره، بحسب ما اقتضته ظروف المجاعة وأحكامها، وكان السكان بمدينة تلمسان يتميزون بالتضامن الاجتماعي وإغاثة المسكين والفقير، ولاسيما عندما تحل سنوات المحل، والظواهر الطبيعية القاسية، وكان في مقدمة المحسنين الفقهاء والمتصوفة والعائلات الميسورة، وأهل الخير، وتعود أهل تلمسان على العواصف القوية التي كانت تحدث في آخر كل خريف خلال فصل الشتاء، مصحوبة بالبرد والصواعق والثلوج وهذا المناخ هو الذي كانت تتميز به مدينة تلمسان وضواحيها. فقد كانت أشد مدن المغرب الأوسط بردا وتجلدا[4] وهو مناخ يؤثر على الفلاحة ويفسد غلاتها ويعيق نمو الحبوب والخضر والفواكه

---

(1) أنس الفقير، وأعز الحقير، ص 105.

(2) بغية الرواد، ج2، ص 11، البستان، ص 174.

(3) بغية الرواد، ج1، ص 122، ابن مريم: البستان، ص 307.

(4) ابن مرزوق: المسند، ص 222، حسن الوزان: المصدر السابق، ج1، ص 65.

ويتلفها[1]، وهو السبب الذي جعل أهل تلمسان يتميزون بتخزين المؤن والمواد الغذائية ويحرصون على ذلك، فيخزنونها في المطامير والأهراء الكثيرة المعدة لهذا الغرض، والتي تحتوي عليها منازل تلمسان وقصورها ودورها.

الحروب والأزمات السياسية:

أما عن الحروب والفتن فهي آفة تفتك بأعداد كبيرة من السكان، فإنها كانت تنشب من حين لآخر، بين دولة بني زيان وبين جارتيها الحفصية والمرينية، في غالب الأحيان وهؤلاء كانوا يطمحون إلى بسط نفوذهم على بلاد المغرب كله فلم يرضوا بوجود الدولة الزيانية على أرض المغرب الأوسط، وهذا واضح من خلال الهجومات المتكررة لأبي يعقوب يوسف المريني على مدينة تلمسان في نهاية القرن السابع الهجري، الثالث عشر الميلادي، وتصميمه على ذلك في الحصار الطويل الذي دام نحو تسع سنوات وهو حصار كان له وقع شديد على سكان مدينة تلمسان بحيث أحاط العسكر بها من جميع جهاتها وضرب عليها سياجا من الأسوار واختط مدينة إلى جانبها ليأخذ بمخنقها فنال سكان مدينة تلمسان من الجهد والجوع، ما لم ينل أمة من الأمم "فاضطروا إلى أكل الجيف والقطط، وأشلاء الموتى" على حد تعبير ابن خلدون[2].وارتفعت أسعار المواد الغذائية والحبوب والخضر والفواكه وسائر

---

(1) ابن خلدون: العبر، ج7، ص 197-198، ابن الأعرج: زبدة التاريخ، ورقة 42.

(2) ابن خلدون: العبر 7، ص 229، وحول ارتفاع الأسعار يذكر نفس المؤلف بأن ثمن البقرة الواحدة ستون مثقالا والظأن، سبعة ونصف، والرطل من لحم البغال والحمير بثمن المثقال ومن الخيل بعشرة دراهم، والهر الواحد بمثقال ونصف والكلب بمثله والفأر بعشرة دراهم والدجاجة بستة عشر درهما البيضة الواحدة بستة دراهم، والعصافير كذلك والأوقية من الزيت باثني عشر درهما، ومن السمن بمثلها ومن الشحم بعشرين ومن الفول بمثلها ومن الملح بعشرة، ومن الحطب كذلك، والأصل الواحد من الكرنب بثلاثة أثمان المثقال، ومن الخس بعشرين درهما، ومن اللفت بخمسة عشرة درهما، والفقوس بأربعين درهما والخيار بثلاثة أثمان الدينار، والبطيخ بثلاثين درهما، والحبة من التين والإجاص بدرهمين. وعن الحصار انظر يحي بن خلدون: بغية الرواد، ج1، ص 211، التنسي نظم الدر، ص 132، ابن الأعرج: زبدة التاريخ ورقة 42، ابن الأحمر: روض النسرين، ص 50، حسن الوزان: المصدر السابق، ج2، ص 17-18. Gat (E): Petite histoire de l'Algerie Tunisie Maroc avant 1830 Alger 1888 T.1, p 209.

المرافق غلاء تجاوز حد المألوف[1]، فاستهلك الناس أموالهم ومدخراتهم وضاقت أحوالهم فكان الهالك بالجوع أكثر من الهالك بالقتل[2]، وأطلق المرينيون أيديهم على المنازل "نهبا واكتساحا"[3]، وأصدروا أمرا بقتل كل من يدخل بضاعة أو مواد غذائية إلى مدينة تلمسان[4]، فتضرر السكان من داخلها لانعدام الأقوات باستنفاذ المخازن فلم يطق السكان تحمل هذه المجاعة[5]. فمات منهم خلق كثير، وهرب من استطاع الهروب من بين الأسوار متسترا بجناح الليل، ولم يبق منهم داخل المدينة إلا نحو ألف جندي مقاتل وبضعة مئات من السكان من بينهم أمراء بني زيان وحاشيتهم وحريمهم[6]. وفي هذا الصدد يقول أحد المؤرخين: "فكم خربت فيها من ذمم، وكم هلكت فيها من أمم وكم انجلى من أهلها أعلام وكم كابدوا من محن فيها وانتقام"[7].

وهذا دليل على أن المدينة قد أصبحت خالية من سكانها الذين كان عددهم يفوق مائة وثلاثون ألف نسمة على أكثر تقدير[8]. ولم يبق فيها إلا بضعة مئات، ظلوا صامدين ضد الحصار يقاومونه بكل الوسائل.

ومنذ هذا الحصار تضاعفت أطماع بني مرين، إلى عاصمة بني زيان وتواصلت الحصارات، حتى لم يعرف أهل تلمسان الراحة حيث واجهوا حروبا متتالية مع بني مرين، الذين تمكنوا من الاستيلاء على مدينة تلمسان، نحو عشر مرات، خلال عهد بني زيان[9]. وكذلك لم تهدأ الجبهة الشرقية مع

(1) ابن خلدون: العبر، ج7، ص 197-198.

(2) نفسه، ج7، ص 197-198.

(3) ابن مرزوق: المجموع، ورقة 15.

(4) حسن الوزان، المصدر السابق، ج2، نص 18.

(5) التنسي: نظم الدر، ص 132.

(6) ابن مرزوق: المسند، ص 203.

(7) التنسي: المصدر السابق، ص 132، ابن خلدون: العبر، ج7، ص 199-200.

(8) نفسه، ص 132.- Brosslard (ch): op.cit, p 167

(9) Brosslard (ch): op.cit, p 83.

بني حفص، ولم يسدها الهدوء والوئام في أغلب مراحل تاريخ الدولتين[1] .فقد أهلكت هذه الحروب الكثير من أبناء تلمسان وأهلها[2]، وشردت العديد منهم إلى أقاليم أخرى من بلاد المغرب والمشرق[3].

ولا شك أن العمران هو الآخر قد تعرض إلى التهديم والإتلاف بسبب القصف بالمنجنيق والدبابات وبمختلف أدوات الحصار وآلاته، وقد أحزن السلطان أبا حمو موسى الأول رؤية خراب القصور والدور التي أنشأها وشيدها في عاصمته.

ومن خلال ما تقدم يتضح بأن سكان مدينة تلمسان تعرضوا للقتل والتشريد، وتعرضت أيضا ممتلكاتهم إلى التدمير، والتخريب إلا أن الجدير بالملاحظة هو أنه كلما انتهى الحصار تضاعف عدد السكان الذين صارت لهم خبرة ومهارة كبيرة في التعامل مع الشدائد والمحن، إذ تمرسوا عليها وأصبحت لهم القدرة على البناء والتعمير وترميم ما أفسدته الحروب في ظرف قياسي، لأن العمران أصبح في نظرهم رمز القوة والازدهار وأن ظاهرة نمو السكان والعمران، لها علاقة بقوة الدولة وازدهارها ويسر أهلها، بحيث يعيدون التعمير والإنشاء من جديد بعد رحيل العدو وعودة الأمن والهدوء والاستقرار.

---

(1) حسن الوزان: وصف إفريقيا، ج2، ص 8.

(2) أبو حمو موسى الزياني واسطة السلوك في سياسة الملوك، تحقيق وتقديم جميلة شتوي أطروحة لنيل شهادة الكفاءة والبحث كلية الآداب بمنوبة جامعة تونس 1989، ص 5.

(3) قتل في الحصار الطويل نحو 120 ألف نسمة وقتل في حصار أبي الحسن بين الفريقين نحو 80 ألف نسمة الزركشي: تاريخ الدولتين، ص 72-73.

الماء والمجتمع في المغرب الأوسط من خلال النوازل

مقدمة:

إن الفراغ الملحوظ في المصادر المونوغرافية التي تهتم بتاريخ المغرب الأوسط الإسلامي وحضارته، ولاسيما عندما يريد الباحث التعمق في البنية الاجتماعية والاقتصادية، والنسيج العمراني والحركة الفكرية والثقافية ومؤسساتها، وتزداد الصعوبة تفاقما كلما تصدى لمعالجة الجوانب الحضارية، لأن المادة التاريخية شحيحة، في الكتب التقليدية الأسطوغرافية باستثناء القليل منها، ولهذا توجه الباحث في حضارة المغرب الإسلامي، إلى مصادر أخرى غير تاريخية، لا تقل عنها أهمية وهي كتب الجغرافية والرحلات والمناقب والطبقات، وأحكام السوق وكتب النوازل[1] وغيرها من كتب التراث الفقهي، التي عالج فيها أصحابها مواضيع شرعية متنوعة حضارية تفاوتت حظوظها من حيث القيمة التاريخية، وما تضمنته من معلومات اجتماعية وثقافية واقتصادية وعمرانية، تلقي الضوء على جوانب عديدة للحياة الاجتماعية، فضلا عن المجاميع وكتب التصوف والأنساب والمراسلات والمعاهدات والظهائر وكتب الطب والفلاحة بعد استخلاص مضامينها وأبعادها التاريخية.وأن مؤلفي هذا النوع من المصنفات لم يكونوا في الغالب من مؤرخي البلاط، ومن هذا الجانب يمكن الاطمئنان إلى ما كتبوه لأنه أكثر توثيقية ومصداقية وموضوعية مع أخذ الحيطة والحذر من بعضها مثل كتب المناقب والتصوف، لما تتسم به أحيانا من المبالغات، أولما تتداخل فيه بعض المواقف والاعتبارات.

والظاهر أنه إلى عهد قريب كانت المصنفات الفقهية ولاسيما منها النوازل مهملة أو منسية أو غير واضحة بالنسبة للمادة التاريخية، لدى بعض الباحثين

والدارسين الذين كانوا يعتبرونها مصادر جافة بعيدة عن مجال التاريخ، وأنها تعكس بنية اجتماعية واقتصادية وثقافية بطيئة التطور وجامدة، ولم يروا فيها إلا شكلا من أشكال الأدب الفقهي، طغت عليه كثرة الاستفسارات والأسئلة الواقعية، والأجوبة والمطارحات الفكرية بين الفقهاء.

بينما أشاد بها البعض الآخر وجعلوها الملاذ الوحيد، الذي يعوض نقص المصادر التاريخية للمغرب الإسلامي، في المجال الاجتماعي والاقتصادي والثقافي والعمراني.

وقد تفطن إليها الباحثون الغربيون قبل غيرهم، وأشاروا إلى مادتها الموضوعية والهامة منذ النصف الأول من القرن العشرين، واستغلوها في بعض دراساتهم لأنهم كانوا يعتمدون على المصادر الدينية المسيحية، في كتابة تاريخهم، الاقتصادي والاجتماعي، الذي عرفه العالم المسيحي في العصور الوسطى، ولعل أول من تفطن لكتب النوازل الفقهية، واستعملوها كمصادر للتاريخ، واهتموا بها هم المستشرقون، ربما لأنهم كانوا يعتمدون على المصادر الدينية المسيحية في كتابة تاريخهم، وفهم أوضاع مجتمعهم التي عرفها العالم المسيحي في العصور الوسطى، وهي الفترة التي كان يطغى عليها الجانب الديني وسلطة الكنائس، مستندين في ذلك على ما لديهم من مصادر وثائقية كبيرة، مكنتهم من كتابة تاريخهم الاجتماعي والثقافي والعمراني والاقتصادي والسياسي، ومعرفة أغلب أشكال أنظمة المجتمعات الأوروبية، وتتمثل هذه الوثائق والمصادر في سجلات الكنائس والأديرة، وبلاطات الملوك والأباطرة ووثائق القلاع الإقطاعية، وعلى ما كان محفوظا في المراكز التجارية، من أرشيف يتضمن أرقاما عن الصادرات والواردات وبأسماء التجار، وأخرى عن المواد والسلع والأسعار، ومن خلال هذه المعطيات يتمكن الباحث، من الخروج ببعض الأبحاث والنتائج عن وضعية السكان وطبقاتهم وأصنافهم وظروف معيشتهم.

فقد أشار إلى أهمية النوازل كمصدر من مصادر التاريخ الاجتماعي والاقتصادي والثقافي والعمراني، أميل أمار، وليفي بروفنسال وروبير برونشفيك، وهادي روجي إدريس، وجارك بيرك.وغيرهم ممن نبهوا إلى أهمية هذه المصادر الفقهية.

وقد أدرك الباحثون في الآونة الأخيرة أهمية كتب النوازل، وكتب الفقه الأخرى لما تختزنه من مادة تاريخية موضوعية وظهرت أبحاثا جيدة في المغرب وتونس وفي الجزائر أيضا اعتمد أصحابها على النوازل ولاسيما منها موسوعة المعيار للونشريسي، الذي جمع مادة خاصة بنوازل المغاربة والأندلسيين، تضمنت مادة علمية غزيرة للمؤرخ لأن فتاويه تتميز بوثائق ذات قيمة معتبرة، لا نجدها في النوازل المغربية الأخرى، التي ربما تعرضت للحذف أو الغربلة أثناء جمعها ونسخها، ولكثرة من ألفوا فيها من فقهاء المغرب الأوسط، أصبح هذا الأخير يعرف بموطن النوازل الفقهية المالكية. ولهذا يمكن اعتبار النوازل من المصادر الهامة التي توفر الوثيقة التاريخية، شريطة أن يوفر لها الباحث أدوات منهجية، يطوع فيها النص الفقهي النوازلي إلى نص تاريخي.

أهمية الماء للإنسان:

كانت للماء ولا تزال علاقة جدلية، مع الإنسان طوال وجوده على الأرض، بما يتميز به من حيوية، ومنافع أساسية لحياة الإنسان، ولجميع الكائنات الحية، ففي حالة توفره ينعش الحياة، وفي حالة ندرته يصنع الموت والآفات، وتحل الكوارث والنكبات، على الإنسان والحيوان والنبات، وتتعقد الحياة، وإذا زاد عن حده انقلب إلى ضده، فكل شيء خلق بمقدار، لأن قلته تتسبب في جوائح القحط، وكثرته تتلف الحقول وتخرب العمران.

فلهذه المكانة والخاصية التي يتميز بها الماء، أخذ حيزا كبيرا في الذكر الحكيم، حيث ذكره القرآن في مواضيع مختلفة وفي آيات عديدة، ذات

الدلالات الوجودية مثل قوله تعالى: "وهو الذي خلق السماوات والأرض في ستة أيام، وكان عرشه على الماء"[1].وقوله عز وجل: "وجعلنا من الماء كل شيء حي"[2] وتشير هذه الآية إلى أن الماء هو أصل الحياة ومنبعها، فلا حياة للمخلوقات، ولا استمرار لها بدونه لأن جسمها يتشكل بنسبة كبيرة منه.

وقد تمكن أحد الباحثين، من إحصاء عبارة "الماء" التي وردت في القرآن الكريم، فوجدها في (63) ثلاثة وستين موضعا، وذكر فيه لفظة "المطر" و"الأنهار" و"العيون" (214) مائتين وأربع عشرة مرة وتحدث القرآن عن إنزال الماء من السماء (24) أربعا وعشرين مرة، وذكر آية "وأنزلنا من السماء ماءا"[3] (4) أربع مرات وأعطى القرآن الكريم للماء (14) أربع عشرة صفة"[4].

واعتنى به الأطباء والحكماء والصيادلة منذ القديم، وعددوا أنواعه وفوائده، في استعمال الأدوية المركبة والمفردة[5] وشبهوا جسم الإنسان بالكون وجعلوا الماء أحد عناصره، وربطوا قدوم الأوبئة والطواعين بتلوثه وندرته، ولهذا كان اهتمامهم به كبيرا، ووضحوا ذلك في أبحاثهم ومصنفاتهم، واعتبروه مادة ثمينة، وأعدوه أحد أركان الكون الأصلي.وذكروه بأنه أحسن العناصر بعد الهواء[6].

---

(1) سورة هود، الآية: 7.

(2) سورة الأنبياء، الآية: 30.

(3) سورة الفرقان، الآية: 78.

(4) حميد لحمر: اهتمام الفقهاء بموضوع الماء وأقسامه، مجلة دعوة الحق ع/ 392.س/ 51. الرباط 2009، ص 20 وما بعدها.

(5) يقصد الصيدلة بالأدوية المفردة، التي تعتمد على عنصر ومادة واحدة، أما المركبة فيقصدون بها المواد العديدة التي تدخل في تركيبها.

(6) هذه العناصر هي: الماء، الهواء، النار، التراب، انظر البيضاوية بلكامل: الماء وأنواعه واستعمالاته في المداواة من خلال كتاب "أمراض المريء والمعدة" لأبي بكر الرازي، مجلة دعوة الحق ع392.س/ 51 الرباط ماي 2009، ص 131.

أهمية الماء لصحة الإنسان:

عدد الطبيب الرازي أنواع الماء وأصنافه، ووضح كيفية استعماله في تركيبة الأدوية في الصيدليات والمستحضرات الطبية والمداواة به.فالماء أحد مكونات الأدوية والعلاج، بحيث يشكل في الدواء ثلاثة أرباع المستحضر، في حين باقي العناصر الممزوجة فيه لا تتعدى الربع[1].

وذكر الرازي، بأن الماء الطبيعي، بمختلف درجات حرارته فالبارد والشديد البرودة، والمعتدل والدافئ والحار، مفيد لجسم الإنسان، ويدخل في علاجه، فمن فوائده، يساعد على الهضم ويتمه.والماء المعتدل يعالج فقدان الشهية، ويذهب مغص الريح.أما الماء البارد فيسكن العطش ولكنه يضر بالمريء. ويصلح الماء الشديد البرودة للقيء الناتج عن البلغم أو ضعف المعدة ويعالج الماء الحميّ، والأطعمة الفاسدة والإسهال والغثيان، ويزيل الحموضة ويداوي مرض المفاصل، ويرطب الغذاء في المعدة، وأن الماء المفرط في البرودة يلهب البلعوم والمعدة[2].

كما حدد الأطباء المسلمون الأوقات المناسبة لشرب الماء، وكذلك الكيفية والكمية، وترتيب الشرب، حتى يزيد من فعاليته الطبية، وحذروا من شرب الماء أثناء الاستيقاظ من النوم، وعقب الجماع، والصوم أو بعد أكل الفواكه، لأن تناوله في هذه الأوقات يتسبب في "قرح العصب" ويضعف الجسم والكبد وييبس المزاج، واعتبروا الشرب في الليل غير محمود.ولا أثناء الرياضة القوية، ولا بعد تصبب العرق المفرط، ولا أثناء الاستحمام ولا بداخل الحمام[3].

---

(1) المصدر السابق، ص 138.

(2) ابن القيم الجوزية: الطب النبوي، دار الفكر بيروت، ص 302 - ابن البيطار: الجامع لمفردات الأدوية والأغذية م/ 4، ص 127 - انظر أيضا: البيضاوية: المرجع السابق، ص 132-133.

(3) سعيد بن حمادة: الماء والإنسان في الأندلس، دار الطليعة بيروت 2007، ص 229 وما بعدها.
انظر أيضا: ابن خلصون: كتاب في الطب، مخطوط، الخزانة العامة الرباط رقم 1204 ك.
ابن الخطيب: الوصول لحفظ الصحة في الفصول، ص 119-120.

وفضلوا الشرب قعودا، لأن الماء يستقر في المعدة، بعض الوقت، ويمكّن الكبد من توزيعه على أعضاء الجسم وأما الذي يقوم بشرب الماء واقفا، فيتسبب في نزول الماء إلى المعدة بسرعة من غير تدرج، فيقوم بتبريد حرارة المعدة الغريزي، ويقع الانسداد في مجرى الشرب لكثرة اندفاع الماء[1].

ونصح الأطباء بعدم شرب ماء الآبار لاحتقانها ورداءتها واستعدادها لقبول التلوث.فتسبب الضرر للأمعاء والتسمم، واعتبروا ماء العيون التي لها مجرى، وتنبع من تربة طفلية لا جبلية ولا سبخية، فهي مياه ذات جودة وعذوبة وخفة[2].

وحدد علماء الطب والصيدلة أنواع المياه وفعاليتها لصحة الإنسان وميزوها بالتأكيد على أن خير المياه وأحسنه ما كان لونه صافيا بدون رائحة، وطعمه عذبا، ووزنه خفيفا ومنبعه بعيدا ومسلكه طيبا، وجريه وحركته سريعتين، وتدخله الشمس، ويتخلله الريح، ويكون صبيبه غزيرا يمنعه من التلوث والفساد، ويكون اتجاهه من الشمال إلى الجنوب ومن الغرب إلى الشرق[3].

الأهمية الصحية للاستحمام بالماء:

تتضمن أحياء المدن والحواضر الكبيرة على العديد من الحمامات، موزعة على دروبها وأزقتها وحاراتها، ففي كل حي تقريبا حماما يلجأ إليه الرجال والنساء للاستحمام والطهارة.والاغتسال فيه ظاهرة قديمة، عرفتها الشعوب القديمة ووصلت هذه العادة إلى المسلمين الذين تفننوا في بنائها والإكثار منها.بالرغم من اختلاف الفقهاء في إجازة بنائها، وتداول ملكيتها، لأن البعض منهم يستنكر الاستحمام في الحمام، لما يترتب عليه من كشف

(1) سعيد بن حمادة: المرجع السابق، ص 229-30.
(2) ابن البيطار: المصدر السابق، ص 4، ص 408 - ابن الخطيب: المصدر السابق، ص 118، سعيد ابن حمادة: المرجع السابق، ص 227.
(3) ابن الخطيب: المصدر السابق، ص 43-44 ، سعيد بن حمادة، المرجع السابق، ص 226.

للعورات. غير أن واقع العادات الاجتماعية وتأصله في وسط المسلمين، فرضت نفسها، فتجاوز الناس عن هذه الموانع، من جهة ولأن الطهارة محمودة، ألحّ عليها الإسلام[1].

وأصبحت هذه المؤسسة الاجتماعية والصحية والاقتصادية، مرتبطة ارتباطا وثيقا بالنظافة والطهارة، التي لا يستغنى عنها المسلم، ولا يمكنه أداء فرائضه الدينية إلا بها.

أما مالكي القصور والدور الكبيرة من الطبقة الميسورة، فكانت تتوفر على حمامات خاصة في منازلها، لأن الحمامات تؤدي وظائف صحية ونفسية ودينية، وتؤكد المصادر الطبية على الأهمية الصحية للاستحمام بالماء وأجمعوا على أنه ينقي الجلد من الأوساخ، ويطهر البدن من الشوائب، ويفتح مسامه حتى تتخلل الأبخرة من الجسم، وينمي البدن ويرطبه، ويزيد من حرارته الغريزية، ويسعد النفوس ويذهب الكآبة والحزن[2].

ويذكر بعض الأطباء بأن الماء الحار يقوي المعدة ويداوي النوبة، وينفع الأعضاء، أما الماء المفرط في البرودة أثناء الاستحمام. فإنه يجمع ظاهر الجسم، ويضم مسامه ويضيقها، واستحسنوا الماء المعتدل البرودة في الاستحمام، وإذا جاء الأرق للإنسان أو أغمي عليه أو فقد الشهية، فرشه بالماء يكون مفيدا. ودعوا لشرب الماء بكثرة لأنه لا يضر[3].

---

(1) الونشريسي: المعيار المعرب، ج6، ص 418-419. (محمد حجي وآخرون) إن المسلمين ملتزمون بالطهارة والنظافة، عكس ما يذكر عن المسيحيين في أوروبا، الذين لا يتطهرون ولا يغتسلون إلا مرة واحدة أو مرتين في العام، بالماء البارد، ولا ينظفون ثيابهم حتى تتهرّى على أجسامهم، لأنهم يعتقدون أن "الوضر الذي يعلوها من عرقهم به تتنعم أجسامهم ويصلح أبدانهم" انظر سعيد بن حمادة: المرجع السابق، ص 230.

(2) ابن الخطيب، المصدر السابق، ص 122-123.

(3) ابن الجوزية: المصدر السابق، ص 302 وما بعدها، البيضاوية بلكامل: المرجع السابق، ص 431.

ويشير ابن خلدون إلى أن المتمتعين بالحمامات، إذا تنفسوا في هوائها واتصلت حرارة الهواء بأجسامهم، فتسخنها فيحدث لهم عامل نفسي وهو الفرح، مما يؤدي بالكثير من المستحمين إلى الغناء بسبب هذا الفرح الذي يصيبهم داخل الحمام[1] .ولعل هذه الحالة من العوامل الهامة التي جعلت الرجال والنساء، يتوافدون على هذه المؤسسة الاجتماعية كل في وقته.

ووضع الأطباء شروطا ومراحل للاستحمام بالحمام، بحيث حثوهم على اختيار الأوقات المناسبة، ولا ينصحون بدخول الحمام في يوم شديد الحر، لأنه يتسبب في يبس البدن، ولا يدخلونه أيضا في يوم شديد البرد والرياح، لأنه يسبب النزلات البردية عند الخروج، ولا أثناء امتلاء المعدة، فإنه يؤدي إلى السدد والحمى العفونية، ولا على جوع، فإنه أيضا يقوم بيبس البدن وإفراغه من الماء.ويقوي حرارته ويولد الحمّى، ولا بأثر الجماع ولا فصادة، ويمنع منه من له إسهال، ولا قليل النوم، ولا المتعب، وينصحون بدخول الحمام على خلاء المعدة، وعلى الذي يتمتع بقوة ويتوفر على نشاط النفس، ويستحسنون الاستحمام وقت اعتدال النهار واعتداله يكون في صحوته[2].

كما نصحوا بالتدرج في الاستحمام ودخول البيوت الثلاث، وتجنب طول الإقامة في البيت الحار، ولا يتجرد المستحم إلا في البيت الأول، ويكون المكوث فيه قليلا، واستعمال الماء المكسور يكون برده مشابها لحرارة هوائه، ولا يستعمل الماء البارد في البيت الحار، ولا الحار في البيت البارد، ثم الدخول إلى البيت الثاني والجلوس فيه عندها يمكن أن تصب ثلاث غرفات من الماء الحار على الرأس وتكون حرارته أقصى ما تتحمله، ولا ينصح بصب البارد أو الفاتر لأن البارد يسده والفاتر يرخيه، ويهيئه للإصابة بالنزلات وقبول الزكام.

---

(1) المقدمة، دار الجيل بيروت، ص 96 وما بعدها.

(2) ابن خلصون: المصدر السابق، ورقة 103، ابن الخطيب: المصدر السابق، ص 126.

أما الحار فإنه يمده ويفتح مسامه، لخروج الأبخرة من الجسم، التي تتحرك بحرارة الحمام.فيؤمن من الصداع.ويستعمل الماء الفاتر الرطب الذي يتشابه مع حرارة البيت وهوائها[1].

وفي البيت الثالث الحار يمكن غسل الرأس، ولا يمكث فيه إلا بقدر الوقت الذي يغسل فيه الرأس، ويصب على الجسم الماء الحار الذي يتناسب ويتشابه مع هواء البيت.وإذا أصاب المستحم الضعف أو الصداع، أو أدركه الحر وغلب عليه، فليغسل وجهه بالماء البارد .

ثم يقم بمشط رأسه في البيت الحار، ويخرج بعد ذلك إلى البيت الوسطى، لينتقل إلى مرحلة التدليك.يقوم بذلك الدلاك "الطياب" ويمده مدا رقيقا، ويزيل وسخه بالتدليك وبالصابون والمواد المزيلة لذلك.وينصح بعدم التشديد في الدلك وخاصة بالأظافر فلعل ذلك يؤذي الجسد، وبعد الفراغ من الدلك يكثر من صب الماء الفاتر حتى ينقي الجسم.فبعد هذه المراحل يخرج المستحم إلى البيت البارد ويجلس فيه بعض من الوقت ولا يصب على جسده الماء الرطب المشابه لهواء البيت ومناخها[2].

وإذا كان فصل الحر والجونقيا من الأخلاط، فيمكن للمستحم أن يغسل بالماء البارد، دون الرأس، لأن الاغتسال بالماء البارد في آخر الحمام، يعدل حرارته ويرطب البدن، ويصرف الحر إلى باطن البطن لتحليل ما بقي من الفضلات في الجسم، وينشط النفس وينبه الحواس ثم يقوم بغسل الرجلين في مكان نزع الألبسة (المسلح) بالماء البارد ويخرج بعدها خارج الحمام نحو ساعة حتى تسكن الحرارة وتهدأ النفس، ويعود المستحم إلى حالته الطبيعية[3].

---

(1) ابن خلصون: المصدر السابق، ورقة 103، انظر أيضا: سعيد بن حمادة: المرجع السابق، ص 230-232.

(2) ابن خلصون: المصدر نفسه، ص 103.

(3) نفسه، ورقة 103.

وإلى جانب ظاهرة الحمام، فهناك أيضا ظاهرة الاغتسال في الحامات وهي أماكن يتوفر فيها الماء المعدني الطبيعي الكبريتي الحار بطبعه، تستقطب الناس لفوائدها الكثيرة، وتوجد هذه الحامات بأعداد كبيرة في المغرب الأوسط، من شرقه إلى غربه ومن شماله إلى جنوبه، كحمام قالمة، وتبسة، وسيدي محمد لغراب بقسنطينة، وباغاي (خنشلة) والتلاغمة وحمام بني هارون، فضلا عن حمام قرقور، وفي تلمسان وبسكرة، وغيرها من الحمامات المعدنية الكبريتية.فكان الناس يقصدونها للطهارة والاغتسال وللتداوي أيضا.وكذلك للتنزه فيها، وقد أصبحت في الوقت الحاضر مراكز استشفائية وسياحية، فالمياه المعدنية الكبريتية مفيدة لعلاج بعض الأمراض الناجمة عن البرودة في المناخ، وينفع في علاج العصب خاصة إذا جلس فيه المستحم ويساعد على علاج الأمراض الجلدية والمفاصل[1].

خصائص الماء ومصنفاته:

درس العلماء ولاسيما منهم المهتمين بالفلاحة والتربة والمناخ، خصائص الماء وصنفوه إلى عدة أصناف وأنواع، فابن بصال تحدث عنه في كتابه الفلاحة، وتعمق في دراسته بحيث جعله "جامع لمعادن غريبة ومنافع جسيمة"[2] وقسمه إلى أربعة أصناف هي: "ماء المطر، وماء الأنهار، وماء العيون وماء الآبار"[3].ويعني أن ماء المطر يتميز بالجودة والرقة والعذوبة والرطوبة والاعتدال، ويوضح ابن بصال، بأن ماء السماء هو أفضل المياه على الإطلاق بجميع أجزائه، ولا يبقى له على وجهها أثر حسب صاحب كتاب الفلاحة[4].

---

(1) ابن البيطار: المصدر السابق، ج1، ص 64، سعيد بن حمادة: المرجع السابق، ص 233.

(2) كتاب الفلاحة، ص 39.

(3) نفسه، ص 39.

(4) نفسه، ص 39.

ورتبه أبو الخيّر الإشبيلي (499هـ/ 1105م) في مصنفه الفلاحة في المرتبة الثانية بعد التربة بقوله:"فتخير الأرض ثم استنباط المياه لأنها أساس العمل"[1].

وسار على نفس المنوال، ابن حجاج الأشبيلي في كتابه المقنع في الفلاحة بقوله: "إن المرحلة التي تعقب تخيّر التربة هي أن نبحث على الماء الذي لا حياة لحيوان دونه"[2].ويؤكد الطغنري محمد بن عبد المالك (ت 480/ 1087) في كتابه "زهر البستان ونزهة الأدهان" بقوله: "بأنه (أي الماء) لا يصلح عيش حيوان ولا نمو نبات إلا بالماء"، وميز بين مختلف المياه على أساس معيار الأصل والهواء والأرض[3].

وصنفه ابن ليون في كتابه الاختصاصات بقوله: "وخيرها ماء السماء ومياه الأنهار الجارية، ثم ماء العيون وماء الآبار"[4].بينما جعله الفرسطائي في خمسة أصناف هي: "ماء المطر، وماء الأودية، ومياه الآبار والمواجل والغدران"[5]، ويتضح مما سبق أن موضوع الماء، اهتم به العلماء ونخبة مجتمع المغرب الأوسط لأهميته وفوائده المتعددة، وأن التعامل مع الماء يوميا، واستخدامه في المجالات المختلفة، ميزت الفوارق الاجتماعية، بين سكان المدن والحواضر الكبيرة المرتبطين بالعمران المائي، الذي يعيشه الأمراء وعلية القوم[6].

أما في المجتمع الريفي والبوادي، وهي الفئة الأكثر انتشارا في المغرب الأوسط فكان عمله وتعامله مع المزارعة والمغارسة والسقي، جعله يعتمد على

---

(1) عبد الهادي البياض: الموارد المائية بالمغرب والأندلس خلال العصر الوسيط بين التصنيف الفلاحي والتوزيع الجغرافي،مجلة دعوة الحق، ع/ 392 س/ 51 الرباط ماي 2009، ص 80.

(2) نفسه، ص 80.

(3) زهرة البستان مخطوط بالخزانة العامة، الرباط رقم د/ 1260 ورقة 18-40.

(4) اختصارات في كتاب الفلاحة، ص 81.

(5) كتاب القسمة وأحوال الأرضين، ج5، ص 27 وجاء في بيت من شعره حول الماء.
والماء بالنظر للفلاحة أنواع أربعة قد عدت.

(6) سعيد بن حمادة: المرجع السابق، ص 210 هـ 4.

الماء لجلب قوته وقوت عياله، وأن عناءه الشديد للحصول على الماء، تتمثل في الأمثال الشعبية، التي تعبر بصدق عن واقع الفلاحة والفلاحين في البوادي والأرياف، وتنعكس عن وجود الماء وانعدامه في حياة الناس ولذلك قالوا: "الرزق في البير" و"أربعة أشياء جعلها الله رخيصة مع جلالة قدرها وعظيم خطرها، الماء والملح والزجاج، والشّعر أهونها".

وقالوا: "من قاد الماء قاد الغنا" و"إذا ريت الخوخ والرمان فكر في ثيابك أيها العريان"، ويعني ذلك قرب نزول المطر وانخفاض الحرارة، فهيء نفسك لهذه الظروف، "وإذا ريت التين أبشر بالطين"، ويقصد به قرب قدوم الخريف، وهو الفصل الذي تبدأ فيه الفلاحة والحرث "وإذا ريت الضباب أبشر بالطياب" و"إذا ريت بالغدو، خل دوابك يرقد" و"إذا ريت بالغشي يسر دوابك للمشي" ويعني أن الجو إذا كان رديئا، فلا ينبغي عليك السفر، و""غذوة مارس وغشيت إبريل تشيب الأمير" يعني أن هذه الأشهر تكون طويلة ربما يجوع فيها الناس"[1] وغيرها من الأمثال الشعبية الكثيرة التي تعبر عن واقع الريف والبادية[2].

مصادر الماء في المغرب الأوسط:

أجمعت مصادر المغرب الأوسط ولاسيما منها الجغرافية وكتب الرحالة، على أن المغرب الأوسط يتميز بوسط طبيعي ومناخ وتضاريس متنوعة عبر أقاليمه المختلفة، وتحدثوا عن الجبال والسهول والهضاب والسهوب والصحاري وعن الغطاء النباتي، ووفرة المزروعات والمغروسات، من قمح وخضر وفواكه

---

(1) سعيد بن حمادة: المرجع السابق، ص 210هـ/ 5 و2-3، ص 11.

(2) انظر الزجالي ريي الأوام ومرعى السوام في نكث الخواص والعوام القسم 2 أمثال: 17-19-56-532-5625.

انظر أيضا سعيد بن حمادة: المرجع السابق، ص 210 وما بعدها.

وزيتون، وغيرها من المغروسات، وذكروا تعدد مصادر المياه، وحددوها بالأمطار والوديان والأنهار والعيون والآبار والصهاريج والجباب والمواجن.

وذكروا وديان كثيرة تعبر هذه الأقاليم، وأن أهل المغرب كانوا يعتمدون على هذه الوديان، التي توجد على سطح الأرض، وأخضعوها للسقي والشرب خدمة للمجتمع الحضري والريفي[1] وهي وديان تتغذى من الأمطار في نهاية الخريف وفي فصل الشتاء وجزء من فصل الربيع وخاصة على السواحل وجبال التل والهضاب والسهوب، ثم تنخفض كميات تساقط الأمطار كلما توجهنا نحو الجنوب إلى السهوب والصحاري، وأن هذه الأخيرة يكتنفها الجفاف في معظم الفصول.وكذلك تتغذى الوديان من العيون الجارية.

والظاهر أن المناخ والتضاريس والطوبوغرافية في المغرب الأوسط غير منسجمة في عمومها، فصبيب العيون والأنهار متفاوتة، بسبب اختلاف كميات تساقط الأمطار، من إقليم إلى إقليم ومن سنة إلى أخرى، فالدراسات الجغرافية تشير إلى أن ظاهرة تساقط الأمطار تكون بغزارة في السفوح الشمالية والتي تتراوح ما بين 1000 و800 مم في السنة، وهي كميات خاصة بجبال الأطلس الموازي للمنطقة الساحلية، وتقل هذه الأمطار في منطقة السهوب والصحاري المكرسة للحياة البدوية المتنقلة بحيث يتراوح تساقطها ما بين 200 و400 ملم في السنة[2].

فهذه الاختلافات الطبيعية تؤثر على الشبكة المائية في المغرب الأوسط سواء كانت سطحية أو جوفية، وهي المشاكل التي يعاني منها الفلاح وملاك الأرض وتشكل لهم هاجسا كبيرا[3].

---

(1) فاطمة بلهواري: وسائل الري وطرقه في بلاد المغرب خلال القرن 4 هـ/ 10م، مجلة دعوة الحق، ص 42.

(2) انظر: Despois (j) l'afrique blanche P.155 ، محمد بن عميرة: المرجع السابق، ص 93.

(3) عمر بنميرة: النوازل والمجتمع مساهمة في دراسة تاريخ البادية بالمغرب الوسيط الرباط 2012، ص 270.

ترك لنا بعض الجغرافيين والرحالة خريطة مائية فلاحية، غير أن ما تركوه من معلومات يمكن اعتبارها محدودة، لأنها تخص المناطق التي زاروها ووقفوا عندها[1].

إن الحاجة للماء جعلت الفلاحين يحاولون تسخير الوسط الطبيعي حسب حاجتهم لاستغلال الماء الموجود في التلال والسهول والهضاب والواحات والمنحدرات الجبلية، من ماء مطر وأنهار، ومياه جوفية وعيون، وتمكنوا من إخضاع إقليمهم إلى نظام الري والسقاية[2].

تشير بعض المصادر الوسيطية إلى العديد من الوديان والأنهار في المغرب الأوسط، والتي استعملها الفلاحون في سقي حقولهم وبساتينهم، فذكروا بأن إقليم بني راشد، يتوفر على سهول وأراضي صالحة للزراعة، يكثر فيها الكروم ويقومون بسقيه من العيون والوديان، وبالقرب من مدينة البطحاء سهل ينبت الحبوب والقمح بكمية كبيرة.ويجري بقربها نهر صغير على ضفافه بساتين وحقول في غاية الخصب، ويحيط بمازونة أراضي زراعية جيدة تعطي غلة حسنة، ويوجد بالقرب من جزائر بني مزغنة العديد من الجنائن والبساتين والأراضي المغروسة بالخضر والفواكه، وبضواحيها سهل متيجة الخصب الذي يزرع فيه القمح بكثرة، ويمر بشرقها نهر نصبت عليه طواحين، ويتزود منه السكان بالماء الصالح للشرب.

ويعتمد سكان شرشال على فلاحة الأرض ويكثر عندهم شجر التوت، يعتمد في سقيه على ماء المطر، وبعض العيون والآبار[3].وكذلك مدينة يرشك تنعم بالمياه الجارية والآبار العديدة.وبمدينة تنس آبار عذبة[4].

---

(1) Solignac (M): remarque de méthode sur l'étude des installations hydrauliques ifriquiennes du haut moyen-âge cahier de tunis 1932 pp 26-36.

(2) Slow (BD): Water and society in the ancient maghreb 1984 N : 120 P 163.

Vanacher (L): geographie économique de l'afrique du nord in annales S.E.C 1973 P 672

- محمد بن عميرة، المرجع السابق، ص 280.

(3) انظر حسن الوزان: وصف إفريقيا، ج2، ص 159.

(4) ابن حوقل: صورة الأرض، ص 77 – البكري: المغرب، ص 77.

وبداخل مدينة المدية عدة سقايات، وسكانها يغلب عليهم الطابع الفلاحي وصناعة النسيج والخراطة وأواني الخشب، لوفرة الأشجار المسقية بالعيون الكثيرة. ويخترق مدينة مستغانم جدول ماء (العين الصفراء) يحرك الطواحين ويسقي الفلاحة. تحتضن مدينة أرشقول مياه عذبة ومواجن كثيرة، ويصحن مسجدها جب من الماء[1] ويوجد على ضفاف النهر القريب من مدينة ندرومة، بساتين كثيرة وطواحين عديدة، وتقع مدينة أرشقول في منعرجات وادي تافنة" الذي يسقي سهول كبيرة ويصب في البحر[2]. فضلا عن وادي ملوية، في أقصى غرب المغرب الأوسط، ووادي "زا" على سهل البطحاء، ويسقي نهر الشلف سهول تلمسان وعلى ضفافه حدائق وجنات وكروم كثيرة[3] ويسقي وادي الشفة سهول متيجة ويتصل بالوادي الكبير. ثم يصب في واد "الحر" قرب القليعة، ويتكون منه وادي مازفران الذي يصب في البحر. ثم وادي حمير الذي يصب في خليج الجزائر، وكذلك الوادي الكبير أو الصومام، الذي يمر بالغرب من بجاية، ويسقي الحقول والمغروسات في المنطقة، ويزود الكثير من المزارع والسهول، وبالقرب منه العديد من العيون العذبة الغزيرة الجريان.

وتنبع من جبال عنابة عدة عيون عذبة كونت جداول ماء تخرق السهول الكائنة بين الكتلة الجبلية والبحر[4].

أما من الجهة الشرقية فنجد ثلاث أودية في قسنطينة عند قدميها نهر "سوفغمار" ومعناه الرمل أي وادي الرمل، حيث يصب فيه وادي بومرزوق ووادي الكبير، وتوجد على طول الأودية بساتين وحقول زراعية خصبة، ويغسل سكان قسنطينة ثيابهم في هذا النهر عبر درج منحوت بالحديد، بالقرب

---

(1) ابن حوقل، ص 78.

(2) حسن الوزان: المصدر السابق، ص 16-40.

(3) الإدريسي: القارة الإفريقية، ص 159.

(4) البكري: المغرب، ص 70، حسن الوزان: المصدر السابق، ج2.

منه يوجد حمام مكون من عين ماء حامية كبريتيه، يتدفق ماؤها من بين أحجار ضخمة، وكان نساء قسنطينة يتبركن بعين الحمام فيقدمن لها القرابين، يذبح "دجاجة عليها، بالقرب من العين الحارة توجد عين باردة تحكي أساطير وخرافات شعبية عنها"[1].ويجلب الماء للمدينة على قناطر تشبه قناطر قرطاجنة، يأتيها من عين بومرزوق وعين الفسكية، وبها مواجل وصهاريج في أعالي المدينة كالقصبة وكدية سيدي عاتي، ومنها إلى القصور والمنازل والمساجد والمدارس والزوايا والساحات العامة والنافورات كما توجد جابية ماء بالقرب من باب الجابية يخزن فيها الماء، وبداخل المدينة وبالقرب من سورها عين بها ماء غزيز يسقي السكان منها، وخاصة أيام الحصارات[2].

وذكر مرمول عين حمام سيدي لمسيد، التي أثارت حولها قصص شعبية أيضا وعين عمر الوزان التي تقع بالقرب من مسجده، غزيرة التدفق وماؤها عذب وبارد، فضلا عن عين محمد لغراب في ضواحي قسنطينة التي يقدم لها هي الأخرى القرابين من الدجاج والديكة تستحم فيها النساء للتفاؤل بها.وحولها حقول وبساتين وأراضي خصبة، وكانت هذه الضواحي هي التي تمون سكان قسنطينة بما يحتاجونه من خضر وفواكه[3] وكذلك حامة بوزيان الكبريتية الدافئة للاستحمام وسقي البساتين. وفي ميلة عين جارية يجلب ماؤها من جبل بن باروت، يخترق سوقها، بها حمامات، وبها عين أخرى تعرف بعين الحمي يرش بها على المريض بالحمى فيبرأ بفضل بركتها وشدة برد مائها[4] يستعمل ماؤها لمختلف حاجات السكان، وبالقرب منها الوادي الكبير وتقع مدينة عنابة على نهر سيبوس الدائم الجريان يسقي حقولها الشاسعة وسهولها

---

(1) الاستبصار، ص 165-166، الحميري: ص 480-481.

(2) نفسه، ص 166، عبد العزيز فيلالي: مدينة قسنطينة دار الهدى، ص 23.

(3) إفريقيا، ج2، ص 299 – حسن الوزان: المصدر السابق، ص 58-59.

(4) حسن الوزان: المصدر السابق، ص 62-63.

الواسعة، ويجتمع فيه عدة أودية وادي شرف ووادي بوحمدان ووادي زناتي، ويصب في البحر. وتوجد بالمدينة صهاريج عديدة يخزن فيها ماء المطر[1].

وبالقرب من مدينة تبسة يسيل نهر عظيم يخترق جزء من المدينة يستفيد الفلاحون والسكان من مائه[2]. ويجري نهر نكاوس بماء كبير، ينبت على ضفافه شجر التين والمشمش والجوز وبها سهول لزراعة القمح[3].

وتوجد العديد من الآبار والعيون في تلمسان التي تتزود بمياه العيون والأنهار من أعالي الجبال الدائرة بها، وكثرة الينابيع التي تقع خارج المدينة عن طريق شبكة مائية محكمة في قنوات من الطوب مغطاة تحت الأرض، وخاصة الجزء الذي يقع خارج المدينة، وهو السبب في جعل أهل المدينة يصمدون للحصارات العديدة من قبل بني مرين وبني حفص، تصب قناتها الرئيسية في صهاريج داخل المدينة ومنه يوزع على السكان والمرافق العمومية والمؤسسات التربوية والحكومية، وفي ذلك يقول يحيى بن خلدون: "ثم ترسله بالمساجد والمدارس والسقايات، فالقصور وعلية الدور والحمامات فيفهم الصهريج، ويفهق الحياض، ويسقى ربعه خارجها مفارس الشجر ومنابت الحب"[4]، ويدعمه الونشريسي بقوله: "وهو بلد كبير (تلمسان) به حمامات ومدارس يجري به الماء، كله يدخل من خارجه من الجهة الفوقية، ويمر بقنوات محكمة البناء، ويشق في داخل بعض الدور، ويمر بإزاء بعضها إلى أن يخرج من الجهة السفلية"[5]. ونذكر من بين هذه العيون "عين وانزانة" وعين "أم يحيى" و"عين السراق" وعين كسور بالمنية، وعين الفوارة يجلب منها الماء تحت الأرض عن بعد 30 ميلا.

---

(1) حسن الوزان: المصدر السابق، ج2، ص 63.

(2) نفسه، ج2، ص 53.

(3) ابن حوقل، سورة الأرض، ص 93.

(4) يحيى بن خلدون: بغية الرواد، ج1، ص 127-128 – ابن مريم البستان، ص 60.

(5) المعيار، ج4، ص 276.

وجرت العادة أن أهل تلمسان يحفرون في صحون بيوتهم وفي حدائقهم، بحثا على الماء حتى صار لكل منزل تقريبا بئر بمدينة تلمسان[1].

وتنتشر حول تلمسان عدة أودية منها وادي الصفصيف وعليه قنطرة يعبرون عليها، نحو شرق المدينة.وقنطرة باب جياد على وادي مشكيانة، يعبرون منها إلى قرية العباد، وهناك وادي الوريط وضفافه الخصبة.

ويوجد بمدينة تلمسان صهريج كبير أقامه أوشفين الأول 718-737 بالقرب من باب كشوط، يجلب إليه الماء من مرتفعات لالة ستي، يسقون منه الحقول ويتدرب فيه الجنود على القتال في الماء والسباحة، وتلعب فيه الزوارق.ويوجد أيضا صهريج أقل من الأول يمون قصر المشور وحاشية السلطان[2].

ويحيط بمدينة وهران عيون كثيرة وآبار وحمامات، يسقي السكان والفلاحين من هذه العيون، ويحيط بها جداول لسقي الجنائن والحقول[3].

ويوجد بين مديني سطيف ولمسيلة، غدير كبير يعرف بغدير"ورّو"ونحو 360 جبًا في مدينة مجانة بالمغرب الأوسط تقع ما بين باغاي ومرماجنة.

ويذكر صاحب الاستبصار، وجود صهريج عظيم بقلعة بني حماد في وسط القصر المسمى بدار البحر، تلعب فيه الزوارق، ويصب فيه ماء غزير يأتيه من بعيد، اكتشفه Govlin عندما قام بحفريات في القلعة، فعثر على العديد من المواجل والحمامات والكثير من المنشآت المائية[4].

وكان سكان طبنة ينعمون بصهريج مائي كبير يصب فيه نهر بيطام، وتتفرع منه جداول كثيرة تسقي البساتين[5].

---

(1) يحيى بن خلدون: بغية الرواد، ج1، ص 20-85 - الونشريسي: المعيار، ج4، ص 276، عبد العزيز فيلالي: تلمسان في عهد بني زيان، ج1، ص 156 - مارمول: إفريقيا، ج2، ص 299.

(2) نفسه، ج1، ص 156 - ابن مرزوق: المسند، ص 418.

(3) حسن الوزان: المصدر السابق، ج2، ص 30-41.

(4) Govlin le maghreb central à l'époque des zirides P 139.

وبمدينة بلزمة آبار طيبة وماؤها عذب غدق[1]. ويشرب أهل باغاي من وادي وآبار عذبة[2]، ويسقي سكان تادرة، في الغرب الجزائري من بئران ماؤهما عذب معين[3].

ويسقي أهل المسيلة من نهر سهر المعروف بوادي الرييس، وهي قريبة من قلعة بن حماد، لها حدائق وبساتين وعيون[4].

وكانت الآبار تستغل للسقي وللشرب ولتحريك دواليب الطواحين والأرحية مثل ما هو قائم أيضا في مليانة وغيرها من مدن المغرب الأوسط[5].

أنواع السقاية وأساليبها في المغرب الأوسط:

استعمل فلاحوا المغرب الأوسط أنواع عديدة وطرق متنوعة لاستغلال مياه الأنهار والعيون والآبار والمواجن والصهاريج، وقد تكاثفت جهود الفلاحين وملاك الأرض والدولة في إقامة مشاريع للري والسقاية بحيث أقاموا السدود على الأنهار، لحفظ الماء وتخزينه وتحويله على ضفاف الأودية، والأماكن التي تحتاج إلى الري من جهة، ولمقاومة الفيضانات والسيول القوية التي تتلف الزرع والعمران، ووقاية المدن الواقعة على ضفاف الأنهار، فكثفوا من بناء الجسور والقناطر والسدود والتحكم في سيلان الأنهار، والوديان خاصة خلال الفصول الممطرة.

وقد أشار بعض المؤرخين إلى الطرق والوسائل الزراعية والسقاية في المغرب الأوسط خاصة والمغرب الإسلامي على وجه العموم، وتعمقوا في دراسة المنشآت المائية، لتفادي نقص الماء واستعماله لأغراض متنوعة، كما قاموا

---

(1) البكري: المصدر السابق، ص 146.

(2) الإدريسي: نزهة المشتاق، ص 171.

(3) نفسه، ص 177 - الحميري، الروض المعطار، ص 76.

(4) الإدريسي: المصدر نفسه، ص 156.

(5) محمد بن عميرة: المرجع السابق، ص 175.

ببناء المواجل والصهاريج وشق الترع والقنوات وحفروا الأحواض المائية الكبيرة والخزانات لحفظ المياه، بطريقة هندسية محكمة وشقوا القنوات وربطوها بالحواجز والقصور والدور والمساجد، والبساتين والحمامات[1].

أنواع السقاية في المغرب الأوسط:

من أكثر وسائل توزيع المياه في المغرب الأوسط انتشارا هي الدولاب كانت معروفة في بلاد المغرب منذ القرن 4هـ/ 10م ويشبه الناعورة غير أنه أسرع منها في الدوران، ويديره ثور واحد، وهناك من يديره أكثر من واحد يعرف "بالنرد"[2].

أما النواعير وهي المسحرات الدائرة، عبارة عن آلات خشبية دوارة، ويذكر صاحب كتاب الاستبصار أثناء وصفه لمدينة بجاية، بأن لها نهرا كبيرا على ضفافه بساتين كثيرة صنعت عليه نواعير للسقي. وأضاف كلمة السواني لكلمة النواعير[3] والظاهر أن العجلة هي السانية. تشغلها القوة المائية وكذلك يحركها الحيوان والإنسان، والسانية هي الناضحة التي يسقى بها الزرع والحيوان، ومعناها التي ترفع الماء بواسطة دابة كالناقة وغيرها على إناء كبير من الجلد أو عجلة مائية ذات مدار على البئر[4]. ويحمل السانية خمسة قواديس، موزعة على أطوال مساوية لقامة الرجل.

أما الخطارة فمعناها التي "تنحط وترتفع" أي غرّافة ذات عجلة مائية وجمعها "خطاطير" وهي تدل على الأروقة الجوفية للري التي تجلب الماء من

---

(1) فاطمة بلهواري: المرجع السابق، ص 49-50.
انظر. Marcais (G) Zanars D Tihret tagdemt R.A.N 90 1946 PP.32-33
(2) محمد بن عميرة: الموارد المائية وطرق استغلالها ببلاد المغرب من الفتح إلى سقوط الموحدين أطروحة دكتوراه دولة إشراف موسى لقبال الجزائر 2005، ص 227 وما بعدها.
(3) مؤلف مجهول: ص 21 - محمد بن عميرة: المرجع السابق، ص 227.
(4) Colin (G.S): La noria marocaine et les machines hydrauliques dans le monde arabe hesperis T.XIV fasc 1 1er trimestre 1932 PP.40-41.

البئر[1]. فضلا عن الجداول والترع والقنوات والجباب والصهاريج والمواجل التي أعدت خصيصا للسقي وشرب الماء.

وكانت من أشهر وسائل السقاية وتوزيع المياه في المغرب الأوسط وهي الروافع من السواقي أو السواني، والنواعير والدواليب، والخطارة، وهي صنف من أصناف الدواليب، التي تستعمل في جلب الماء من الآبار، أو المواجل والجباب والقواديس[2] وقناطر الماء الخاصة بنقل الماء[3]. وتسقى الجنائن أيضا من العيون والوديان التي تتزود من ماء المطر، وتقام عليها السدود المختلفة الحجم لسقي الفدادين والبساتين، والحقول الزراعية والمغروسات بمختلف أنواعها، ويرفع منها الماء للأرحية[4].

نظام السقاية في صحراء المغرب الأوسط:

يذكر ابن خلدون بأن المغرب الأوسط موطن زناتة البترية، غير أنها اختارت الجهة الغربية منه لاستقرارها، وكذلك حطت رحالها في قصور توات وواحاتها، وفي الواحات المنتشرة جنوب شرق تلمسان وفي نواحي غرداية وورجلان. اشتغل سكان هذه المناطق بغرس النخيل وأنواع أخرى من المغروسات والمزروعات رغم ثقل مناخ الصحراء[5].

إن الظروف التي كان يعيشها سكان هذه الأقاليم جعلتهم يطوعون البيئة القاسية ويوفرون أسباب العيش لهم، ومن بين هذه الأساليب جلب الماء واختراع طرقه بحفرهم للآبار المائية واستغلال مياه الوديان الجارية وتوزيعها

---

(1) محمد بن عميرة: المرجع السابق، ص 232. - Colin (G.S): opcit PP 45-46

(2) بلهواري: المرجع السابق، ص 49-50 - الونشريسي: المعيار، ج6، ص 30 (محمد حجي وآخرون الرباط 1981).

(3) الونشريسي: المعيار، ج8، ص 373-433.

(4) نفسه، ج6، ص 4-5.

(5) كتاب العبر، ج6، ص 245.

على الفلاحين والمستهلكين له، بعد أن يقوموا بجمعه في السدود والآبار والعيون المعروفة بالفجارات أو الفقارات[1].

وتأتي هذه المياه الباطنية من الثلوج والأمطار المتساقطة على الأقاليم الشمالية للمغرب الأوسط من الأطلس الصحراوي وقمم الجبال المحيطة بالواحات. فتنفذ هذه المياه إلى أعماق الصخور الكلسية، وتتلقاها الطبقات الصخرية الرملية، فتصبح خزانات للماء والعيون المتفجرة من باطن الأرض، داخل شبكة من القنوات الباطنية، يطلق عليها الفجارات كما أسلفنا[2].ومنها يقوم الفلاحون بحفر القنوات لجرها إلى حقولهم وبساتينهم، والظاهر أن تقنية الفجارات قد قدمت من بلاد فارس[3].

استعمل فلاحو بلاد المغرب الأوسط تقنيات محكمة في توزيع حصص السقي "الشرب المائية"، على الفلاحين والمستغلين للمياه، وهي تقنية أكثر

---

(1) أحمد مزيان: تدبير الماء عند سكان الواحات الصحراوية مجلة دعوة الحق، ص 67.ينعدم الماء في صحراء المغرب، وتتنوع أخطار الصحراء وزوابع رمالها، وتشكل هاجسا للقوافل التي تجوبها شمالا وجنوبا وشرقا وغربا، وقد يموت الإنسان ودوابه من العطش بسبب فقدان الماء، الذي لا يمكث في قربهم إلا نحو عشرة أيام فقط، فضلا عن إتلاف القرب المملوءة بالماء، وما تسببه الرياح الحارة، من تبخر للمياه المحملة، فهذه الأسباب جميعها جعلت من المسافرين في هذه الصحاري، أن يبتكروا أساليب وقائية من أجل البقاء والاستمرار، أثناء تنقلهم في هذه القفار، فأخذوا يتفادون السير في وقت الهجير، واتخاذ اللثام، والتقليل من الكلام لتفادي العطش. ووضع قطع البلور أو الحصى في الفم لتسهيل انسياب اللعاب، وتفادوا أكل الأطعمة المهيجة للعطش والاستعانة بالماء الذي في بطون البقر الوحشية التي يصطادونها، كما استعانوا بخبرة أهل الصحراء في اكتشاف مواقع الماء أو الآبار التي غمرتها الرياح، وبما كان لهم من فراسة وحداقة في الاستدلال على وجود الماء في جوف الأرض، بمعرفة بعض العلامات التي تدل على قرب الماء أو بعده، مثل: شم التراب بتمييز رائحة النباتات فيه، أو حركة حيوان مخصوص أو التصنت على جري الماء وتسربه تحت الرمال، وهو الأسلوب المعروف عند العرب القدماء "بالرياقة" انظر: حسن حافظي علوي: طرق الاستدلال على وجود الماء وتدبير قلته ودفع مضاره بصحراء بلاد المغرب في العصر الوسيط، مجلة دعوة الحق، ص 53-54.

(2) نفسه، ص 69 انظر أيضا:
Despois (R.E) géographie de l'Afrique du nord paris 1975 P.135.

(3) نفسه، ص 70 انظر: Nadir marouf.lecture de l'espace oarien sindibad paris 1980 P 128.

تطورا في صحراء المغرب الأوسط، ولاسيما في واحة بني ونيف بولاية بشار القريبة من واحة فجيج المغربية، وهو نظام الحصص في مدة زمنية محددة، يتعلق الأمر بإناء مثقوب يملأ بالماء ويعلق في الهواء، وينفذ منه الماء إلى الأرض، والمدة التي يستغرقها إفراغ الإناء من الماء هي الحصة المخصصة لسقي البساتين طوال اليوم، وهي الطريقة التي اعتبرها Gautier نوعا من الساعة المائية[1].

وتوجد في واحة بني ونيف أربعة عيون مائية المعروفة بالعين الكبيرة الدائمة الجريان، يتدفق ماؤها عبر قنوات باطنية إلى أن تظهر على السطح فتنقسم إلى سواقي فرعية لسقي البساتين والنخيل[2].

وتوزع الحصص المائية دوريا على الفلاحين سواء كانوا ملاكي الأرض أو يشغلونها بالإيجار والرهن، والوحدة الأساسية لهذا النظام هي "الخروبة"، وتسمى أيضا أداة القياس الزمني أي "الإناء النحاسي".

وذكر أحد الباحثين الغربيين أن آلة أخرى زمنية للماء تشبه الإناء النحاسي السالف الذكر، المعروف في بني ونيف بالمجل، تستعمل في كل من واحة طولقة ببسكرة، والأغواط بالجنوب الجزائري، وتعرف بالمشكودة أو الشقة وهو إناء نحاسي مخروطي الشكل، فيه ثقب من الأسفل ويفرغ من الماء في مدة زمنية لا تزيد عن 46 دقيقة و26 ثانية، وأن المدة الزمنية التي تستغرقها المشكودة، تساوي الفترة الزمنية التي تستغرقها الخروبة في بني ونيف وفجيج[3].

---

(1) محمد بن عميرة، ص 202 – أحمد مزيان: المرجع السابق، ص 70،
انظر Ross F.dunon ,resistance in the desert U.S.A 1977 P 93

(2) نفسه، ص 71.

(3) نفسه، ص 71.

والجدير بالذكر أن الماء في الواحات الجنوبية يدخل ضمن الأملاك العقارية الخاصة تخضع لشكل استغلال الأرض والانتقال عن طريق البيع والشراء والرهن والكراء، وهي حالة انفردت بها واحة بني ونيف وتوات بالجنوب الغربي للمغرب الأوسط، وفي فجيج والمنصورة بجنوب المغرب الأقصى وإفريقية، بينما نجد بعض الواحات في بعض المناطق من المغرب الأقصى، تكون حقوق السقي فيها ملكية جماعية[1].

وتخصص لسقي واحة ميزاب، آبار الجر الحيواني المعروف "بتيريست" كما عرفت واحة قصور توات والأهقار وقورارة وتيديكلت "نظام الفجارة" أيضا.

وكذلك واحة الساورة وأعالي توات وأسفله. إن صحراء المغرب الأوسط مقسمة إلى قسمين، القسم الأول: هي المجموعة الشرقية الصحراوية تعتمد على الآبار الإرتوازية، بينما يعتمد القسم الغربي منها على الفجارات والعيون أكثر[2].

ووصف البكري الطريق الرابط بين تادمكة بأدرار وإيفوراس بأنه يشتمل على الماء الغزير[3]. وتوجد أيضا آبار إرتوازية بالواحات الشمالية بوادي زيغ وورجلان وصحراء وهران وتوات[4].

وتوجد عدد من الأقاليم تستغني عن الري والسقي في الصحراء وتقع هذه الأقاليم في محيط العروق الكبيرة، تتوفر على طبقة مائية جوفية قريبة من سطح الأرض، يسهل فيها إزالة الطبقة السطحية من الرمل، ومن هذه المناطق وادي سوف[5].

---

(1) أحمد مزيان: المرجع السابق، ص 75.
-Bouchat «Beni ounif sud oranais étude géographique historique medicale,archives de l'institut pasteur d'algerie PP 581-586 .

(2) محمد بن عميرة: المرجع السابق، ص 191 انظر Gautier: le sahara PP 150-151

(3) المغرب، ص 182 محمد بن عميرة: المرجع السابق، صص 218-220.

(4) نفسه، ص 218.

(5) [illegible] 238

النزاعات على الماء وأسبابه:

اهتم أصحاب النوازل بالماء وفوائده للإنسان والحيوان والنبات وما يترتب عليه من النزاعات بين الأفراد والجماعات والقبائل، وكذلك الدول في المراحل المتأخرة، وأن مصنفاتهم لا تخلو من الطهارة، طهارة الجسم والثياب والمحيط، لأن الماء أساسي في العبادات ولاسيما في الصلاة والحج.

وقد جاء في القرآن الكريم "وأنزلنا من السماء ماءا طهورا"[1] "وينزل عليكم من السماء ماءا ليطهركم به"[2] وتوسع الفقهاء في هذا الموضوع وبشكل خاص، كتب الأقضية والحسبة والخراج والنوازل، التي خصصت جزءا كبيرا من الفتاوى، للمشاكل التي تحدث بين الناس في الحواضر والبوادي، وتتعلق بالقضايا الاجتماعية والاقتصادية، خاصة بسبب الأرض والماء والسقاية، فنقلت لنا بأمانة وموضوعية ما دار بين الناس والمجتمعات في المغرب الأوسط والمغرب الإسلامي على وجه العموم[3].

تميز المغرب الأوسط بالاضطرابات الجوية والتغيرات المناخية خلال السنة بسبب عدم انسجام تضاريسه وجغرافيته وتوازنها، فتأثرت الموارد المائية بهذه الظروف المتغيرة لأن تساقط الأمطار في بعض الفصول وقلتها وانعدامها في البعض الآخر، يؤثر على وجود الماء بصفة دائمة في الوديان والعيون والآبار فيقل صبيبها عند الحاجة إليه، وهذا ما جعل الفلاحون يبتكرون تقنيات ومواقيت للري وتوزيع الماء والتداول عليها بين الشركاء، غير أن العامل

---

(1) سورة الفرقان، الآية: 78.

(2) سورة الأنفال، الآية: 11.

(3) فعلى سبيل المثال: أورد أبو زكريا يحيى المازوني التلمساني (ت 883هـ) مسائل الماء والطهارة في كتابه الجزء الأول "نوازل مازونة" أكثر من 40 صفحة من ص 200 إلى ص 240، وجاء في نوازل المعيار، لأبي العباس أحمد الونشريسي (ت 914هـ) أكثر من (90) صفحة، تتعلق بنوازل المياه والمشاكل التي تحدث بين الناس من أجله موزعة على عدة أجزاء، خاصة منها الجزئين 6 و8 انظر المعيار تحقيق محمد عثمان الجزائر 2011 وتحقيق محمد حجي ومجموعة أخرى الرباط 1981م.

الطوبوغرافي الطبيعي والمناخي في المغرب الأوسط أثر على التوزيع الأمثل للماء بين الناس، ولاسيما بين الذين يعرفون بالأعلون والأسفلون[1]. بحيث يستفيد الأعلون أكثر من الأسفلين بحكم الموقع والعامل الطوبوغرافي، مما يجعل الخصومات والاضطرابات، بين الفلاحين في الجهة العليا، والذين يوجدون في الجهة السفلى، ولاسيما أثناء نقص الماء بسبب العامل المناخي، بحيث يجعل صبيب الماء يتذبذب، نتيجة الفترات التي ينقص فيها الماء[2].

فالأعلون يستفيدون من العامل الطبيعي، بحكم موقعهم أعلى الوادي أو بالقرب من منبع الغدير، وبالتالي يتراجع الماء عن الأسفلين لاحتكار الأعلون له، دون غيرهم، أما أثناء الفيضانات، فتظهر مشكلة أخرى بين الأعلون والأسفلون، فيقوم الأولون بتحطيم السدود المقامة على ضفتي الوادي فيتضرر الأسفلون[3].

وقد حاول الفقهاء العمل بثلاث قواعد لتوزيع الماء بين الشركاء، حتى يتجنبون الضرر، فاعتمدوا على القوانين الشرعية المستمدة من التشريع المالكي للمياه، حتى تسود العدالة بين الأطراف وراعوا في ذلك ترتيب الأولويات، وحماية المصلحة العامة، وتصانيف الماء ونوعيته، وطبيعة نشاط الطرف المستفيد[4]، وأخذوا بالأعراف والعادات المسيرة للري والسقاية، حتى يتجنبوا النزاعات بين الفلاحين لأن هذه العادات متجذرة في الوسط الفلاحي وجزء من سلوكاته[5].

---

(1) الونشريسي: المصدر السابق، ج8، ص 381.

(2) سعيد بن حمادة: المرجع السابق، صص 74-75-76.

(3) نفسه.

(4) ابن عذارى البيان (قسم الموحدين)، ص 140.

(5) الونشريسي: المعيار، ج8، صص 381-382 (محمد حجي وآخرون) انظر سعيد بن حمادة، المرجع السابق، ص 78.

وأن الابتعاد عن هذه التشريعات والإخلال بها، هي التي تولد الخصومات وتؤججها، وأن ندرة الماء يضاعف من هذه النزاعات، وكان الرحويون هم الأكثر إثارة للنزاعات، حول الماء لأن أصحاب الحقول والبساتين، يعترضون على استغلال الطواحين للماء، معتمدين في ذلك على الأقدمية في الاستغلال، وإعطاء الأسبقية للأعلون قبل الأسفلون وأصحاب البساتين قبل أصحاب الطواحين(1).

وقد ذكرت النوازل كيفية توزيع ماء السقي على الفلاحين فقد كانوا يعتمدون على الحصص أو ما يعرف بدولة معلومة، فيأخذ الواحد منهم يوما كاملا وطوال الليل(2)، ومنهم من كانوا يقسمونه على خمسة حصص يأخذ الواحد ساعات محدودة(3).ويشير في هذا الصدد الونشريسي إلى عين يستغلها الناس مشاركة، لسقي بساتينهم على فترات متباينة فمنهم من كان يسقي في وضح النهار، ومنهم من يقوم بذلك ليلا، ومنهم من يتخذ غذوة إلى الزوال، ومنهم من يأخذ الوقت من الزوال إلى العصر، وقد استمر هذا النظام بينهم ما يزيد عن نصف قرن من الزمن(4).

وتشير نوازل الونشريسي، إلى نزاعات عديدة، منها نزاع عن مجرى الوادي الذي يصب فيه عدة عيون نابعة من أماكن مختلفة(5)، ونزاع آخر وقع ما بين الفلاحين وأصحاب الأرحية، بسبب التقسيم: ثلاثة سدود لرفع الماء للأرحية، وتسعة سدود لسقي البساتين والحقول(6).

---

(1) الونشريسي: المعيار: ج8، ص 382-383، سعيد بن حمادة: المرجع السابق، ص 76، يقسم الماء حسب الحصص إلى ثلاثة أنواع، الماء الذي يكون في مجرى خاص مملوك لأشخاص أو لشخص واحد، والماء الذي يكون في مجرى عام غير مملوك لأحد، والماء الذي يكون في صهاريج أو أنابيب محرزة، انظر حميد لحمر: اهتمام الفقهاء بموضوع الماء وأقسامه مجلة دعوة الحق، صص 22-23-24.

(2) المعيار، ج8، ص 394.

(3) نفسه، ج8، صص 40-41.

(4) نفسه، ج5، صص 111-112.(محمد حجي وآخرون).

(5) نفسه، ج6، ص 3 (تحقيق محمد عثمان).

(6) نفسه، ج6، ص 5 (تحقيق محمد عثمان).

وكانت النزاعات تقوم بسبب كنس مجاري السقي[1]، وكذلك النزاع حول القذرات والفضلات التي تخرج من المراحيض، في قنوات تصب في النهر، وأثيرت قضية حول الماء الذي يستفيد منه مسجد في قواديس، بتدعيم من القاضي، وعندما عزل القاضي قامت جماعة بالمطالبة بالماء، وهم يقطنون في حومة أخرى، وادعوا بأنه مغتصب[2]. وعن زنقة غير نافذة يدخل الماء في مواضيع، وصارت هذه الأمان ملكية لرجل واحد.

وأثيرت قضية قنطرة ماء الأجنة تهدمت من يقوم بإصلاحها، وعن قسمة بئر جبرا.وظهر نزاع عن ساقيتين ترفعان الماء من وادي واحد، إحداهما فوق الأخرى، وصرف الماء عن أرض الجار[3]، وأهل قرية أرادوا رفع ساقية من وادي يجري بأرضهم لكن ذلك يضر بالآخرين[4].

ويزداد النزاع باستحداث سواقي جديدة لسقي الغلات والمحاصيل الزراعية، وكذلك عند تجهيز أراض للبناء، وما يتطلبه من قنوات جديدة للسقي بالماء الشروب[5].

وتقدم لنا النوازل معلومات عن علاقة البادية بالريف، خاصة فيما يتعلق باستغلال الماء والتجارة، وحسب بعض نصوصها فإن التوتر يقع بينهما بسبب مجاري المياه، وما يتعلق بملكيته، وأن المدينة تحتاج إلى الماء الكثير ليس فقط للاستعمال اليومي له من قبل سكان المدينة، وإنما يتعدى إلى الرفاهية من نافورات وقصور ودور وفنادق وحمامات وجنان[6].

---

(1) المعيار، ج6، ص 17 (تحقيق محمد عثمان).

(2) نفسه، ج6، ص 20 (تحقيق محمد عثمان).

(3) نفسه، ج6، ص 34 (تحقيق محمد عثمان).

(4) نفسه، ج6، ص 303 (محمد عثمان).

(5) نفسه، ج8، ص 172.

(6) عمر بنميرة: المرجع السابق، ص 328 انظر سعيد بن حمادة، المرجع السابق، ص 89-83.

وكانت النزاعات تحدث أيضا بسبب رمي الأوساخ والقاذورات والفضلات، التي تدفعها المجاري الصحية إلى الوادي، فيتضرر أصحاب الحقول والبساتين.وفي فصل الصيف عندما ينقص ماء الوادي أو يجف تظل هذه القاذورات عالقة بقعره[1].

وكانت النواعير أيضا من أسباب تأزم العلاقة بين أهل البادية والريف وأصحاب المدن وإقامتها على ضفاف الوادي يقلل من صبيب الماء وجريانه نحو حقول الفلاحين[2].

وهناك ظاهرة أخرى ذكرتها النوازل وتتعلق بالمجرى المائي الذي يأتي من بعيد ويمر من بلد إلى بلد ينتفع به أصحاب البساتين والمدينة، فيتسبب هذا المجرى في تهديم جدران بعض بيوت المدينة، فيطلب أصحابها من الفلاحين إصلاحها، أو إعادة بنائها فيرفض أصحاب الحدائق، وكان بعض سكان الريف يقومون بتغيير مجرى الوادي الذي يسقي المدينة ويمونها بالماء، عندما تقع الخصومة بينهم وبين أهل المدينة، انتقاما منهم[3].

وصفوة القول:

فالماء هو الحياة للإنسان والحيوان والنبات ومصدر من مصادر الثروة المادية، التي يتنافس عليها الإنسان منذ القدم، وأن التوتر الذي ينتج عن التنافس، وتنتشر الخصومة بين الشركاء في الماء، بين الأفراد والجماعات، على الرغم من وجود وازع قانوني وشرعي وعرفي متأصل يحكم العلاقات بين هذه المجتمعات وينظم الحياة السقوية والرعوية في البادية، إلا أن الروابط الاجتماعية أحيانا تخرج عن نطاق التضامن والتعاون بين الفلاحين، إلى النزاعات والخصومات، إلى حد الاقتتال بين الأفراد والعشائر والقبائل بل حتى بين الدول.

---

(1) الونشريسي: المعيار، ج8، ص 39-40، عمر بنميرة: المرجع السابق، ص 330-331.
(2) نفسه، ج5، ص 334-335 ، انظر أيضا سعيد بن حمادة: المرجع السابق، ص 89.
(3) حسن الوزان: المصدر السابق، ج1، ص 354-355 – عمر بنميرة: المرجع السابق، ص 334.

البعد التاريخي والاجتماعي لعيد يناير
"قسنطينة نموذجا"

تعد مدينة قسنطينة من المدن الجزائرية الهامة العريقة بتاريخيها وحضارتها وبتراثها، عرفت الاستقرار البشري منذ ثلاثة آلاف سنة، زاد في أهميتها إقليمها الجغرافي الواسع، بحيث كانت عاصمة لمملكة نوميديا، تأسست المدينة ما بين القرنين الرابع والثالث ق م، ومرت عليها حضارات وثقافات عديدة مثل الحضارة النوميدية والحضارة الفينيقية والرومانية والوندالية والبيزنطية، ثم الحضارة العربية الإسلامية، التي احتضنها أهلها وساهموا في إنعاشها ونشرها عبر ربوع بلاد المغرب وجنوب أوروبا وبلاد السودان.

وعلى الرغم من تعاقب هذه الحضارات والثقافات عليها فان أهلها ولاسيما في الأرياف، لم ينسوا بعض العادات والتقاليد المحلية القديمة التي تعود إلى الألفية الأخيرة قبل المسيح، ولاسيما منها الاحتفال بعيد التقويم الأمازيغي، وهو التقويم الفلاحي الذي ظل الفلاحون الجزائريون يحيونه حتى اليوم وهي ظاهرة اجتماعية طقوسية دينية قبل مجيء الإسلام إلى هذه المنطقة.

فقد كانت المجتمعات القديمة، ومن بينهم الأمازيغ أو النوميديين أو الليبيين أو البربر أو الموريطانيين، وهي الأسماء العديدة التي أطلقت على سكان الشمال الإفريقي قبل الإسلام.كانوا عاجزين عن فهم الطبيعة والكون، وتفسير الظواهر التي تظهر من حين لآخر حسب معتقداتهم وذهنياتهم وثقافتهم.

فقد كانت الأرض تجود عليهم بالخيرات من المغروسات والمزروعات والفواكه المتنوعة.

وكانت السماء تجود على الأرض بالأمطار التي تنعش الحقول والبساتين، وكذلك كانت العواصف والأعاصير والأمطار الغزيرة والثلوج والرياح

والزلازل والفيضانات، التي شكلت خوفا وهاجسا كبيرا في حياتهم، ولهذا حاولوا أن يتوصلوا لإرضاء القوة الخفية التي تحرك هذه الظواهر الطبيعية، والتقرب منها بواسطة القرابين والذبائح والتعويذات والطقوس التي أصبحت معتقدات تأصلت في أوساطهم وصارت تراثا تناقلته الأجيال النوميدية أو الأمازيغية عبر القرون والى يومنا.

فبهذه المعتقدات والطقوس، نظم المجتمع النوميدي الأمازيغي علاقته مع القوة الخفية الكبيرة، من أجل البقاء والاستمرار في هدوء وأمان وتوفير الأمن الغذائي لأهلهم.ومن بين هذه العادات والتقاليد الاحتفال **"بينايرأو الناير** أو **"رأس العام"** كما يسمى في إقليم قسنطينة، وفي هذا الشأن يقول أحد الباحثين:

"لقد كانت العلاقة بين الإنسان والطبيعة في جميع المجتمعات التقليدية علاقة متوترة، تتسم بالخوف والعجز من قواها الكامنة، ولذلك لجأ الإنسان الى محاولة بناء وسائط تصورية تمثيلية، يشرح فيها لنفسه ولغيره مفهومه إلى أسرارها وألغازها بغية تعقيلها واستئناسها، وبالتالي التعايش معها، في كنف الأمن من مجاهلها، والاستقرار النفسي من طلاسمها، وصولا إلى تقبلها والتكيف معها في انتظار ابتداع الوسائل الملائمة، التي تتيحها له ظروفه الموضوعية، ودرجة تطور وعيه لتطويعها وتسخيرها لمصلحته، لما يجعله يستخلص منها الخيرات المادية التي يتطلبها وجوده المادي والأدبي"[1].

والمغزى من الاحتفال بينايّر أو رأس العام، هو سلوك رمزي يقدم للقوة الخفية المتحكمة في الكون، يرجى منها الخصوبة والازدهار الاقتصادي والاجتماعي والأمان والصحة، والأمن الغذائي وإبعاد الشرور عن بني الإنسان الضعيف.وهي ذهنية وثنية، ومعتقد صار شعبيا رسخ في أذهان وعقليات وسلوكات وطقوس الأمازيغ، كغيرهم من الشعوب الوثنية آنذاك،

(1) محمد حمداوي: بن سنوس في النصف الأول من القرن 20، دار العرب للنشر 2002 ص ب-محمد أرزقي فراد البعد الوطني في عيد يناير الأمازيغي بني سنوس نموذجا مقال مرقون، ص 2.

وهي دلالات فلسفية وفلاحية واجتماعية ونفسية معبرة عن انبعاث الحياة الجديدة، واستشراق للمستقبل، بالتفاؤل والقربان والطقوس، التي تبعث الأمل في حياة الإنسان وتملئ صدره بالتفاؤل والسعادة[1].

الجذور التاريخية لينابر:

عرف أحد الباحثين شهر الناير بقوله: "أول شهر التقويم الفلاحي الشمسي (تقويم جوليان)، ويدخل هذا اليوم ضمن ما يسمى بأيام العواشر، التي تعتبر أياما دينية عندهم فالناير يعد بمثابة "ثابوت اوسقاس" أي بوابة السنة، وقد جاءت في إحدى المقالات المحلية الأمازيغية: "أن صهد حرارة شهر غشت (أوت) ينغرز في باطن الأرض، قدر نفاذ مياه شهر يناير إلى عمقها".

ويسمى اليوم الأخير من شهر الناير في الأسطورة الأمازيغية "بأمرضيل" ويعني القرض أضيف إلى شهر فرور (فبراير)[2].

أما بالنسبة للتفسير اللغوي لكلمة"الناير"، فهي مؤلفة من لفظين اثنين الأولى"ين" ومعناها واحد أو الأول و"يّر" ومعناه الشهر أي الشهر الأول من مطلع السنة الجارية، ويسمى أيضا عند بعض"إيض أوسقاس" وتعني ليلة العام، على أساس أن شهر يناير يفصل بين البرد القارس، التي تنتهي في العشرة ليالي الأخيرة، وفترة الاعتدال الجوي[3].

إن أول يناير من العام الجديد النوميدي أو الأمازيغي أو الليبي يصادف 12 جانفي من كل سنة ميلادية. ويمكن أن نعدّ التقويم الأمازيغي، أسبق من التقويم المسيحي بأكثر من 9 قرون من الزمن، وقبل الروماني بأكثر من قرنين من الزمن ومتقدم على الهجري بنحو 15 قرنا من الزمن.

---

(1) محمد أرزقي فراد : المرجع السابق، ص 4.

(2) نفسه.

(3) نفسه، ص 3.

أسنده الأمازيغ إلى حادث تاريخي هام في حياة الأمازيغ السياسية والعسكرية بقيادة الأمير شيشنق سنة 950ق م وهي السنة التي انتصر فيها الجيش الأمازيغي على الجيش الفرعوني المصري

الذي تقدم بجيوشه نحو بلادهم لتأديبهم وإخضاعهم إلى دولته، في معركة حامية الوطيس، عاد بعدها الجيش الفرعوني مدحورا إلى بلاده مقهورا.

وتشير الرواية الثانية إلى أن 12 يناير هو اليوم الذي اعتلى فيه شيشنق أمير الأمراء وكبير الماشواش الأمازيغ عرش مصر الفرعونية وهو مؤسس الأسرة 22 الليبية الفرعونية، فأبوه يدعى "نمرات" وأمه تسمى السيدة "محت أم واشخة" انتقلت إليه السلطة بدون إراقة للدماء، من الأسرة 21 الفرعونية، لأن الليبيين الأمازيغ، كانوا يعيشون بكثرة على أرض مصر، ولاسيما في الوجه البحري الشمالي بواسطة الهجرة السلمية من جهة، ولأنهم كانوا يشكلون قوة عسكرية ضاربة، في جيش فرعون، لحماية الحدود الخارجية للدولة المصرية، بالإضافة إلى أن نجل شيشنق وهو "سركون" كان زوجا لابنة آخر ملوك الأسرة 21 الفرعونية ويدعى "كارع ومع ماع".

وقد تمكنت أسرة شيشنق من أن تصبح سلطة كهنوتية في "أهناسية" (هرقليو بوليس) وعلى هذا الأساس استطاعوا أن يتبوأوا سدة الحكم في مصر سنة 950 ق م في "بوبسطة"الزقازيق في شرق دلتا النيل.

حكمت هذه الأسرة مصر نحو 120 سنة تعاقب عليها خمسة ملوك يحملون اسم شيشنق وأربعة ملوك يحملون اسم "سركون" وثلاثة ملوك يحملون اسم "تاكلوت"[1].

استطاع شيشنق خلال حكمه أن يمد أطراف الدولة المصرية ونفوذها إلى فلسطين وأن يستولي على كنوز بيت الرب معبد سليمان، كما أشارت إلى ذلك

التوراة ونقيشة ليبية، وقام ببناء عشر مسلات دفاعية عظيمة بمعبد الكرنك وكان لهذه الحملة الحربية أثر كبير على فلسطين ولبنان وتوطيد مركز مصر في هذه الربوع وأخذ الولاة الفينيقيون يتسابقون لتقديم الطاعة والولاء لشيشنق، فأعطى بذلك سمعة ومكانة كبيرة لمصر"[1].

وبداية التقويم الأمازيغي، تعني بداية السنة الفلاحية ولا يزال الفلاحون يعرفون ظروف تقلبات الطقس، وكثيرا ما يصيبون في احتمالاتهم، ولا يزال البعض منهم يستعمل هذا التقويم وخاصة الأشهر، وكانوا يحرصون على شراء "شهريات" كانت تستعمل التقويم الفلاحي جنبا إلى جنب مع التقويم المسيحي والهجري، وتتضمن مواقيت الصلاة، وأسماء شهور السنة الأمازيغية وهي كالآتي:

* شهر يناير أو الناير الموافق لشهر جامفي كانون الأول من السنة الميلادية.
* شهر فورار وهو شهر فبراير.
* شهر مغرس وهو شهر مارس.
* شهر يبرير وهو شهر أفريل.
* شهر ماية وهو شهر (مايو) ماي.
* شهر يونية وهو شهر جوان.
* شهر يولية وهو شهر جويلية.
* شهر أغشت وهو شهر أوت.
* شهر شتمبر وهو شهر سبتمبر.
* شهر أمبر وهو شهر نوفمبر.
* شهر دوجمبر وهو شهر ديسمبر.

---

(1) أحمد الفخري: مصر الفرعونية، ص 399.

وهي تسميات تقترب من تسميات الأشهر الغربية[1].

ولا يزال القلة القليلة من الفلاحين الكبار السن يحفظون أسماء هذه الأشهر الأمازيغية الفلاحية، بتفاصيلها، فكانوا يعرفون بأن فصل الشتاء مثلا يبدأ قبل شهر "دوجمبر" (ديسمبر) بـ 14 يوما ثم يأتي شهر "دوجمبر" الذي يقسم إلى 11 يوما الأولى، وتعرف بأيام "الرفق"، ثم العشرين يوما التالية وتسمى "قوارح" لشدة برودته.

أما شهر يناير فيقسم هو الآخر إلى 11 يوما الأولى التي تنعت "بالغزيرة" لشدة غزارة الأمطار فيها، وتسمى العشرة أيام التالية بـ "صوالح"، وتسمى العشرية الثالثة "بالمدابيب".

ويبدأ شهر فورار "فيفري"، الذي يحل فصل الربيع في اليوم الرابع عشر منه، ويتكون من 28 يوما فقط، يطلق على النصف الأخير منه "بأيام الزرع والضرع"، وهو شهر معروف بتقلباته الجوية ويقال عنه في قول مأثور "فورار يتقلب سبع مرات في النهار".

ويأتي بعده شهر "مغرس"، يغرس فيه الأشجار المثمرة وتلقح فيه الأشجار أيضا ويقال عنه "فات الغرس في مغرس" دلالة على أنه إذا فات شهر مغرس، فات الأوان عن الغرس.

وأن السبعة الأيام الأخيرة منه، إضافة إلى الأسبوع الأول من شهر أبرير "أفريل" الموالي لمغرس تسمى "الفطيرة" وهي الأيام التي يشتد فيها البرد، بعد الاعتدال الربيعي "الكاذب".

وينتظر المزارعون في شهر أبريل هطول الأمطار التي تحدد مصير الموسم الفلاحي ويقول المثل المأثور في ذلك: "أجبدها يا أبرير من قاع البير" و"أنبت يا شهر أبرير الزرع حتى ولو كانت البذرة في مستوى قعر البئر".

---

(1) محمد أرزقي فراد: المرجع السابق، صص 2-3.

ويأتي شهر "ماية" الذي تصبح أيامه الأخيرة "الصيف الأخضر".وبعد هذا الشهر تأتي 63 يوما للصيف لم نجد عن ذلك تفصيلات كثيرة حولها، وتنتهي بشهر "أغشت" الذي يحل في منتصفه شهر الخريف[1].

مظاهر الاحتفال:

يبدأ الإعداد للاحتفال بالعام الجديد أو رأس العام، يقوم الرجال بتحضير الدواجن على عدد أفراد العائلة والمدعوين والأقارب وذبحها، وتقوم النساء بإعداد الطعام "أمنسي الناير" بكمية وافرة ويقصدون بذلك إرضاء الأرواح الخفية المجاورة للإنسان عن طريق تقديم القربان "أخفيض" أو "أسفل" من خلال الضحية "أسيزل إذا من" أي إسالة الدم الذي سوف يذهب إليهم أي إلى الأرواح المخفية، بذبح الدواجن، وكذلك بوضع الأطعمة في بعض المواقع والأماكن من البيت وخارجه وفي أدوات العمل المنزلية الهامة "كثيسيرث" (المطحنة) و"أزطاّ" الكانون و"ثيكجذيث" (عمود السقف).

ثم تجتمع العائلة حول مائدة واحدة، وتأكل حتى التخمة ولا ترفع الموائد إلا بعد التأكد من كل أفراد الأسرة، أنها قد شبعت لأنه حسب اعتقادهم، أن الذي لا يشبع في هذه الليلة، سيظل جائعا طوال السنة الجديدة.

وإذا توقف أحد الأطفال عن الأكل وإتمامه، فإن رب المنزل يخيفه بقدوم "أتسريل" ويقصد به عجوز يناير لتملأ بطنه بالتبن.

ويتشكل العشاء عادة عند العائلات، حسب المناطق المختلفة فمنهم من يطبخ البركوكس بالحليب ومنهم من يتعشى بالكسكسي المعد بلحم الدجاج أو الحجل أو الأرانب أوالضأن أوالماعز بالمرقة المشكلة من عدة أنواع من البقوليات الجافة، أو بالثريد و"تاجعورث" وهوخبز مصنوع بالبيض، توضع

---

(1) الإنترنيت.

كل بيضة بقشرتها فوق كل خبزة، في شكل قرص، ويعدّ هذا الخبز خصيصا لتوزيع البعض منه على الجيران والأقارب[1].

ومن العائلات في مناطق مختلفة من يعد السفنج في هذا اليوم وفي منطقة القبائل تحضر الخضر الجافة مثل: الشرشم والحمص والفول، والغرايف (القرصة) تيغريفن والفواكه الجافة مثل التين والمشمش والمكسرات كاللوز والجوز والبندق.

وتصنع الحلويات من الزبيب والبيض، وكانت النساء تحرص على رمي قشور البيض في أماكن آمنة حتى لا تصلها أرجل المارة.

ويقدم أثناء الليل خليط من الفواكه الجافة في أطباق تسمى "تراز" أو جراز، يتشكل من التين المجفف والرمان وفي بعض الأماكن يوضع طفل أو بنت داخل السلة ويفرغ على رأسه طبق تراز، وهو سلوك يرمز للخيرات والخصوبة.

وتستبعد التوابل الحارة أو المرّة، عن الأطعمة المحضرة للعشاء في يناير، باعتبارها فأل شؤم تهدد آكلها بالقحط والجفاف والسنة العجفاء[2].

ويتم في هذا اليوم أيضا بعض العادات، كتغيير الأدوات المنزلية، وإفراغ الموقد من رماده، وتغيير أثافيه الثلاثة (المناصب)، ويقومون بقص شعر الأطفال تيمنا بزبر الأشجار في هذا الوقت، التي تجعلها تثمر أكثر في الموسم الجديد، وتحرص النساء على تغطية دلو الماء، وتتوقف عن غزل النسيج مع ضرورة إخلاء النول (المنسج) من النسيج، إذا وصل يناير ولم تكمل نسجها، وإبعاده خارج البيت إلى حين انقضاء العيد، والإقلاع عن اللغو والكلام الفاحش إرضاء للأرواح الطيبة.

ويضاف إلى هذه السلوكات عدم غسل أدوات المطبخ والأكل، وعدم نفض فتات الخبز، وعدم نقل النار من منزل إلى آخر، ويحجمون عن كنس المنزل بالمكنسة، وأن المرأة القبائلية لا تحمل الحزام في صلبها في يوم يناير رمزا للتخصيب ووفرة الولادة.

أما الرجال فيقومون بفلق الرمانة على المحراث تبركا بالمحصول الزراعي الوافر(1).

مظاهر الاحتفال في قسنطينة وضواحيها:

يقوم سكان قسنطينة وضواحيها، بالاحتفال بعيد يناير من كل سنة ويطلقون عليه "رأس العام"، وتتمثل هذه المظاهر في إقامة مأدبة عشاء على شرف العائلة بثريد الطاجين أو "لفتات" عند البعض، يصنع من الدقيق المزوج بالماء والزيت والملح، ويوضع على النار فوق طاجين "النمرة" محدب من الفخار. ولا تزال العديد من العائلات تستعمله في وقتنا هذا.

ويقوم الرجال بذبح الديوك أو الدجاج ومنهم من يحضر الحجل على عدد أفراد العائلة فلكل رجل ديك، ولكل امرأة دجاجة، والاثنين معا للمرأة الحامل، وفروج لكل طفل أو بنت أو ديك واحد لاثنين منهما.

ويطهى ثريد الطاجين أو الفتات عند القرويين بمرقة الدجاج والبقوليات وكذلك الشرشم المشكل من القمح والحمص وبعض قطع من العجينة تسمى بوخبوز، ويُعَدُّ الأكل في مائدة واحدة تجمع عظام الدواجن المذبوحة، وتوضع تحت إناء، ثم يتركونه إلى الغد، حيث يرفعون عليه الغطاء، تبركا وتيمنا بأهل الدار وبزيادة الخصوبة في الحيوان والإنسان والنبات.

---

(1) محمد أرزقي فراد: المرجع السابق.

وكانوا يحملون بعض الأكل، وبعد البسملة يرمون لقمات منها في أماكن عديدة من المنزل وخارجه بالدكان والباب والمطحنة وعمود السقف وفي جذع الزيتونة الكبيرة، إرضاء للقوة الخفية، ولأنهم يعتقدون بأن أرواح الصالحين والملائكة حاضرة معهم ومحيطة بهم.

وهذا دليل على أن الاحتفال بعد مجيء الإسلام إلى يومنا، تهذبت مظاهره، وتخلصوا من تلك الوثنية التي لا تتناسب مع القيم الروحية الإسلامية السامية والتي تتعارض مع مقاصد الإسلام والشرع.


فهرس

فهرس